المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

385

إبداعات عالمية

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

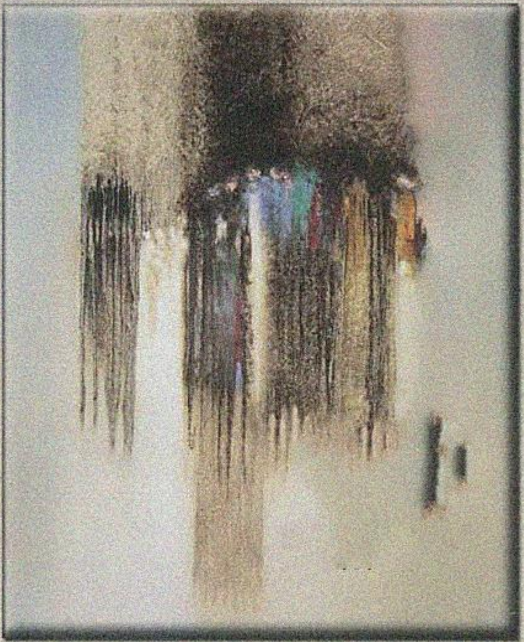

المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي

(الجزء الثالث)

ترجمة وتقديم: د. موسى الحالول

مراجعة: د. إسماعيل صافية

صدر هذا العدد بمناسبة
مرور ٥٠ عاما على رحيل
الكاتب إرنست همنغواي

يونيو 2011

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

المجموعة القصصية الكاملة

(الجزء الثالث)

تــــألــــيــــف: إرنست همنغواي
ترجمــة وتقــديم: د. موسى الحالول
مــــراجـــعــــة: د. إسماعيل صافية

العدد 385 يونيو 2011

اعتذار واجب

يحـــرص المجلس الوطنـــي للثقافة والفنـــون والآداب دائما على الدقة فـــي مواعيد إصداراته الثقافية بقـــدر حرصه على تميزها بالرصانة والرقي، اتساقا مع طموحات القارئ العربي الذي يتطلع إلـــى أن تصل إليه هذه الإصـــدارات في مواعيدهـــا المعتادة، منذ انطـــلاق بواكيرها الأولى، من دون تأخر أو إبطاء، وهو الأمر الذي يمثل مسؤولية جســـيمة يصر المجلس الوطني - مختارا - على أن ينهـــض بها على خير وجه، إيمانا منا بـــأن موعد صدور المطبوعة هو لقاء حميم يجمعنا بالقارئ الكريم، وأن من أدب اللقاء أن يكون في موعده، وألا ينقطع حبل التواصل بيننا مهما كان حجم الصعاب التي تواجهنا، لذلك نرى أن للقارئ الكريم حقا علينا يتعين أن نؤديه له، وهو واجب الاعتذار عن التأخر الذي اضطررنا إليه اضطرارا، والـــذي اعترى إصداراتنا منذ عدة شـــهور، وجعل القارئ يفتقد ما تعوده فينا من التزام بالموعد وانضباط في تاريخ الصدور.

وإذ نستميح القارئ الكريم عذرا عن هذا التأخر الذي طرأ على جميع إصداراتنا - لظروف لوجستية خارجة على إرادتنا - لنعرب عن ســـعادتنا بزوال هذا العارض، وعودتنا إلى اســـتئناف لقاءاتنا المنتظمـــة بقراء العربية في كل مكان. ونغتنم هذه المناســـبة لنجدد العهد بحفظ التواصل، والمحافظة - كدأبنا - على انضباط مواعيد الإصدار، بقدر حرصنا على رصانة المضمون ورقي المحتوى.

الأمين العام للمجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

• المجموعة القصصية الكاملة

لإرنست همنغواي

العنوان الأصلي:

The Complete Short Stories of

of: ERNEST HEMINGWAY

Scribner Paperack Fiction

Published by simon &Schuster 1987

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2011م

إبداعات عالمية - العدد 385

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

تنويه

نحيط القارئ الكريم بأن هذا الجزء هو الثالث والأخير من المجموعة القصصية الكاملة للكاتب / إرنست همنغواي.

إن هي إلا رحلة واحدة
(١٩٣٤)

أنت تعلم كيف هي الأمور في الصباح الباكر في هافانا حيث لا يزال المتسكعون ينامون ملاصقين لجدران الأبنية، وحتى قبل أن تأتي عربات الجليد لتوزع الجليد على المقاهي؟ على أي حال، عبرنا الساحة من رصيف المرسى إلى مقهى جوهرة سان فرانسسكو لنتناول القهوة، ولم يكن قد استيقظ سوى شحاذ واحد، وكان يشرب من صنبور للمياه في الساحة. لكن عندما دخلنا المقهى وجدنا ثلاثة منهم في انتظارنا.

جلسنا، فأقبل أحدهم نحونا.

«حسن»، قال لنا.

«لا أستطيع»، قلت له. «كان بودي لو أستطيع أن أسدي إليك هذا المعروف. لكنني أخبرتك ليلة أمس أنني لا أستطيع».

«بإمكانك أن تطلب السعر الذي تريد».

«ليس خلافنا على السعر. لا أستطيع أن أقوم بالمهمة. هذا كل ما في الأمر».

جاء الآخران ووقفا بجانبنا والحزن باد عليهما. كانت هيئتهما تدل على أنهما رجلان طيبان، وكنت أتمنى لو أستطيع أن أسدي إليهما ذلك المعروف.

«ألف عن كل واحد»، قال الذي يتحدث الإنجليزية جيدا.

«لا تثقل علي»، قلت له. «أقول لك بصدق إنني لا أستطيع».

«عندما تتغير الأمور لاحقا، ستكتشف قيمة هذا العرض».

«أعرف ذلك. وأنا معكم قلبا وقالبا، لكنني لا أستطيع».

«لم لا؟».

«لأنني أكسب رزقي من الزورق، وإن فقدته فقدت مورد رزقي».

«تستطيع أن تشتري قاربا جديدا بالمال (الذي تكسبه منا)».

«ليس وأنا في السجن».

لا بد أنهم ظنوا أنني كنت في حاجة إلى إقناع، لذلك ظل هذا الرجل يجادلني بلا هوادة.

«ستكسب ثلاثة آلاف دولار، وستعرف قيمة هذا المبلغ لاحقا. وكل هذا لن يدوم طويلا، كما تعلم».

«اسمعوني»، قلت لهم. «لا يهمني من يكون الرئيس في هذه البلاد، لكنني لا أحمل إلى أمريكا أي شيء يتكلم».

«هل تقصد أننا سنتكلم؟». قال الذي لم يتحدث من قبل، وكان غاضبا.

«لقد قلت أي شيء يتكلم».

«هل تظن أننا لنغواس لارغس؟»[1]

«لا».

«وهل تعرف معنى لنغوا لارغا؟».

«نعم. إنه شخص ذو لسان طويل».

«وهل تعلم ماذا نفعل بهؤلاء؟».

«لا تقسوا علي»، قلت لهم. «لقد سمعت عرضكم، ولم أعدكم بشيء».

---

(١) «لنغواس لارغس»: عبارة بالإسبانية تعني «ألسنة طويلة»، أي ألسنة ثرثارة [المترجم].

«اخرس، يا پانشو»، قال الذي كان يتحدث من قبل للغاضب.

«لقد قال إننا سنتكلم»، قال پانشو.

«اسمعوني»، قلت لهم. «قلت لكم إنني لا أحمل أي شيء يتكلم. المشروبات المسروقة لا تتكلم. دمجانات المسكرات لا تتكلم. هناك أشياء أخرى لا تتكلم. أما الرجال فيتكلمون».

«وهل يتكلم الصينيون؟». سألني پانشو، وكان غاضبا غضبا شديدا.

«نعم، باستطاعتهم أن يتكلموا، لكنني لا أفهمهم»، قلت له.

«إذن، أنت ترفض».

«كما قلت لكم ليلة أمس، لا أستطيع».

«لكنك لن تتكلم؟». سألني پانشو.

الشيء الوحيد الذي لم يفهمه فهما سويا جعله غاضبا. وأظن أن لخيبة الأمل دورا أيضا. لم أشأ حتى في الرد عليه.

«أنت لست لنغوا لارغا، أليس كذلك؟». سألني وهو يتميز من الغيظ.

«لا أعتقد ذلك».

«ما هذا؟ تهديد؟».

«اسمعني»، قلت له. «لا تتخاشن في هذا الوقت المبكر من الصباح. أنا على يقين أنك جززت أعناق كثير من الناس. وأنا لم أتناول ولو فنجان قهوة بعد».

«إذن، أنت متأكد أنني جززت أعناق الناس؟».

«لا»، قلت له. «ولا يهمني الأمر لا من قريب ولا من بعيد. ألا يمكنك أن تتعامل معي من غير غضب؟».

«أنا غاضب الآن»، قال لي. «وأود لو أقتلك».

«أوه، بحق الجحيم، لا تسرف في الحديث»، قلت له.

«هيا بنا، يا پانشــو»، قال الأول، ثم قال لي: «أنا آســف جدا. أتمنى لو تأخذنا».

«وأنا آسف أيضا. لكنني لا أستطيع».

اتجــه الثلاثة نحو الباب، وراقبتهم وهم يمضون. كانوا شــبانا وسيمين ومتأنقين في لباسهم. لم يكن أي منهم يرتدي قبعة، لكنهم بدوا كأن عندهم مالا كثيرا. على أي حال، كانوا يتحدثون عن مال كثير، وكانوا يتحدثون الإنجليزية التي يتحدثها الأغنياء في كوبا.

بدا اثنــان منهم كأنهما أخوان، أما الآخر، پانشــو، فقد كان أطــول قليلا لكنه لا يختلــف عنهما من حيــث المظهر: نحيف، ملابس جيدة، شعر لامع. لم أعتقد أنه شرير كما يوحي كلامه. أعتقد أنه كان شديد التوتر.

ومــا إن خرجوا من الباب وانعطفــوا نحو اليمين، حتى رأيت سيارة مقفلة تتجه نحوهم من الطرف الآخر للساحة. سقط لوح من الزجاج أولا، ثــم ارتطمت الرصاصة بصف الزجاجات على جدار العرض إلى اليمين. ســمعت الرشــاش يطلق: طاخ، طاخ، طاخ، ثم تتحطم الزجاجات على طول الجدار.

قفزت وراء المقهى على اليسار، وكنت أستطيع أن أرى من فوق حرفه. كانت الســيارة قد توقفت، وشخصان ينبطحان بجانبها. كان أحدهما يحمل رشــاش تومسن، بينما الآخر يحمل مسدسا آليا مشــطوف الفوهة. كان حامل رشــاش تومســن زنجيا. أما الآخر فقد كان يرتدي مئزر سائق أبيض.

كان أحـــد الشـــبان يتمدد على الرصيــف، منكبا على وجهه، تمامـــا عند النافـــذة الكبيرة التي تحطمـــت. بينما كان الآخران خلف عربات جليد الشراب المدارية المتوقفة أمام مقهى «كونارد» المجاورة. كان أحد أحصنة عربة الجليد على الأرض بكامل عدته، ويرفس، بينما كان الآخر يجمح جموحا جنونيا.

أطلق أحد الشـــبان النار من الزاوية الخلفية للعربة، فارتدت الرصاصة عن الرصيف. كان وجه الزنجي صاحب رشاش تومسن يكاد يلتصق بالشـــارع، فرشق مؤخرة العربة من أسفل بوابل من رشاشـــه، وبالفعل ســـقط أحدهم باتجاه الرصيف، فصار رأسه فوق حرفه. راح يتخبط، ويضع يديه فوق رأســـه. أطلق الســـائق مسدســـه عليه، بينما كان الزنجي يلقم رشاشـــه من جديد، لكن الطلقـــة كانت بعيدة. كان بإمكانك أن ترى علامات الخردق على الرصيف كأنها حبات من لجين معقود.

ســـحب الشـــاب الآخر رفيقه المصاب من رجليه إلى ما وراء العربة، ورأيت الزنجي ينبطح على الرصيف ليرشقهم بوابل آخر. عندئذ رأيت صاحبنا پانشـــو يستدير عند زاوية العربة ويحتمي بمؤخرة الحصان الواقف. ابتعد عن الحصان وكان وجهه أبيض مثل قماشـــة متسخة، فأصاب السائق برشاش «لوغر» الذي كان يحمله بكلتا يديه ليحافظ على توازنه. أطلق رصاصتين مرتا من فوق رأس الزنجي، وهو يقبل نحوه، ورصاصة باتجاه الأسفل.

أصاب إحدى عجلات السيارة لأنني رأيت الغبار يثور دفقات، دفقات بينما كان الهواء يخرج من العجلة. وعلى مســـافة عشـــر أقـــدام، أصابه الزنجي في بطنه، وبآخر رصاصة فيما يبدو في

رشــاش تومســن، لأنني رأيته يلقيه أرضا، فراح صاحبنا بانشو يتهــاوى وينكب على وجهه. كان يحــاول أن ينهض، وهو لا يزال يمسك برشــاش «لوغر»، لكنه لم يستطع أن يرفع رأسه، عندما جاء الزنجي وتناول المسدس الذي كان يستند على عجلة السيارة بجانب الســائق، فمــزق بها أحد جانبي رأســه. إنه زنجي قولا وفعلا.

أخذت جرعة ســريعة من أول زجاجة رأيتها مفتوحة، وليس بإمكانــي أن أقول لك الآن ماذا وجدت فيها. جعلني الأمر برمته أشعر شعورا سيئا. تسللت من خلف المقهى إلى المطبخ في الخلف حتى خرجت. انســللت إلى خارج الساحة ولم أنظر حتى ورائي نحو الحشد الذي كان يتجمع بسرعة أمام المقهى، فعبرت البوابة إلى رصيف المرسى وصعدت قاربي.

كان الشــخص الذي اســتأجر الزورق ينتظرنــي على متنه. أخبرته ما حدث.

«أين إدي؟». سألني جونسن هذا الذي استأجر الزورق.

«لم أره قط بعد أن بدأ إطلاق النار».

«هل تظن أنه أصيب؟».

«لا وحــق الجحيــم. أقول لك إن الرصاصــات الوحيدة التي ســددت نحو المقهى أصابت نافذة العرض. حــدث هذا عندما كانت الســيارة آتية خلفهمــا. عندئذ أصابا أول شــخص أمام النافذة. كانا يسيران في زاوية.....».

«يبدو أنك واثق تمام الثقة مما حدث»، قال لي.

«لقد كنت أراقب»، قلت له.

عندئذ رفعت رأسي، فرأيت إدي يسير على رصيف المرسى، فإذا به أطول من ذي قبل وأكثر اتساخا. كان يمشي كأن مفاصله جميعا ركبت في غير مواضعها.

«ها قد أتاك».

كان إدي في مظهر سيئ. لم يكن مظهره جيدا على الإطلاق في الصباح الباكر، لكنه لم يبد بهذا السوء قط.

«أين كنت؟». سألته.

«على الأرض».

«هل رأيت ما حدث؟». سأله جونسن.

«لا تتحدث عما حدث، يا سيد جونسن»، قال له إدي. «إن مجرد التفكير فيما حدث يسبب لي الغثيان».

«يجدر بك أن تتناول مشروبا»، قال له جونسن. ثم قال لي: «حسن، هل سنبحر؟».

«الأمر عائد إليك».

«كيف سيكون هذا اليوم؟».

«مثل أمس، تقريبا. أو ربما أفضل».

«دعنا نبحر، إذن».

«حسن، لكن حالما يأتي الطعم».

صار لنا نبحر في هذا الكتكوت[٢] منذ ثلاثة أسابيع نصطاد السمك في النهر، ولم أر شيئا من ماله حتى الآن، ما عدا مائة دولار أعطاني إياها من أجل دفع الرسوم القنصلية ورسوم الزورق، ومن أجل الطعام والوقود قبل أن نعبر من الجهة

---

(٢) الكتكوت هو تعبير تحبب للقارب [المترجم].

الأخرى[٣]، اســتأجر الزورق بمبلغ خمسة وثلاثين دولارا لليوم الواحد، وكنت أنا أزوده بعدة الصيد. كان ينام في أحد الفنادق، وكان يأتي إلى الــزورق كل صباح. كان إدي هو الذي رتب هذه الصفقة، فكنت أعطيه أربعة دولارات في اليوم.

«علي أن أملأه بالوقود»، قلت لجونسن.

«لا بأس».

«وأحتاج إلى بعض المال من أجل هذا».

«كم تحتاج؟».

«تكلفة الغالون الواحد ثمانية وعشــرون سنتا. وعلي أن أضع أربعين غالونا. هذا يعني أحد عشر دولارا وعشرين سنتا».

أخرج خمسة عشر دولارا.

«هل تريد أن نصرف البقية على الشراب والجليد؟». سألته.

«لا بأس»، قال لي. «لكن اخصمها مما أدين لك به».

خطر لي أن مدة ثلاثة أسابيع تكفي لأجعله يمضي في سبيله، لكــن إن كان فيه منفعة، فما المانع؟ في كل الأحوال كان يجب أن يدفع لي كل أسبوع. لقد أمهلتهم (الآخرين) شهرا، وحصلت على فلوســي. كان الخطأ خطئي، لكنني كنت مسرورا بالفرصة التي أتيحت لي. لم أشــعر بالتوتر إزاءه إلا في الأيام الأخيرة، لكنني لم أشأ أن أقول له شيئا خشية أن تتعسر أموري معه. كلما طالت المدة كان ذلك أفضل، إن كان فيه خير.

«هل تريد زجاجة شراب؟». قال لي وهو يفتح الصندوق.

«لا، شكرا».

---

(٣) يتضح هنا أن السيد جونسن استأجر الزورق من ولاية فلوريدا الأمريكية وعبر به مع الراوي مضائق فلوريدا باتجاه هافانا جنوبا [المترجم].

في هذه اللحظة بالذات رأينا الزنجي الذي أوكلنا إليه أمر الطعوم قادما نحو رصيف المرسى، فقلت لإدي أن يستعد للإبحار.

صعد الزنجي إلى متن الزورق ومعه الطعوم، وأبحرنا خارجين من المرسى، بينما راح الزنجي يجهز طعمين من سمك الإسقمري، فكان يدخل الصنارة من فمها ثم يخرجه من خياشيمها، ثم يشق أحد الجانبين ليمرر الصنارة من هذا الشق إلى شق في الجانب الآخر، وبعدها يحكم إغلاق فم السمكة على دليل السلك ويشد الصنارة جيدا لكي لا تنفلت ولكي يجتذب الطعم فريسته بسلاسة من دون أن يلتف حول نفسه.

هذا الزنجي أسود حقيقي، حاذق عابس، تتدلى من عنقه مسبحة من خرز الفودو[٤] يدس أسفلها تحت قميصه، ويرتدي قبعة قش عتيقة. كان النوم وقراءة الجرائد أحب ما يفعله على متن الزورق. لكنه كان ماهرا وسريعا في شد الطعوم.

«ألا يمكنك أن تشد الطعوم مثله، أيها القبطان؟». سألني جونسن.

«نعم، يا سيدي».

«إذن، ما حاجتنا إلى هذا الزنجي؟».

«سترى حاجتنا إليه عندما تجمع بنا الأسماك الكبيرة»، قلت له.

«ما السر في ذلك؟».

«الزنجي أسرع مني في معالجة الأمر».

---

(٤) الفودو: عبادة وثنية أفريقية الأصل تنتشر في جزيرة هاييتي وبعض جزر البحر الكاريبي، وتقوم على أساس من السحر والعرافة [المترجم].

«ألا يستطيع إدي أن يعالجه؟».

«لا، يا سيدي».

«بالنسبة إلي هذه نفقة لا مبرر لها». كان يعطي الزنجي دولارا واحدا كل يوم، وكان الزنجي يذهب ليرقص الرمبا كل ليلة(٥)، كان النعاس باديا عليه من الآن.

«نحن في حاجة إليه»، قلت له.

في هذه الأثناء كنا قد مررنا بمراكب للسماكين ذات صناديق مخرمة راسية أمام كبانيس(٦)، وبقوارب راسية تبحث عن سمك الإلبوت(٧) في القاع الصخري بمحاذاة إل مورو(٨)، فوجهت الزورق إلى حيث يصنع الخليج خطا داكنا. ألقى إدي بالمُتَمَنعَتين(٩) الكبيرتين، بينما جهز الزنجي ثلاث صنارات أخرى.

كان التيار يكاد يتفرع إلى منسربين عميقين، وبينما كنا نتجه نحو الحافة أصبح لون الزورق قريبا من الأرجواني بسبب الدوامات المعهودة. كان نسيم طفيف يهب من الشرق، فجمعنا كثيرا من الأسماك الكبيرة الطائرة التي تشبه صورة لندبيرغ وهو يعبر الأطلسي(١٠).

كانت تلك الأسماك الكبيرة الطائرة خير بشارة. كان بإمكانك أن ترى على مد النظر رقعا صغيرة من الطحالب البحرية

---

(٥) الرمبا: رقصة كوبية يرقصها الزنوج، وتتميز بحركاتها العنيفة [المترجم].

(٦) كبانيس: اسم حصن على مدخل ميناء هافانا [المترجم].

(٧) الإلبوت: سمك صغير من فصيلة القد [المترجم].

(٨) إل مورو: اسم قلعة على مدخل ميناء هافانا [المترجم].

(٩) لم أتمكن من إيجاد مكافئ في العربية أفضل من كلمة «متمنعة» لترجمة كلمة teaser ذات الإيحاءات الجنسية، حيث تعني أصلا من تقوم بالإغواء ثم المنع. لكن همنغواي يستخدمها هنا لتعني طعما يجتذب الأسماك إلى حيث يمكن صيدها، لكنه يستعصي على الابتلاع [المترجم].

(١٠) تشارلز أوغستس لندبيرغ (١٩٠٢ - ١٩٧٤): طيار أمريكي أدهش العالم يوم ٢١ مايو عام ١٩٢٧ بعد أن قام بأول رحلة طيران بلا توقف من نيويورك إلى باريس [المترجم].

الصفراء الباهتــة اللون، وهذا يعني أن التيار الرئيســي يذهب بعيدا، وكانت هناك أسراب من الطيور تحوم فوق تجمع لأسماك التونة الصغيــرة. وكان بإمكانك أن تراها وهــي تتقافز، وكانت صغيرة لا يتجاوز وزن الواحدة أكثر من رطلين.

«بإمكانك أن تبحر متى شئت»، قلت لجونسن.

ارتــدى حزامه وعدة صيده، ثم ألقــى بصنارته الكبيرة ذات البكرة من طراز هاردي ومعها ستمائة ياردة من خيط عيار ست وثلاثين. التفت ورائي فرأيت طعمه ينجذب بشكل سلس ويتقافز فــوق الأمواج، بينما كانت المتمنعتان تغوصان وتقفزان، كنا نبحر بالسرعة الملائمة تقريبا، فوجهت الزورق نحو التيار.

«ضــع عقب الصنارة في محبســه على الكرســي»، قلت له. «فهكــذا يخف عليك عبء الصنارة. تجنب الشــد كي تتمكن من إرخاء الخيط للســمكة عندما تعلق فــي الصنارة. لأنه لو علقت الســمكة بالصنــارة والخيط مشــدود، فإنها ســتقذف بك في الماء».

كنــت أعلمه هذه الأشــياء كل يوم، لكنني لــم أجد غضاضة في ذلك. فواحد من خمســين شخصا تتعامل معهم يعرف كيف يصطــاد. وإذا كانــوا يعرفون الصيد، فتجدهــم يقضون نصف الوقت في تصرفات بلهاء أو يريدون استخدام حبل لا يقوى على الإمساك بالأسماك الكبيرة.

«كيف ترى اليوم؟». سألني.

«لــن تجد أفضل منــه»، قلت له. وكان يومــا جميلا من دون شك.

طلبت من الزنجي أن يتولى القيادة ويبحر بمحاذاة التيار نحو الشـــرق، ثم رجعت إلى حيث كان جونســـن جالسا يراقب طعمه الذي يغوص ويطفو وراءه.

«هل تريدني أن ألقي بصنارة أخرى؟». سألته.

«لا أظـــن ذلك»، قال لـــي. «فأنا أريد أن أصطاد أســـماكي، وأصارعها، وأنتشلها بنفسي».

«جيـــد»، قلت له. «هل تريد أن يلقـــي إدي بالصنارة ويناولك إياها حالما تلامسها السمكة كي تتمكن من صيدها؟».

«لا، فأنا أفضل أن ألقي بصنارة واحدة فقط».

«لا بأس».

كان الزنجي يبحر بالزورق بعيدا عن الشاطئ، فنظرت ورأيت أنـــه رأى تجمعا للأســـماك الطائرة تقفز من تحـــت الماء أمامنا باتجـــاه التيار قليلا. التفـــت إلى الوراء، فرأيت الشـــمس تغمر هافانا بأشـــعتها البهية، كما رأيت سفينة تخرج من المرسى وقد تجاوزت إل مورو.

«أعتقـــد أن لديك اليـــوم فرصة لمصارعة إحداها، يا ســـيد جونسن»، قلت له.

«لقـــد آن الأوان»، قـــال لـــي. «كم صار لنا فـــي رحلة الصيد هذه؟».

«صار لنا اليوم ثلاثة أسابيع».

«هذه رحلة صيد طويلة».

«إنها أسماك غريبة»، قلت له. «فهي غائبة حتى تأتي، وعندما تأتي، فهي تأتي بأعداد هائلة. ولم تتوان يوما عن الإتيان. إن لم

تأت الآن، فلن تأتي أبدا. فالقمر كما يرام، والتيار على ما يرام، وقريبا سيكون لدينا نسيم على ما يرام».

«كانت هناك بعض الأسماك الصغيرة عندما بدأنا».

«نعم»، قلت له. «إن الأمر كما قلت لك. فالأسماك الصغيرة تتبدد وتتلاشى قبل مجيء الأسماك الكبيرة».

«أنتم أصحاب فرق الصيد ترددون ذات اللازمة. فإما يكون الوقت مبكرا جدا أو متأخرا جدا أو الريح ليست على ما يرام أو القمر غير ملائم للصيد. لكنكم تتقاضون أجوركم مهما كان».

«المصيبة هي أن هذا ما يحصل عادة: إما يكون الوقت مبكرا جدا أو متأخرا جدا، وفي كثير من الأحيان لا تكون الريح مواتية. وعندما يصادفك يوم رائع، تكون أنت على الشاطئ بلا فريق».

«وهل تعتقد أن اليوم يوم موات؟».

«حسن»، قلت له، «لقد نلت من العمل ما يكفيني اليوم، لكنني أراهنك أنك ستشهد الكثير قريبا».

«آمل ذلك»، قال لي.

انخرطنا في العمل لجذب الأسماك. راح إدي إلى مقدمة الزورق واستلقى. وأنا كنت أقف مراقبا لعلي أرى ذيلا يظهر. كان الزنجي يغط في النوم من وقت إلى آخر، وكنت أراقبه أيضا. لا بد أنه قضى ليلة وأيما ليلة.

«هل تمانع لو أعطيتني زجاجة من الشراب، أيها القبطان؟». قال لي جونسن.

«لا، يا سيدي»، قلت له، ومددت يدي في الجليد أبحث له عن واحدة باردة.

«ألن تشرب واحدة؟». سألني.

«لا يا سيدي، سأنتظر حتى الليل»، قلت له.

فتحت الزجاجة، وبينما كنت أناوله إياها رأيت زطيا[١١] بنيا كبيرا ذا رمح أطول من ذراعك، رأيته يشق سطح الماء برأسه وكتفيه وينقض على طعم الأسقمري. كان كبيرا بحجم زند خشبي معد للنشر.

«أرخ له الخيط»، صرخت به.

«لم يبتلعه بعد»، قال جونسن.

«إذن، أمسكه».

كان قد جاء من أعمق الأعماق فلم يصب الطعم. لكنني كنت أعلم أنه سيعود.

«استعد لإرخاء الخيط حالما يمسك بالصنارة».

ثم رأيته يأتي من الخلف تحت الماء. كان بإمكانك أن ترى زعانفه مبسوطة كأنها أجنحة من أرجوان، وكانت خطوطه الأرجوانية تتصالب مع خطوطه البنية. أتى صائلا كأنه غواصة، يشق الماء شقا بزعنفته العليا. ثم صار خلف الطعم تماما، فخرج رمحه من الماء أيضا، وكان يهزه ذات اليمين وذات الشمال.

«لقمه إياه في فمه»، قلت له. رفع جونسن يده عن ملف البكرة فراحت تئز، بينما استدار صاحبنا الراموح[١٢] وغاص في الأعماق، وتمكنت من رؤية طوله بكامله، وكان يلمع كاللجين الناصع عندما انقلب على جانبه وانطلق مسرعا نحو الشاطئ.

---

(١١) استخدمت كلمة «زطي» بوصفها لفظة شتيمة عامة لتوازي كلمةbugger التي يستخدمها همنغواي، بصرف النظر عن المعنى الأصلي لكل من المفردتين العربية والإنجليزية [المترجم].

(١٢) الراموح: سمك ضخم يعيش في المحيطات، وسمي بالراموح لأن له خطما طويلا يشبه الرمح [المترجم].

«اضغط على مشــد الخيط ضغطا خفيفــا»، قلت له. «ليس كثيرا».

رهص المشد بقوة.

«ليس بهذه الشدة»، قلت له. رأيت الخيط يرتفع قليلا. «أوقف المشــد بقوة واضربه بالصنارة ضربا عنيفا»، قلت له. «عليك أن تضربه بعنف، فهو سيقفز لا محالة».

أحكم جونسن إغلاق المشد، وراحت قبضته تنزلق نحو الجزء الأخير من عصا الصنارة.

«اضربه»، قلت له. «اطعنه. اضربه ست مرات».

ضربه بعنف شــديد مرتين، فانحنت عصا الصنارة، وراحت البكرة تولول، فإذا به ينطلق كالقذيفة في خط مســتقيم طويل، لامعا كاللجين في أشــعة الشــمس، ليرتمي في الماء كما يرتمي حصان عن جرف.

«أرخ المشد قليلا»، قلت له.

«لقد ولى»، قال جونسن.

«إي، وحق الجحيم»، قلت له. «أرخ المشد بسرعة».

كنــت أرى كيف كان حبل الصنــارة ينحني، وعندما قفز ثانية قفز من خلف الزورق واتجه إلى عرض البحر، ثم شــق ســطح الماء ثانية فضرب الماء فأزبده، ورأيت كيف علق خطاف الصنارة بجانــب فمه. كانــت خطوطه واضحة. كان رائعــا، ذا لون كلون اللجين الناصــع، مخططا بخطوط أرجوانيــة، وكبيرا كزند من الخشب.

«لقد ولى»، قال جونسن. كان حبل الصنارة مرتخيا.

«اشــدد الخيط عليه»، قلت له. «لقد اســتوثقت به الصنارة جيدا. وجه الــزورق إلى الأمام بكل ما فــي محركه من طاقة!» صحت بالزنجي.

ثم شق الماء مرة ومرتين، واقفا، مستقيما كعمود، يقفز بكامل طوله نحونا، ثم يدفع الماء إلى الأعلى كلما ارتطم بها. توتر الخيط، فرأيت أنه راح يتجه نحو الشاطئ ثانية، ورأيته ينعطف.

«حان الآن وقت جموحه»، قلت له. «وإن اســتوثقت به الصنارة جيدا، فسأطارده. اترك المشد مرتخيا قليلا. لديك حبل طويل».

توجه الراموح باتجاه الشمال الغربي جريا على عادة الأسماك الكبيرة، ويا أخي، اســتوثقت به الصنارة أيمــا موثق. راح يقفز قفزات طويلة، وكانت كل غطســة في الماء كأنها قارب سباق في البحــر. مضينا في إثره، وأبقيناه على مقربة منا حالما انعطفنا. توليت القيادة وظللت أصرخ على جونســن ليخفف الشــد قليلا وأن يســحب الصنارة بســرعة. فجأة رأيت صنارته ترتد بعنف والخيــط يرتخي. لا يبدو الخيط مرتخيا إلا إذا كنت تعرف ذلك بسبب شد بطن الخيط في الماء. لكنني كنت أعرف.

«لقد ولى»، قلت له. كان الراموح لا يزال يقفز وظل يقفز بيد أنه توارى عن الأنظار. كان سمكة رائعة بحق.

«لا أزال أشعر به يسحب»، قال جونسن.

«هذا ثقل الخيط».

«لا أستطيع أن أسحبه. ربما مات».

«انظر إليه»، قلت له. «إنه لا يزال يقفز». كان على بعد نصف ميل، وكان لا يزال يدفع الماء دفقات، دفقات.

تحسست المشد، فوجدت أنه أحكم إغلاقه بحيث لم يعد بإمكانك سحب الخيط. فكان لا بد أن ينقطع.

«ألم أقل لك أن تخفف الشد قليلا؟».

«لكنه كان يسحب الخيط ويهرب به».

«وإن يكن».

«لذلك أحكمت إغلاقه».

«اسمع»، قلت له. «ما لم ترخ لها الخيط عندما تستوثق الصنارة بها، فلا بد لها أن تقطعه. لا يوجد خيط في الدنيا يمكنه أن يمسك بها. فإذا أرادت الخيط، فعليك أن تعطيها إياه. وعليك أن تبقي الشد خفيفا. لا يستطيع صيادو الأسواق أن يشدوا الخيط على هذا النحو حتى لو كانوا يصطادون بخيط لصيد الحيتان. ما يتعين علينا فعله هو أن نستخدم الزورق لمطاردتها لكيلا تأخذه كله عندما تجمح. وبعد أن تجمح، فإنها تغوص فجأة، عندئذ يمكنك أن تشد المشد وتستعيد الخيط».

«إذن، هل كان بإمكاني أن أمسك به لو لم يقطعه؟».

«ستكون قد أتيحت لك فرصة».

«ما كان بإمكانه أن يصمد طويلا، أليس كذلك؟».

«بل بإمكانه أن يفعل أشياء كثيرة غير ذلك. والصراع لا يبدأ إلا بعد أن ينتهي جموحه».

«حسن، إذن، دعنا نمسك بواحدة».

«عليك أولا أن تلف الخيط على البكرة»، قلت له.

كدنا نمسك بذلك الراموح وأضعناه، ولم يستيقظ إدي. لكن صاحبنا جاء الآن إلى مؤخرة الزورق، وسألنا:

«ما بكم؟».

كان إدي في يوم من الأيام رفيقا جيدا في البحر قبل أن يصبح سكيرا، لكنه لم يعد فيه نفع الآن. نظرت إليه وهو يقف، طويلا، غائر الخدين، متهدل الفم، أرمص العينين، باهت الشعر تحت أشعة الشمس. كنت أعلم أنه استيقظ متلهفا للمشروب.

«يجدر بك أن تتناول زجاجة من الشراب»، قلت له. أخرج زجاجة من الصندوق وشربها.

«حسن، يا سيد جونسن»، قال إدي، «أعتقد أنه يجدر بي أن أكمل نومي. أنا ممتن لك من أجل الشراب، يا سيدي». هكذا هو إدي. لم يكترث لأمر الراموح على الإطلاق.

على أي حال، كدنا نمسك بآخر حوالي الظهيرة، لكنه هرب منا. كان بإمكانك أن ترى الصنارة تندفع ثلاثين قدما في الهواء عندما قذفها.

«ما الخطأ الذي ارتكبته؟». سألني جونسن.

«لا شيء»، قلت له. «كل ما هنالك أنه قذفها».

«سيد جونسن»، قال إدي الذي استفاق ليتناول زجاجة أخرى من الشراب. «سيد جونسن، كل ما هنالك هو أنك عاثر الحظ. قد تكون محظوظا مع النساء. سيد جونسن، ما رأيك لو خرجنا معا الليلة؟». ثم عاد أدراجه، واستلقى ثانية.

بينما كنا نعود ونقترب من الشاطئ في حوالي الرابعة، وكنا نبحر عكس التيار الذي كان يهدر كأنه قناة لمياه الطاحون، والشمس وراءنا، عض على طعم جونسن أكبر راموح أسود رأيته في حياتي. ألقينا بطعم من الحبار المصنوع من الريش واصطدنا

أربعا من أســماك التونة الصغيرة، فجعــل الزنجي واحدة منها طعما شــده على صنارته. كان ثقيلا في الشد، لكنه يرشق الماء رشقا وراء الزورق.

نزع جونســن العدة عــن البكرة لكي يتمكــن من وضع عصا الصنــارة علــى ركبتيــه لأن ذراعيه تعبتا من الإمســاك بها في موقعها كل هذه المدة. ولأن يديه تعبتا من الإمساك بملف البكرة الذي يشــده الطعم، غافلني وأحكم إغلاق المشــد. لم أكن أعلم أنه فعل ذلك. لم يعجبني إمســاكه لعصا الصنارة بتلك الطريقة، لكنني ســئمت من انتقاده على الدوام. ومع غياب الشد، لم يكن هناك خوف على الخيط. لكنها طريقة صيد خرقاء.

كنت أتولــى القيادة وأســير على حافة التيــار مقابل معمل الإســمنت القديم حيث الماء عميق قرب الشــاطئ، مما يشــكل دوامــة تكثر فيها الطعوم. ثم رأيت المــاء يندفق إلى الأعلى كأن قنبلة انفجرت في الأعماق، يتلوه رمح وعين وفك ســفلي مفتوح ورأس أرجواني هائل أســود لراموح أسود. خرجت زعنفته العليا كليا من الماء، وارتفع كأنه ســفينة بكامل أشــرعتها، وكان رمحه ممــدودا بكامله عندما انقض على طعم التونة. كان رمحه كبيرا بحجم مضرب للبيســبول، ومائلا نحــو الأعلى، ولما انقض على الطعــم فلق المحيــط فلقتين. كان لونه أرجوانيا أســود من غير سوء. كان هائلا. وأنا على يقين أنه يزن ألف رطل(١٣).

صرخت على جونســن أن أعطه الخيط، لكنني قبل أن أنطق بكلمة واحدة رأيت جونســن يرتفع عن كرســيه في الهواء كأنما

---

(١٣) أي أكثر من ٤٥٣ كلغ [المترجم].

رُفع بمرفاع آلي، بينما كان يتمسك لمدة ثانية بعصا الصنارة التي كانت تنحني كأنها قوس، وأخيرا أصابه عقبها في بطنه، فسقطت العدة بأكملها في الماء.

كان قد أحكم إغلاق المشد، وعندما عضت السمكة على الصنارة، رفعت جونسن عن كرسيه، فلم يعد قادرا على التمسك بها. كان قد وضع العقب تحت إحدى ساقيه، ووضع عصا الصنارة في حضنه. لو أنه وضع العدة فيه، لجرفته معها أيضا.

أطفأت المحرك وعدت إلى مؤخرة الزورق. كان يجلس هناك ممسكا بمكان إصابته بعقب الصنارة في بطنه.

«أعتقد أن هذا يكفي اليوم»، قلت له.

«ماذا كان؟». سألني.

«راموحا أسود»، قلت له.

«كيف حدث ذلك؟».

«تحقق بنفسك»، قلت له. «لقد كلفتني تلك البكرة مائتين وخمسين دولارا. والآن ثمنها أغلى. والصنارة كلفتني خمسة وأربعين دولارا. وكان هناك ما يقرب من ستمائة ياردة من الخيط عيار ست وثلاثين».

في هذه اللحظة بالذات يخبطه إدي على ظهره ويقول، «سيد جونسن، أنت رجل عاثر الحظ لا أكثر ولا أقل. واعلم أنني لم أر في حياتي شيئا من هذا القبيل».

«اخرس، يا فاقد الوعي»، قلت له.

«أقول لك، يا سيد جونسن»، قال له إدي، «هذه أطرف حادثة أشهدها في حياتي».

«مــاذا عســاي أن أفعــل إن علقــت بســمكة كهــذه؟». قال جونسن.

«وهذه السمكة كنت تريد أن تتصارع معها بمفردك»، قلت له. كنت حانقا أيما حنق.

«إنها هائلة جدا»، قال جونسن. «بل، إن صيدها نقمة».

«اسمع»، قلت له. «إن صيد سمكة مثل تلك هلاك لك».

«إنها قابلة للصيد».

«أجل، مـــن قبـل الذين يتقـنون الصيـد. لكن لا تظـن أنهم لا يجدون عنتا في ذلك».

«لقد رأيت صورة لفتاة اصطادت سمكة».

«بالتأكيـد»، قلت له. «هذا صيد ميت. لقد ابتلعت الســمكة الطعم، فأخرجوا معدته، فصعد إلى الســطح ومات. أنا أتحدث عن الإمساك بها بعد أن تعض على الصنارة».

«حســن»، قال جونســن، «إنها هائلة جـدا. وإن لم يكن في صيدها متعة، فلماذا هذا العناء؟».

«هذا صحيح، يا ســيد جونسن»، قال له إدي. «إن لم يكن في صيدها متعة، فلماذا العناء؟ اسمع، يا سيد جونسن. لقد أصبت كبد الحقيقة. إن لم يكن في صيدها متعة، فلماذا العناء؟».

كنت لا أزال أرتجف من رؤية تلك الســمكة وأشعر بكثير من الامتعاض بسبب ضياع العدة، فلم أستطع أن أستمع إليهما. قلت للزنجي أن يتجه بالزورق نحو إل مورو. لم أكلمهما بشـــيء، وكان الاثنان يجلسان هناك، إدي في كرسي يحمل زجاجة من الشراب وجونسن يحمل أخرى.

«أيهـــا القبطان»، قال لي بعد مدة، «هل لك أن تعد لي كأســـا من المشروب؟».

أعـــددت له واحدة دون أن أكلمه، ثم أعددت لنفســـي كأســـا حقيقية. رحت أفكر في نفسي أن جونسن هذا خرج للصيد منذ خمســـة عشر يوما، وأخيرا يحظى بســـمكة ينتظرها السماكون مدة عام، ثم يضيعها، ويضيع عدتي الثقيلة، ثم يبهدل نفسه، ومع ذلك تجده راضيا عن نفسه تمام الرضا، وينادم سكيرا.

عندما وصلنا إلى رصيف المرسى، وكان الزنجي يقف منتظرا، قلت له، «ماذا عن الغد؟».

«لا أظن ذلك»، قال جونســـن. «إن نفسي تعاف هذا النوع من الصيد».

«هل تريد أن تدفع للزنجي؟».

«بكم أدين له؟».

«بدولار واحد. وبإمكانك أن تعطيه إكرامية إن شئت».

وهكذا دفع جونسن للزنجي دولارا وأربعين سنتا كوبيا.

«لماذا هذه؟». سألني الزنجي وهو يريني النقود المعدنية.

«إكراميـــة»، قلت له بالإســـبانية. «لقد انتهـــت مهمتك. وهو يعطيك هذه».

«لا آتي غدا؟».

«لا».

يحمل الزنجي مكب الفتيل الذي كان يربط به الطعوم ونظارتيه العاتمتين، ثم يعتمر قبعته القش ويمضي في ســـبيله من دون أن يودعنا. كان زنجيا لم يكترث لأي منا.

«متى تريد أن نصفي حسابنا، يا سيد جونسن؟». سألته.

«سأذهب إلى البنك صباحا»، قال جونسن. «وبإمكاننا أن نصفي حسابنا عصرا».

«هل تعرف كم يوما صار عليك؟».

«خمسة عشر».

«لا. ستة عشر بما فيها هذا اليوم، زائد يومين للذهاب والإياب، يكون المجموع ثمانية عشر يوما. أضف إلى ذلك ثمن الصنارة والبكرة والخيط التي أضعتها اليوم».

«ولكنك أنت المسؤول عن العدة».

«لا، يا سيدي. ليس عندما تضيعها كما فعلت».

«لقد دفعت إيجارها عن كل يوم. هذه مسؤوليتك أنت».

«لا، يا سيدي. لو أن السمكة قطعتها ولم تكن تلك غلطتك، لاختلف الأمر. لكنك أضعت العدة بكاملها نتيجة إهمالك».

«لقد سحبتها السمكة من بين يدي».

«لأنك أحكمت إغلاق المشد ولم تكن تضع الصنارة في محبسها».

«لا يحق لك أن تغرمني من أجل ذلك».

«لو استأجرت سيارة، وجعلتها تسقط من فوق جرف، ألا تعتقد أنه يتعين عليك أن تدفع ثمن غلطتك؟».

«ليس إن كنت فيها»، قال جونسن.

«رائع، يا سيد جونسن»، قال إدي. «ألا ترى قصده، أيها القبطان؟ إن كان فيها، فسيقتل. وعندها لن يضطر إلى الدفع. رائع، رائع».

لم أكترث لما قاله فاقد الوعي. «أنت مدين لي بمائتين وخمسة وتسعين دولارا من أجل الصنارة والبكرة والخيط»، قلت لجونسن.

«أنـــت غير منصف»، قـــال لـي. «لكن إن كان هـــذا هو رأيك، فلماذا لا نتقاسم المبلغ مناصفة؟».

«لا يمكننـــي أن أشـــتري بديلا عما ضاع بأقـــل من ثلاثمائة وستين دولارا. فأنا لم أحســـب عليك ثمن الخيط. إذ إن سمكة مثـــل تلك يمكنها أن تهرب بخيطك ولـــن يكون هذا خطأ منك. لو كان معنا الآن شـــخص آخر غير هـــذا فاقد الوعي، لأخبرك كـــم أنا منصف معك. أنا أعلم أن هذا مبلغ كبير من المال، لكنني أيضا دفعت مبلغا كبيرا عندما اشتريت تلك العدة. ولا يمكنك أن تصيد الأسماك من دون أن تشتري أفضل عدة موجودة».

«يا سيد جونسن، إنه يقول إنني أشرب كثيرا. ربما أنا كذلك. لكنني أقول لك إنه محق. إنه محق ومنصف»، قال له إدي.

«لا أريد الدخول في المشاحنات»، قال جونسن أخيرا. «سأدفع ثمنها، وإن كنت لا أرى موجبا لذلك. سأدفع عن ثمانية عشر يوما خمســـة وثلاثين دولارا عن كل يوم، إضافة إلى مائتين وخمســـة وتسعين أخرى».

«لقد أعطيتني مائة»، قلت له. «سأعطيك قائمة بما صرفته، وســـأخصم قيمة الطعام الباقي مما اشـــتريته أنت مؤونة لرحلة الذهاب والإياب».

«هذا معقول»، قال جونسن.

«اســـمع، يا سيد جونســـن»، قال له إدي. «لو عرفت الأسعار التـــي يطلبونها عادة من الغرباء، لأدركـــت أن المطلوب منك أنت

أكثـــر من معقول. هل تعـــرف ما هو؟ إنه اســـتثنائي. فالقبطان يعاملك كما لو كنت أمه».

«سأذهب إلى البنك غدا، وسآتيك إلى هنا بعد الظهر. وبعدها نستقل الزورق بعد غد».

«يمكنك أن تعود معنا وتوفر على نفسك أجرة الزورق».

«لا»، قال لي. «سأوفر الوقت بالسفر في الزورق»(١٤).

«لا بأس»، قلت له. «ما رأيك في شيء من الشراب؟».

«لا بأس»، قال جونسن. «هل تصافينا الآن؟».

«أجـــل، تصافينا»، قلت له، وهكذا جلســـنا نحـــن الثلاثة في مؤخرة الزورق وتناول كل منا كأسا من المشروب.

في اليوم التالي أشغلت نفسي في أمر الزورق طيلة الصباح، فغيرت الزيت فـــي القاعدة، وقمت بكذا وكـــذا. وعند الظهر ذهبـــت إلى المدينة وتناولت الغداء في محل تشـــنكي(١٥)، حيث بإمكانك أن تتناول وجبة جيدة بأربعين سنتا، ثم اشتريت بعض الأشياء لزوجتي وبناتنا الثلاث: عطر، كما تعلم، وبعض المراوح اليدوية، ومشطين بأسنان عالية. وعندما انتهيت عرجت على مقهـــى دونوفـــن، وتحدثت مع الرجل العجـــوز، وبعدها عدت ماشـــيا إلى رصيف ســـان فرانسســـكو، وقد توقفت في ثلاثة أمكنة أو أربعة لأتناول بعض المشـــروبات على الطريق. قدمت لفرانكي زجاجتين على حسابي في مقهى كونارد، وصعدت متن الزورق يغمرني شـــعور بالسعادة. عنـــدما صـــعدت متن الزورق

---

(١٤) الـــذي يقصده جونســـن هنا هو أنه لـــن ينتظر إلى حين يقرر الـــراوي العودة إلى الولايات المتحدة، وهكذا يعود معه مجانا، بل يدفع أجرة اليوم الثامن عشر ويعود فورا [المترجم].

(١٥) «تشنكي»: تعبير عنصري يستخدمه الأمريكيون بدلا من كلمة «صيني» [المترجم].

لم يبق معي سوى أربعين سنتا. صعد معي أيضا فرانكي، وجلسنا ننتظر جونسن وشربنا زجاجتين باردتين من صندوق الجليد في تلك الأثناء.

لم أر إدي في الليل ولا في النهار، لكنني كنت أعلم أنه سيأتيني عاجلا أو آجلا، حالما يجد من لا يدينه. أخبرني دونوفن أنه مر على المقهى في الليلة السابقة مع جونسن لمدة قصيرة، وأن إدي كان يستدين من كليهما. انتظرنا ورحت أتساءل عن سبب غياب جونسن. كنت قد أوصيت من يخبره في المرسى بأن ينتظرني على متن الزورق، لكنه قيل لي إنه لم يأت. ومع ذلك، قلت في نفسي لقد تأخر في السهرة ليلة أمس، وربما لم يستيقظ حتى منتصف النهار. كانت البنوك تفتح حتى الثالثة والنصف. رأينا الطائرة تقلع، وفي حوالي الخامسة والنصف حل القلق الشديد محل السعادة التي كانت تغمرني.

في السادسة أرسلت فرانكي إلى الفندق ليرى إن كان جونسن هناك. كنت لا أزال أظن أنه قد يكون خرج لموعد أو لا يزال في الفندق لكنه لا يشعر برغبة للنهوض. رحت أنتظر وأنتظر حتى تأخر الوقت. لكن قلقي بدأ يتضاعف لأنه مدين لي بثمانمائة وخمسة وعشرين دولارا.

غاب فرانكي أكثر من نصف ساعة بقليل. وعندما رأيته مقبلا كان يحث الخطى ويهز رأسه.

«لقد سافر بالطائرة»، قال لي.

لا بأس. هكذا آلت الأمور. لقد أغلقت القنصلية الآن. لم يكن عندي سوى أربعين سنتا، وفي كل الأحوال لقد هبطت الطائرة الآن

في ميامي[١٦]، لم يكن بإمكاني أن أرسل ولو برقية. نعم، إنه السيد جونسن بلا منازع. كانت غلطتي. كان علي أن آخذ حذري.

«لا بـأس»، قلت لفرانكي. «دعنا نتناول زجاجة من الشـراب البارد التي اشتراها السيد جونسن». كانت هناك ثلاث زجاجات من الشراب المداري.

كان فرانكي ممتعضا مثلي تماما. لا أعرف كيف استطاع ذلك لكن هذا ما بدا عليه. ظل يخبطني على ظهري ويهز رأسه.

إلى هذا آلت أموري: خالي الوفاض، مفلسـا. لقد خسـرت خمسـمائة وثلاثين دولارا مـن أجـرة الـزورق، وفقدت عـدة لا يمكنني أن أشـتري غيرها بأقل من ثلاثمائة وخمسين دولارا وربما أكثر. آه، كم ستشمت فيَّ العصابة التي تتسكع على رصيف المرسى! بلا شـك سيشمت فيَّ بعض الكونشا[١٧]، بالأمس فقط رفضت ثلاثـة آلاف دولار لإنـزال ثلاثـة أجـانب في الجزر[١٨]، أو في أي مكان لأخرجهم من هذه البلاد.

لا بأس، والآن ماذا سـأفعل؟ لا أسـتطيع أن آخذ معي حملا من المشـروبات لأنني لا أملك المال لشرائها، إضافة إلى أنها لم تعد تجارة رابحة[١٩]، المدينة تغص بها وليس هناك مشترون. لكن عار علي إن عدت إلى بلادي مفلسا لا أجد ما أقيم به أودي في

---

(١٦) ميامي: أكبر مدينة في ولاية فلوريدا، وتقع على ساحلها الجنوبي الشرقي [المترجم].

(١٧) الكونشا: كلمة إغريقية في الأصل وتعني «محارة»، لكنها تطلق في العامية الإنجليزية على أي مـن مواطني جزر البهاما والجزر المجاورة. وقد يكون منشـأ هذه التسـمية له علاقة بكثرة المحار في هذه الجزر [المترجم].

(١٨) الجزر المعنية هنا هي سلسـلة الجزر الصغيرة الممتدة من الساحل الجنوبي الشرقي لولاية فلوريدا إلى غربها في عمق المحيط، وآخرها الجزيرة الغربية (كي وست) [المترجم].

(١٩) بعد رفع الحظر عن المشـروبات الكحولية من قبل الحكومة الأمريكية العام ١٩٣٣، لم يعد تهريب هذه المشروبات تجارة رابحة [المترجم].

تلك المدينة صيفا بأكمله. كما أن لدي أسرة أيضا. لقد دفعت رسوم الزورق عندما أتينا إلى هنا. فعادة تدفع للسمسار سلفا، وهو الذي يدخلك ويدفع عنك الرسوم. اللعنة، ليس لدي مال حتى للوقود. مأزق جهنمي حشرني فيه هذا الذي اسمه السيد جونسن.

«علي أن أجد حملا، يا فرانكي»، قلت له. «علي أن أكسب بعض المال».

«سأستطلع لك»، قال فرانكي. يتسكع صاحبنا هذا في الواجهة البحرية عادة ويقوم بأي عمل يجده، وهو ثقيل السمع ويشرب كثيرا كل ليلة. لكنك لن تجد رفيقا أوفى منه أو قلبا أطيب من قلبه. لقد عرفته منذ أن بدأت العمل على هذا الخط. وقد ساعدني مرارا في التحميل. وعندما بدأت المتاجرة ببعض البضائع أو أشكل فرقا للصيد أو شرعت في صيد سياف البحر[٢٠] في كوبا أصبحت أراه كثيرا إما على رصيف المرسى أو في المقهى. يبدو كأنه أبكم وهو عادة يبتسم بدلا من الحديث لكن السبب في هذا هو أنه أطرش.

«هل تحمل أي شيء؟». سألني فرانكي.

«بالتأكيد»، قلت له. «لا خيار لي الآن».

«أي شيء؟».

«بالتأكيد».

«سأستطلع لك»، قال لي. «أين ستكون؟».

«في مقهى الجوهرة»، قلت له. «علي أن آكل».

---

(٢٠) سياف البحر: سمك ضخم يعيش في المحيطات له خطم طويل يشبه السيف [المترجم].

يمكنــك أن تأكل وجبــة جيدة في «الجوهرة» بمبلغ خمســة وعشــرين سنتا. كل شــيء في القائمة يكلف عشــرة سنتات ما عدا الشــوربة، فهي تكلف خمسة ســنتات. سرت إلى هناك مع فرانكــي، فدخلت المقهــى بينما مضى هو في ســبيله. وقبل أن يمضي صافحني ثم ربت على ظهري مرة أخرى.

«لا تقلــق»، قال لي. «أنا فرانكي سياســة كثير. شــغل كثير. شرب كثير. فلوس ما في. لكن صديق كبير. لا تقلق»[٢١].

«إلــى اللقاء، يا فرانكي»، قلت لــه. «ولا تقلق أنت أيضا، أيها الفتى».

دخلت مقهى الجوهرة وجلســت إلــى إحدى الطاولات. كانوا قــد وضعوا لوحا جديــدا من الزجاج في النافذة التي كســرها الرصــاص، وأصلحــوا نافــذة العــرض. كان هنــاك كثير من الغاليفوس[٢٢] يشــربون أو يأكلون. كان لعب الدومينو قائما على قدم وســاق على إحدى الطاولات. تناولت شــوربة لوبيا سوداء ويخنة من لحم البقر وبطاطا مســلوقة بمبلغ خمسة عشر سنتا، ثم زجاجة شــراب من ماركة آتــوي أوصلت المبلغ إلى ربع دولار. عندما تحدثت إلى النادل عن حادثة إطلاق النار رفض أن يتفوه بكلمة. كان الجميع خائفين خوفا شديدا.

أنهيت وجبتي وأسندت ظهري على الكرسي وأشعلت سيجارة وأرهقت رأســي بالتفكير. ثم رأيــت فرانكي يدخل الباب ووراءه

---

(٢١) هنا يتحــدث فرانكي بإنجليزية مخلخلة الأوصال، لذلك حاولت أن أنقل هذه الخلخلة في ترجمتي لأقواله [المترجم].

(٢٢) تعني الغاليفوس أصلا ســكان منطقة غاليسيا الإسبانية، لكنها هنا تعني أي شخص ناطق بالإســبانية. ويبدو أن همنغواي اســتخدم هذا المصطلح الغريب (الذي فيه شيء من الذم) لغاية في نفسه [المترجم].

شخص. بضاعة صفراء، قلت في نفسي. إذن هذا ما لديه، بضاعة صفراء(٢٣).

«أقدم لك السيد سنغ»، قال فرانكي وهو يبتسم. كان بالفعل سريعا وكان يعلم ذلك.

«كيف حالك؟». قال السيد سنغ.

يكاد السيد سنغ يكون أملس شيء رأيته في حياتي. كان تشنكيا لا غبار عليه، لكنه كان يتحدث كأنه إنجليزي، وكان يرتدي بذلة بيضاء وقميصا من حرير وربطة عنق سوداء وقبعة بانمية(٢٤) ثمنها مائة وخمسة وعشرون دولارا.

«هل ستتناول القهوة؟». سألني.

«إن تناولتها أنت».

«شكرا لك»، قال السيد سنغ. «هل نحن بمفردنا هنا؟».

«فيما عدا الموجودين في المقهى»، قلت له.

«لا بأس بهؤلاء»، قال السيد سنغ. «لديك قارب؟».

«ثمان وثلاثون قدما»، قلت له. «محرك كيرمث بقوة ١٠٠ حصان».

«آه»، قال السيد سنغ. «لقد تصورت أنه جرار».

«يمكنه حمل مائتين وخمسة وستين صندوقا من دون إرهاق».

«هل تود تأجيره لي؟».

«بأي شروط؟».

---

(٢٣) «البضاعة الصفراء» كناية عن العرق الآسيوي الأصفر [المترجم].

(٢٤) القبعة البانمية: قبعة خفيفة مصنوعة من قش ملون [المترجم].

«لا حاجة إلى ذهابك. سآتي بقبطان وطاقم من عندي».

«لا»، قلت له. «فأنا وقاربي لا نفترق».

«لقد فهمت»، قال السيد سنغ. «هلا تركتنا وحدنا؟». قال لفرانكي. لكن فرانكي ظل مهتما كما من قبل، وابتسم له.

«إنه أطرش»، قلت له. «ولا يفهم الإنجليزية كثيرا».

«لقد فهمت»، قال السيد سنغ. «أنت تتحدث الإسبانية. قل له ينضم إلينا لاحقا».

أومأت إلى فرانكي بإبهامي، فنهض وقصد المقهى.

«ألا تتحدث الإسبانية؟». سألته.

«بلى»، قال السيد سنغ. «والآن، ما الظروف التي تدعوك أو تجعلك تعيد النظر...؟».

«لقد أفلست».

«لقد فهمت»، قال السيد سنغ. «هل على الزورق أي دين؟ هل يمكن لأحد أن يقيم عليه دعوى؟».

«لا».

«حسن، إذن»، قال السيد سنغ. «كم من أبناء بلدي التعساء يستطيع قاربك أن يؤوي؟».

«تقصد يحمل؟».

«هذا ما قصدته».

«كم المسافة؟».

«رحلة يوم».

«لا أعرف»، قلت له. «يمكنه حمل اثني عشر إن كانوا من دون أمتعة».

«لن تكون لديهم أمتعة».

«إلى أين تريد حملهم؟».

«سأترك هذا لك أنت»، قال السيد سنغ.

«تقصد أين أنزلهم؟».

«ستأخذهم إلى تورتغاس[٢٥] حيث سيلتقطهم طراد».

«اسمع»، قلت له. «هناك منارة في جزيرة لوغرهد[٢٦] في تورتغاس وفيها محطة إرسال تبث في الاتجاهين».

«هذا صحيح»، قال السيد سنغ. «إذن، فمن السخف أن تنزلهم هناك».

«وماذا بعد؟».

«لقد قلت لك أن تأخذهم إلى تلك النواحي. هذا ما تتطلبه رحلتهم».

«أجل»، قلت له.

«أنزلهم حيث ترتئي».

«وهل سيأتي الطراد إلى تورتغاس ليأخذهم».

«بالطبع لا»، قال السيد سنغ. «هذه فكرة سخيفة».

«كم ستدفع لي عن الرأس الواحد؟».

«خمسين دولارا»، قال السيد سنغ.

«لا».

«ما رأيك في خمسة وسبعين؟».

«ماذا تأخذ أنت عن الرأس الواحد؟».

---

(٢٥) تورتغاس (وتعني بالإسبانية «سلاحف»): جزر صغيرة متناثرة في خليج المكسيك، إلى الجنوب الغربي من ولاية فلوريدا [المترجم].

(٢٦) لوغرهد: تعني بالإنجليزية سلحفاة بحرية ضخمة الرأس [المترجم].

«أوه، هذا أمر آخر. أنت تعلم أن هناك عدة أوجه، أو لنقل زوايا، لعملية إصدار التذاكر من قبلي. ولا يتوقف الأمر عند ذلك الحد».

«أجل»، قلت له. «وهل يفترض بي أن أنقلهم لك مجانا؟».

«لقد فهمت قصدك تماما»، قال السيد سنغ. «ما رأيك في مائة دولار عن كل نفر؟».

«اسمع»، قلت له. «هل تعلم كم سأسجن لو أمسكوا بي متلبسا بهذه الفعلة؟».

«عشر سنوات»، قال السيد سنغ. «عشر سنوات على الأقل. لكن لا يوجد ما يدعو إلى الذهاب إلى السجن، يا قبطاني العزيز. المخاطرة الوحيدة التي أمامك هي عندما تحمل ركابك. وكل ما عدا ذلك متروك لحسن تدبيرك».

«وإن عادوا إليك؟».

«الأمر في غاية البساطة. كل ما هنالك هو أنني سأتهمك بالغدر بي. وبعدها أعيد لهم جزءا مما دفعوه وأشحنهم ثانية. وهم يدركون، طبعا، أن الرحلة لن تكون سهلة».

«وماذا عني؟».

«أعتقد أنه سيتعين علي أن أخبر القنصلية».

«لقد فهمت».

«ألف ومائتا دولار، أيها القبطان، مبلغ لا يستهان به في الظروف الراهنة».

«متى سأحصل على المال؟».

«مائتان عند الاتفاق وألف عند التحميل».

«وإذا هربت بالمائتين؟».

«لا يمكنني أن أفعل شيئا»، قال مبتسما. «لكنني أعلم أنك لن تفعل شيئا من هذا القبيل، أيها القبطان».

«هل لديك المائتان الآن؟».

«طبعا».

«ضعها تحت الطبق». وضعها. «حسن»، قلت له. «سأدفع الرسوم في الصباح وأغادر بحلول الظلام. والآن، قل لي أين نحمل؟».

«ما رأيك في باكوراناو؟»[٢٧].

«لا بأس. هل رتبت لكل شيء؟».

«طبعا».

«والآن إلى كيفية التحميل»، قلت له. «عليك أن تشعل ضوءين، الواحد فوق الآخر، عند الرأس البحري. وعندما أراهما سآتيك. وأنت ستوافيني بقارب وسنحمل من الزورق. ستأتي شخصيا وتجلب النقود معك. لن أسمح لأحد أن يطأ متن الزورق ما لم أقبض النقود».

«لا»، قال لي. «ستقبض نصف المبلغ عند بدء التحميل والنصف الآخر عند انتهائه».

«لا بأس»، قلت له. «هذا معقول».

«هل تفاهمنا على كل شيء؟».

«أعتقد ذلك»، قلت له. «لكن علي أن أتأكد أنه لا توجد أمتعة ولا أسلحة. ولا بنادق، لا سكاكين، ولا شفرات حلاقة، لا شيء على الإطلاق».

---

(٢٧) باكوراناو: بلدة ساحلية إلى الشرق من مدينة هافانا بنحو أحد عشر كيلومترا [المترجم].

«أيها القبطان»، قال السيد سنغ. «ألا تثق بي؟ ألا ترى أن مصالحنا متطابقة؟».

«هل ستتأكد بنفسك؟».

«أرجوك لا تحرجني»، قال لي. «ألا ترى كيف تتفق مصالحنا؟».

«لا بأس»، قلت له. «متى موعدنا؟».

«قبل منتصف الليل».

«حسن»، قلت له. «أعتقد أن هذا كل شيء».

«كيف تريد النقود؟».

«لا بأس بفئة المائة».

هب واقفا، ورأيته يمضي خارجا. ابتسم له فرانكي وهو يخرج. كان تشنكيا أملس بلا منازع.

أقبل فرانكي نحو طاولتي، وقال، «والآن؟».

«من أين تعرف السيد سنغ؟».

«إنه يشحن الصينيين»، قال فرانكي. «شغل كبير».

«منذ متى وأنت تعرفه؟».

«منذ سنتين تقريبا»، قال فرانكي. «واحد غيره كان يشحنهم قبله. واحد قتله».

«وسيقتل أحدهم السيد سنغ، أيضا».

«أكيد»، قال فرانكي. «لِمَ لا؟ شغل كبير».

«وأي شغل!».

«شغل كبير»، قال فرانكي. «صيني يروح ما يرجع. صيني آخر يكتب رسالة يقول كل شي تمام».

«رائع»، قلت له.

«هـــذا ناس صيني ما يعرف يكتـــب. ناس صيني يعرف يكتب ناس غني. ما في أكل. ياكل رز. مائة ألف صيني هنا. فقط ثلاثة حرمة صيني».

«لماذا؟».

«حكومة ما يسمح».

«بئس الحظ حظهم»، قلت له.

«إنت في شغل معاه؟».

«ربما».

«شـــغل كويس»، قـــال فرانكي. «أفضل من السياســـة. فلوس كثير. شغل كبير».

«اشرب زجاجة من الشراب»، قلت له.

«إنت قلق خلاص؟».

«أي، وحـــق الجحيم»، قلت له. «لا قلق مع الشـــغل الكثير. أنا ممتن لك».

«كويس»، قال فرانكي، وربت على ظهري. «أنا مبســـوط كثير. أنا يحب يشوفك مبسوط. ناس صيني شغل كويس، صح؟».

«رائع».

«أنا مبســـوط خلاص»، قال فرانكي. رأيـــت أنه يكاد يجهش بالبكاء من فرط سعادته لأن كل شيء أصبح على ما يرام، لذلك ربتُّ على ظهره. هكذا هو فرانكي.

أول شـــيء فعلته في الصباح هو أنني ذهبت إلى السمســـار وطلبت منه أن يدفع لنا الرسوم. طلب مني قائمة بأفراد الطاقم

فقلت له لا يوجد.

«هل ستعبر بمفردك، أيها القبطان؟».

«نعم».

«وماذا حل برفيقك؟».

«إنه يشرب كثيرا ويعربد»، قلت له.

«لكن ذهابك بمفردك أمر خطير جدا».

«إنها تسعون ميلا فقط»، قلت له. «ثم هل تظن أن رفقة فاقد الوعي في سفر كهذا تختلف عن عدمها؟».

* * *

اتجهت بالزورق إلى مرسى ستاندرد أويل[٢٨] على الطرف الآخر للميناء وملأت كلا الخزانين بالوقود. كان الزورق يتسع لنحو مائتي غالون إذا ملئ بالكامل. كان يعز علي أن أشتري الغالون بثمانية وعشرين سنتا، لكنني لا أعلم أين يمكن أن نذهب.

منذ أن رأيت التشنكي وأخذت النقود، انتابني القلق حول هذه العملية. لا أعتقد أنني نمت طوال الليل. عدت بالزورق إلى مرسى سان فرانسسكو، فوجدت إدي ينتظرني هناك.

«مرحبا، يا هاري»، قال لي وهو يلوح بيده. قذفت له حبل المؤخرة ليربط به الزورق، ثم صعد، وكان أكثر طولا، وإرهاقا، وفقدانا للوعي من أي وقت مضى. لم أقل له شيئا.

«ما رأيك في هروب صاحبنا جونسن، يا هاري؟». قال لي. «ماذا تعرف عن الموضوع؟».

«اخرج من هنا، أيها السم»، قلت له.

---

(٢٨) ستاندرد أويل: شركة نفط أمريكية عملاقة تأسست العام ١٨٦٨، وافتتح فرع لها في كوبا ودول البحر الكاريبي العام ١٨٨٢ [المترجم].

«ألا تعتقد أن مصابك هو مصابي، يا أخي؟».

«اخرج من هنا»، قلت له.

لكنه استلقى في الكرسي ومد رجليه إلى الأمام. «سمعت أننا سنعبر اليوم»، قال لي. «لذلك أظن أنه لا فائدة من بقائي هنا».

«أنت لست ذاهبا».

«ما بك، يا هاري؟ لا أرى ما يوجب غضبك مني».

«حقا؟ اخرج من هنا».

«أوه، هوِّن عليك».

صفعته في وجهه، فهب واقفا، ثم تسلق إلى رصيف المرسى.

«ما كنت لأفعل بك شيئا من هذا القبيل، يا هاري»، قال لي.

«لن آخذك معي»، قلت له. «هذا كل ما عندي».

«لا بأس، لكن لماذا ضربتني؟».

«لكي تصدق».

«ماذا تريدني أن أفعل؟ أبقى هنا وأموت جوعا؟».

«ولماذا تموت جوعا؟». قلت له. «يمكنك أن تجد عملا على متن العبارة. يمكنك أن تجد عملا يؤمن لك أجرة العودة».

«أنت لا تعاملني بإنصاف»، قال لي.

«من الذي عاملك بإنصاف، يا فاقد الوعي؟». قلت له. «أنت تغدر بأمك».

وهذه فعلا هي الحقيقة، لكنني ندمت على ضربه. أنت تعلم ما هو شعورك إن ضربت فاقدا للوعي. لكنني لن أحمله معي في الظروف الراهنة، حتى لو أردت ذلك.

مضى في سبيله على رصيف المرسى، طويلا كأنه يوم بلا

إفطار. ثم استدار وعاد إلي.

«ما رأيك لو أقرضتني دولارا أو دولارين، يا هاري؟».

أعطيته خمسة دولارات من نقود التشنكي.

«ما أعرفه هو أنك كنت دائما صديقي. فلماذا لا تأخذني معك، يا هاري؟».

«أنت مجلبة للنحس».

«أنت غاضب ليس إلا»، قال لي. «لكن لا عليك، يا صديقي القديم. أنا واثق بأنك ستسعد برؤيتي في قادم الأيام».

أما وقد حصل على النقود الآن فقد مضى على نحو أسرع من ذي قبل، لكنني أؤكد لك أن مجرد رؤيته يمشي هي سم لي. كان يمشي كأن مفاصله مركبة بالمقلوب.

ذهبت إلى مقهى الجوهرة، وقابلت السمسار، فأعطاني الأوراق، وسقيته كأسا على حسابي. بعد ذلك تناولت طعام الغداء، وجاء فرانكي.

«أعطاني أحدهم هذه من أجلك»، قال لي وناولني شيئا ملفوفا كأنه أنبوب ملفوف بورق ومربوط بخيط أحمر. بدت اللفافة كأنها صورة عندما حللت رباطها، ثم رحت أفتحها ظنا أنها صورة للقارب التقطها أحد العاملين في المرسى.

لا بأس. كانت صورة مقربة لرأس زنجي ميت وصدره، وقد جز عنقه من الوريد إلى الوريد، ثم أعيدت خياطته بشكل أنيق، وقد كتب بالإسبانية على بطاقة على صدره: «إلى هذا يؤول مصير لنغواس لارغس».

«من أعطاك هذه؟». سألت فرانكي.

أشار إلى صبي إسباني يعمل في المراسي، ولما يمتهن النصب والاحتيال بعد. كان هذا الصبي يقف عند منضدة الأطعمة.

«قل له أن يأتي إلى هنا».

جاء إليَّ. قال إن اثنين ناولاه إياها في حوالي الحادية عشرة. ســألاه إن كان يعرفني فقال لهما نعــم. ثم أعطاها لفرانكي كي يعطيني إياها. أعطياه دولارا كي يضمنا وصولها إليَّ. قال إنهما كانا متأنقين في ملابسهما.

«سياسة»، قال فرانكي.

«نعم»، قلت له.

«يعتقدان أنك أخبرت الشــرطة أنك ستقابل أولئك الصبيان في ذلك الصباح».

«هل أوصياك أن تبلغني شيئا؟». سألت الصبي الإسباني.

«لا، فقط أن أعطيك تلك»، قال لي.

«أنا مضطر إلى تركك الآن»، قلت لفرانكي.

«سياسة تعبانة»، قال فرانكي. «تعبانة جدا».

لملمت الأوراق التي أعطاني إياها السمسار، ودفعت الحساب وخرجــت من المقهى، ثم عبرت الســاحة واجتزت البوابة، وكنت سعيدا لأنني خرجت من المستودع إلى المرسى. لقد أرعبني ذانك الصبيان أيما رعب. لقد جعلهما الغباء يظنان أنني وشــيت بتلك الشــلة الأخرى. لا يختلف هذان الصبيان عن پانشــو في شيء. لقد قادهما الخــوف إلى الانفعال، والانفعال جعلهما يريدان أن يقتلا شخصا.

امتطيت الزورق وأحميت المحرك. وقف فرانكي على رصيف

المراسـي يراقب. وكان يبتسم ابتسامة الأطرش المضحكة. عدت إليه وقلت:

«اسمع، لا تتورط في المتاعب من أجل هذا الأمر».

لم يسمعني، لذلك اضطررت إلى أن أصرخ.

«أنا مع سياسة كويس»، قال فرانكي، ثم حرر الزورق من المرساة، وقذف الحبل على متنه.

لوحت لفرانكي، واتجهت بالزورق من مزلق السفن نحو القنال. كانت هناك سفينة شحن بريطانية تخرج أيضا، فحاذيتها إلى أن تجاوزتها. خرجت من الميناء وتجاوزت إل مورو، ووجهت الزورق شمالا باتجاه كي وست (الجزيرة الغربية). تركت المقود ومضيت إلى مقدمة الزورق ولففت الحبل، ثم عدت لأبقي الزورق على مساره، بينما راحت هافانا تمتد وراءنا إلى أن حالت بيننا وبينها الجبال.

وبعد مدة اختفت إل مورو عن الأنظار، يليها الفندق الوطني، وأخيرا لم أعد أرى سوى قبة الكابيتول. لم يكن هناك تيار يذكر بالمقارنة مع آخر يوم اصطدنا فيه، ولم يكن هناك إلا نسيم خفيف. رأيت مركبي صيد يتجهان نحو هافانا، وكانا قادمين من جهة الغرب لذلك عرفت أن التيار خفيف.

قطعت الدارة وأطفأت المحرك. إذ لا مبرر لإهدار الوقود. تركت الزورق يسير على رسله. ومع حلول الظلام سأتمكن من الاهتداء بمصابيح إل مورو، أو إن جرفني التيار بعيدا، فبمصابيح كوخيمار، وعندها يمكنني أن أتجه بالزورق وأنطلق باتجاه باكوراناو. قدرت أن التيار سيجرف الزورق مسافة الاثني

عشر ميلا إلى باكوراناو مع حلول الظلام حيث سأتمكن من رؤية مصابيح باراكوا.

على أي حال، أطفأت المحرك وصعدت إلى المقدمة لكي ألقي نظرة من حولي. لم أر سوى هذين المركبين المتجهين شرقا إلى الميناء، وقبة الكابيتول وراء ذلك في الأفق البعيد، التي كانت تنتصب بيضاء عند طرف البحر. كانت هناك بعض الطحالب في الماء وبضعة طيور تحوم فوقها. جلست مدة في ركن الربان أتطلع وأراقب، فلم أر سوى أسماك بنية صغيرة تحوم حول الطحالب. لا تصدق، يا أخي، من يقول لك إنه لا يوجد ماء كثير بين هافانا وكي وست. فأنا كنت أقف على حافته فقط.

وبعد مدة عدت إلى ركن الربان، فإذا بإدي هناك!

«ما الأمر؟ ماذا جرى للمحرك؟».

«لقد تعطل».

«لماذا لم تغلق الباب؟».

«أوه، اخرس بحق الجحيم!» قلت له.

هل تعرف ماذا فعل؟ عاد إلى الزورق وتسلل من الباب الأمامي ونزل إلى القمرة ثم نام. كان قد جلب معه ربعيتين من المشروب. كان قد ذهب إلى أول مقهى رآه، فاشتراهما، وعاد إلى الزورق. كان قد استيقظ عندما شغلت المحرك، لكنه عاد للنوم. وعندما أوقفت الزورق في عرض الخليج وراح الموج يهدهده قليلا، استيقظ ثانية.

«كنت أعرف أنك ستأخذني معك، يا هاري»، قال لي.

«سآخذك إلى الجحيم»، قلت له. «أنت لست حتى على قائمة

الطاقم. يخطر ببالي أن ألقي بك هنا في البحر».

«أنت صاحب نكتة قديم، يا هاري»، قال لي. «علينا، نحن محار البحر، أن نساند بعضنا بعضا عندما تضيق بنا السبل».

«أنت، أيها الثرثار؟ ومن سيثق بك بعد اليوم عندما تغضب وتنفعل؟».

«أنا رجل طيب، يا هاري. ضعني على المحك وسترى أي رجل طيب أنا».

«أعطني الربعيتين»، قلت له. كنت أفكر في شيء آخر.

أخرجهما فأخذت جرعة من الربعية المفتوحة، ثم وضعتهما بجانب المقود. ظل واقفا في مكانه، ونظرت إليه. أشفقت عليه مما أنا مقدم عليه لا محالة. اللعنة، لقد كنت أعرفه عندما كان رجلا طيبا.

«ما به الزورق، يا هاري؟».

«إنه على ما يرام».

«إذن، ما الأمر؟ لماذا تنظر إليَّ على هذا النحو؟».

«أنت في ورطة كبيرة، يا أخي»، قلت له وأنا مشفق عليه.

«ماذا تقصد، يا هاري؟».

«لا أعرف بعد»، قلت له. «لم أخطط لكل شيء بعد».

بقينا جالسين مدة ولم تعد لدي رغبة في الحديث إليه. إذ بعد أن اتضحت الخطة في رأسي، صار عسيرا علي أن أحدثه. بعد ذلك نزلت إلى أسفل وأخرجت بندقية الضغط وبندقية ونتشستر ٣٠ - ٣٠ اللتين كنت دائما أحتفظ بهما في قمرة الركاب، وعلقتهما من جرابيهما في ركن الربان في المكان

الذي كنا نعلق فيه الصنارات عادة، فوق المقود حيث يسهل علي تناولهما. كنت أحفظهما مزيتتين في جرابين طويلين من جلد الخراف المقصوص صوفه. فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنك أن تحميهما بها من الصدأ في الزورق.

حلحلت بندقية الضغط وحركتها عدة مرات، ثم ملأت المخزن وألقمت واحدة في حجرة النار. بعد ذلك وضعت طلقة في حجرة الونتشستر وملأت مخزنها. ثم أخرجت من تحت الفراش مسدسا من طراز سمث آندوسون ٣٨ خصوصي، أحتفظ به من أيام خدمتي في شرطة ميامي، ثم نظفته وزيته وملأته ووضعته تحت نطاقي.

«ما الأمر؟». قال إدي. «قل لي بحق الجحيم ما الأمر؟».

«لا شيء»، قلت له.

«ولماذا كل هذه الأسلحة اللعينة؟».

«أنا دائما أحملها على متن الزورق»، قلت له. «لقتل الطيور التي تنقض على الطعوم، أو لقتل أسماك القرش التي تجوب سواحل الجزر الصغيرة».

«اللعنة، قل لي ما الأمر»، قال إدي. «ما الأمر؟».

«لا شيء»، قلت له. جلست وبندقية ونتشستر القديمة تخبط ساقي عندما تتمايل، ورحت أنظر إليه. قلت في نفسي: لا معنى للقيام بالأمر الآن. فأنا في حاجة إليه الآن.

«سننفذ مهمة بسيطة»، قلت له. «في باكوراناو. سأخبرك بما هو مطلوب حين يحين الوقت».

لم أرغب في إخباره قبل الأوان بوقت طويل لأن القلق سينتابه،

وسيضطرب من الرعب فيصبح عديم الفائدة.

«لن تجد خيرا مني، يا هاري»، قال لي. «أنا لها. أنا معك في كل شيء».

نظرت إليه، طويلا، مرهقا، مرتعدا، فلم أقل شيئا.

«اسمع، يا هاري. هل لك أن تعطيني واحدة فقط؟». قال لي[٢٩]، «لا أريد أن ينتابني الرجفان».

أعطيته واحدة ورحنا ننتظر حلول الظلام. كان الغروب رائعا، وكان هناك نسيم طفيف عليل، وبعد غروب الشمس بمدة، شغلت المحرك واتجهت بالزورق ببطء نحو البر.

انتظرنا في الظلام على مسافة ميل تقريبا عن الشاطئ. تجدد التيار مع غروب الشمس، وقد رأيته يتدفق باتجاه الشاطئ. صار بإمكاني أن أرى منارة إل مورو إلى الجهة الغربية وأنوار هافانا المتوهجة، وأمامنا تماما كنت أرى أنوار رنكون وباراكوا. وجهت الزورق بعكس التيار إلى أن تجاوزت باكوراناو واقتربت من كوخيمار. ثم تركت التيار يجرفه معه. كان الظلام حالكا، لكنني كنت أعرف أين نحن. وكنت قد أطفأت جميع الأنوار.

«ما الذي تنويه، يا هاري؟». سألني إدي، وقد انتابه الرعب ثانية.

«ماذا ترى أنت؟».

«لا أعرف. لقد أقلقتني». كان قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، وعندما اقترب مني كان يتنفس كالرعديد.

«كم الساعة؟».

---

(٢٩) ما يطلبه إدي هنا هو جرعة من المشروب، وليس بندقية، كما قد يتبادر للذهن [المترجم].

«ســـأنزل لأرى»، قال لي. صعد إلى الســـطح ثانية وقال إنها التاسعة والنصف.

«هل أنت جائع؟».

«لا. أنت تعلم أنني لا أستطيع أن آكل، يا هاري».

«حسن»، قلت له. «يمكنك أن تأخذ واحدة».

وبعد أن تناولها سألته كيف صار، فقال إنه بخير.

«ســـأعطيك المزيد بعد قليل»، قلت له. «فأنا أعلم أنك جبان ما لم تشـــرب، وليس لدينا في هذا الزورق الكثير مما تشـــربه. لذلك يجدر بك أن تهون على نفسك».

«قل لي ماذا تنوي»، قال إدي.

«اســـمع»، قلت له في الظلام. «سنذهب إلى باكوراناو لنلتقط اثني عشر تشنكيا. ستتولى قيادة الزورق عندما أقول لك، وستنفذ ما أقوله لك. سننقل التشنكيين الاثني عشر على متن الزورق، ثم سننزلهم إلى الأسفل حيث سنغلق عليهم في مقدمته. اذهب الآن إلى مقدمة الزورق وأحكم إغلاق الباب من الخارج».

ذهب ورأيت ظله يرتســـم في الظلام. عاد وقال، «هاري، هل لي بواحدة من تلك الآن؟».

«لا»، قلت له. «فأنا أريد أن يجعلك المشروب شجاعا لا عديم النفع».

«أنا رجل طيب، يا هاري. وسترى».

«بـــل أنت تشـــرب كثيرا»، قلت له. «اســـمع. ســـيقوم أحد التشنكيين بإحضار أولئك الاثني عشر. وسيعطيني بعض المال في البداية. وعندما يصبح الجميع على متن الزورق، سيعطيني

بقيـة المبلغ. فعندما تراه يناولني المـال في المرة الثانية، عليك أن تديـر رأس الـزورق وتنطلق به بأقصى سـرعة إلى عرض البحـر. ولا تكترث بما يجري. عليـك أن تبقيه منطلقا مهما كان. مفهوم؟».

«نعم».

«إن حاول أحد التشـنكيين الخروج من قمـرة الركاب أو من خـلال ذلك الباب ونحن في عرض البحر، فخذ بندقية الضغط تلك وأعدهم إلى أماكنهم بأسـرع ما تسـتطيع. هل تعرف كيف تستخدم بندقية الضغط؟».

«لا. لكنك ستريني».

«لن تتذكر. هل تعرف كيف تستخدم بندقية ونتشستر؟».

«ما عليَّ إلا أن أضغط العتلة وأطلق».

«هذا صحيح»، قلت له. «لكن إياك أن تخرق بدن الزورق».

«يجدر بك أن تعطيني جرعة أخرى»، قال إدي.

«لا بأس. سأعطيك جرعة قليلة».

أعطيته جرعـة لا بأس بها. كنت أعلم أنه لن يشـرب كثيرا الآن وهو على هذه الحال من الهلع. لكن مفعول الجرعة لن يدوم طويلا. وبعد أن تناول إدي هذه الجرعة، قال كما لو كان سعيدا: «إذن، سـنهرب تشـنكيين. لقد أقسـمت في يوم من الأيام أنني سأهرب الصينيين لو أفلست».

«وأنـت لم تفلس حتى الآن، أليس كذلـك؟». كان مضـحكا بلا منازع.

قبل العاشرة والنصف أعطيته ثلاث جرعات أخرى لأحافظ

على شجاعته. كنت أضحك وأنا أراقبه، كما أنه ألهاني عن التفكير في الأمر. لم أحسب حسابا لكل هذا الانتظار. كنت قد خططت للمغادرة بعد حلول الظلام، ثم أنطلق، بعيدا عن الأضواء، بمحاذاة الشاطئ حتى كوخيمار.

قبيل الحادية عشرة رأيت النورين عند الرأس البحري. انتظرت قليلا، ثم توجهت بالزورق ببطء. باكوراناو خليج صغير كان فيه مرسى كبير لتحميل الرمل. هناك نهير يسيل عندما تفتح الأمطار السد الذي يعترض فم الخليج. في الشتاء تجمع الرياح الشمالية الرمال فتغلقه.

كان أصحاب الطرادات يدخلون لتحميل الجوافة من النهر، كما كانت هناك بلدة. لكن الإعصار دمرها فلم يبق منها سوى بيت واحد بناه بعض الغاليغوس من بقايا الأكواخ التي عصف بها الإعصار، وجعلوه ناديا يرتادونه أيام الأحد عندما يأتون من هافانا للسباحة والتنزه. هناك بيت آخر يعيش فيه مندوب الحكومة، لكنه بعيد عن الشاطئ.

في كل محلة صغيرة على طول الشاطئ يوجد مندوب حكومي، لكنني تصورت أن التشنكي لا بد أن يستخدم زورقا خاصا به وأن يكون قد رشاه. عندما اقتربنا شممت رائحة الطحالب وتلك الرائحة العذبة التي تهب عليك من شجيرات البر.

«تقدم باتجاه الشاطئ»، قلت لإدي.

«لا يوجد ما ترتطم به من هذه الجهة»، قال لي. «فالحيد(٢٠) موجود على الطرف الآخر عندما تدخل». لقد كان، كما ترى،

---

(٢٠) الحيد: حرف صخري، إما مغمور تحت سطح الماء بقليل أو بارز فوقه بقليل [المترجم].

رجلا طيبا في يوم من الأيام.

«راقبه»، قلت له ورحت أوجه الزورق إلى حيث يمكنهم أن يرونا. ومع غياب الأمواج المتكسرة، كان بإمكانهم أن يسمعوا صوت المحرك. لم أكن راغبا في الانتظار، إذ لم أكن أعرف إن كانوا قد رأونا أو لا، لهذا غمزت لهما مرة واحدة فقط بغمازي التوجيه الأحمر والأخضر، ثم أطفأتهما. وبعد ذلك أدرت رأس الزورق باتجاه عرض البحر، ثم انتظرت بعيدا عن الخليج، بينما المحرك يتكتك ببطء. كان البحر يموج بعيدا عن الشاطئ.

«تعال إلى هنا»، قلت لإدي، ثم ناولته جرعة لا بأس بها.

«هل تصليها أولا بإبهامك؟». سألني همسا. كان يجلس خلف المقود الآن، وكنت قد تناولت الجرابين وفتحتهما وأخرجت أخمصي البندقيتين مسافة ست بوصات تقريبا.

«هذا صحيح».

«يا حبيبي!» قال إدي.

كان المشروب يجترح العجائب معه وبسرعة. انتظرنا هناك وكان بإمكاني أن أرى مصباحا من بيت المندوب يومض من بين الشجيرات. رأيت المصباحين ينخفضان عند الرأس البحري، بينما استدار أحدهما حوله. لا بد أنهما أطفأوا أحدهما.

وبعد قليل رأيت قاربا يخرج من الخليج ويتجه صوبنا، وكان رجل يسيره بمجداف. عرفت ذلك من حركة القارب إلى الأمام والخلف. وعرفت أن لديه مجدافا كبيرا. سعدت كثيرا. فالتجديف يعني أنه لا يوجد سوى رجل واحد.

صاروا بمحاذاتنا، فقال السيد سنغ:

«مساء الخير، أيها القبطان».

«اذهب إلى مؤخرة الزورق وضعه بشكل عرضاني»، قلت له.

قال شيئا للرجل الذي كان يجدف لكنه كان عاجزا عن توجيه القارب إلى الوراء، لذلك أمسكت بشفيره وسحبته إلى مؤخرة زورقنا. كان هناك ثمانية رجال في القارب. ستة تشنكيين، والسيد سنغ، والصبي وراء المجداف. بينما كنت أسحب القارب إلى مؤخرة زورقنا كنت أتوقع أن يضربني أحدهم على رأسي، لكن شيئا من هذا القبيل لم يحدث. اعتدلت واقفا وتركت السيد سنغ يمسك بمؤخرة الزورق.

«دعنا نر ماذا لديك»، قلت له.

ناولنا إياها فأخذتها إلى حيث كان إدي يتولى القيادة، فأشعلت ضوء البوصلة. نظرت إليها بتمعن. كانت على ما يرام، فأطفأت الضوء. كان إدي يرتعد.

«صب لنفسك واحدة»، قلت له. رأيته يتناول الزجاجة ويرفعها.

عدت إلى مؤخرة الزورق.

«حسن، دع ستة يركبوا»، قلت له.

كان السيد سنغ والمجدف الكوبي يكابدان لمنع قاربهما من الانقلاب بسبب الأمواج. سمعت السيد سنغ يقول شيئا بالتشنكية، فبدأ التشنكيون يتسلقون مؤخرة الزورق.

«واحدا، فواحدا»، قلت له.

قال شيئا مرة أخرى، فتسلق التشنكيون الستة مؤخرة الزورق،

الواحد تلو الآخر. وكانوا من مختلف الأطوال والأحجام.

«خذهم إلى المقدمة»، قلت لإدي.

«تفضلوا معي، أيها السادة»، قال إدي، فعلمت، علم اليقين، أنه تناول جرعة كبيرة.

«أغلق قمرة الركاب»، قلت له بعد أن دخلوا جميعا.

«نعم، يا سيدي»، قال إدي.

«سأذهب لآتي بالبقية»، قال السيد سنغ.

«لا بأس»، قلت له.

دفعت قاربهما حتى أبعدته عن الزورق، فراح الصبي الذي معه يجدف.

«اسمع»، قلت لإدي. «اترك تلك الزجاجة. فأنت شجاع الآن بما يكفي».

«حسن، أيها الرئيس»، قال إدي.

«ماذا جرى لك؟».

«هذا ما أحب أن أفعله»، قال إدي. «كل ما هنالك هو أن ترجعه إلى الخلف بإبهامك؟».

«أعطني جرعة من تلك الزجاجة، أيها القذر يا فاقد الوعي».

«لم يعد فيها شيء»، قال إدي. «آسف، أيها الرئيس».

«اسمع. كل ما عليك أن تفعله الآن هو أن تتولى أمر الزورق عندما يناولني المال وتنطلق به بسرعة إلى عرض البحر».

«حسن، أيها الرئيس»، قال إدي.

تناولت الزجاجة الأخرى وفتحتها بالمفتاح. أخذت منها

جرعة جيدة ثم عدت إلى مؤخرة الزورق، بعد أن أحكمت إغلاق الزجاجة ووضعتها خلف الإبريقين المليئين بالماء.

«ها قد أتى السيد سنغ»، قلت لإدي.

«نعم، يا سيدي»، قال إدي.

أقبل القارب نحونا.

وجهه هو إلى مؤخرة الزورق وتركتهما يقومان بتثبيته إلى زورقنا. أمسك السيد سنغ بالمرداس الذي نستخدمه في مؤخرة الزورق لسحب الأسماك الكبيرة إلى سطح المركب.

«دعهم يركبوا، الواحد تلو الآخر»، قلت له.

تسلق ستة تشنكيين مفروزين الزورق من مؤخرته.

«افتح وخذهم إلى المقدمة»، قلت لإدي.

«نعم، يا سيدي».

«أقفل قمرة الركاب».

«نعم، يا سيدي».

رأيته خلف المقود.

«والآن، يا سيد سنغ، دعنا نر البقية».

مد يده في جيبه وأخرج النقود. مددت يدي نحوها وأمسكت به من رسغه والنقود في يده، وعندما سحبته إلى سطح المركب أمسكت به من حلقه باليد الأخرى. شعرت بالمحرك يشتغل ثم يتحرك باضطراب بعد تعشيق ناقل السرعة. وبينما أنا منشغل بمعالجة السيد سنغ، رأيت الكوبي يقف في مؤخرة قاربه ممسكا بمجدافه لا يأتي بحركة بينما السيد سنغ يخبط ويقفز. كان يخبط ويقفز أسوأ من دلفين

شك برمح صياد.

لويت ذراعه وراء ظهره ثم سحبتها إلى فوق، لكنني تماديت في سحبها فشعرت بها تتخلع. وعندما انخلعت سمعته يصدر صوتا خفيضا مضحكا، ثم انكفأ إلى الأمام، بينما أنا أمسك به من حلقه وكل شيء، فعضني من كتفي. لكن عندما شعرت بذراعه تتخلع، تركتها. لم تعد تنفعه بشيء، فأمسكت به من حلقه بكلتا يدي، وراح السيد سنغ، يا أخي، يقفز تماما كالسمكة، وكانت يده المخلوعة تتأرجح، ثم جعلته يجثو على ركبتيه وقد غرزت إبهامي وراء حنجرته ولويتها إلى الخلف حتى طقطقت. لا تقل لي إنك لا تسمعها تطقطق.

أمسكته بلا حراك لحظة ثم مددته على مؤخرة الزورق. تركته يتمدد لا يأتي بحركة، بكامل حلته، ووجهه إلى الأعلى، بينما قدماه في ركن الريان.

التقطت النقود من الأرض وحملتها إلى ضوء البوصلة وعددتها. ثم أخذت المقود من إدي وأمرته أن يبحث في مؤخرة الزورق عن قطع من الحديد كنا نستخدمها مراسي عندما كنا نصطاد السمك في الأعماق في بعض الأماكن أو في القيعان الصخرية حيث لا تريد أن تجازف بالمرساة التي لديك.

«لم أجد شيئا»، قال إدي. وكان يرتعد من وجوده قريبا من السيد سنغ.

«خذ المقود»، قلت له. «ابق متجها نحو عرض البحر».

كان هناك قدر من الحركة في قمرة الركاب لكنني لم أفزع

منها.

وجدت قطعتين مما كنت أريد - قطعتي حديد من مرسى الفحم القديم في تورتغـــاس - وتناولت خيط صنارة وربطت به القطعتين إلى كاحلي الســيد سنغ. وبعد أن ابتعدنا مسافة ميلين عن الشــاطئ دحــرجته في المــاء. انزلــق بســلاســة فــوق المرداس. ولم أفتش جيــوبه أبدا. لم أشــعر برغبة في العبث به.

كان قد نزف قليلا من أنفه وفمه ولطخ مؤخرة الزورق، فغرفت دلوا من الماء كاد يســحبني من فوق الزورق بســبب الســرعة، ونظفت الزورق تنظيفا جيدا بفرشاة قاسية.

«خفف السرعة»، قلت لإدي.

«لكنه قد يطفو»، قال إدي.

«لقد قذفته في مياه يبلغ عمقها ســبعمائة قامة»، قلت له[٣١] «وســينزل كل هــذا العمق. وهي مســافة طويلة، يــا أخي. ولن يصعــد حتى ترفعه الغازات، وقد جرفه التيار معه، وصار طعما للأسماك. أستحلفك بحق الجحيم ألا تقلق على السيد سنغ».

«ماذا كان لك عليه؟». سألني إدي.

«لا شيء. لقد كان أسهل رجل تعاملت معه في حياتي. لكنني لم أتمكن إطلاقا من الاطمئنان إليه».

«لماذا قتلته؟».

«لأمنع نفسي من قتل اثني عشر تشنكيا آخر»، قلت له.

«هــاري، عليك أن تعطيني واحدة لأنني أشــعر بالنوبة قادمة

(٣١) القامة: مقياس تسبر به أعماق المياه ويساوي ست أقدام. بمعنى آخر، يبلغ عمق المياه التي قذف فيها السيد سنغ ١٢٨٠ مترا [المترجم].

إلي. لقد أصابتني رؤية رأسه يتدلى على ذلك النحو بالغثيان».

أعطيته واحدة.

«وماذا سنفعل بالتشنكيين؟». سألني إدي.

«أريد أن أخرجهم بأقصى سـرعة ممكنة»، قلت له. «قبل أن يشموا الرائحة».

«أين تريد أن تلقي بهم؟».

«سننطلق بهم إلى الشاطئ الطويل»، قلت له.

«نذهب الآن؟».

«أجل، نذهب الآن ببطء»، قلت له.

عبرنا بهـدوء فوق الحيـد إلى حيث تمكنت مـن رؤية خط الشاطئ يلمع. كان الماء كثيرا فوق الحيد، وبعد ذلك يصبح القاع رمليا ينحدر باتجاه الشاطئ.

«انهض واسبر لي العمق من مقدمة الزورق».

راح يسبر العمق بالمسبار، ويومئ لي به. ثم عاد وأشار لي أن توقف. ذهبت إلى مؤخرة الزورق.

«لديك نحو خمس أقدام».

«علينا أن نلقي بالمرسـاة»، قلت له. «وإن حدث شـيء وليس لدينا الوقت، فإما نرفعها أو نقطعها».

دلى إدي حبل المرسـاة إلى أن أيقن رسـو الـزورق جيدا، ثم ربطه. راحت مؤخرة الزورق تتمايل.

«القاع رملي هنا، كما تعلم»، قال لي.

«كم عمق المياه عند المؤخرة؟».

«ليس أكثر من خمسة أقدام».

«خذ البندقية»، قلت له. «وكن حذرا».

«دعني أتناول واحدة»، قال لي، وكان شديد التوتر.

أعطيته واحدة، وتناولت بندقية الضغط. فتحت باب قمرة الركاب، وقلت لهم: «هيا اخرجوا».

لكن لا حياة لمن تنادي.

ثم أخرج تشنكي رأسه، ورأى إدي يطل فوقه ببندقية، فتراجع مسرعا.

«هيا اخرجوا، وعليكم الأمان»، قلت لهم.

لكن لا حياة لمن تنادي. فقط كثير من اللغط بالتشنكية.

«هيا، اخرجوا أيها الـ...»، قال لهم إدي، فعلمت علم اليقين أنه شرب الزجاجة.

«اترك الزجاجة»، قلت له، «وإلا نسفتك من فوق القارب بطلقة واحدة».

«هيا اخرجوا»، قلت لهم، «وإلا أطلقت النار عليكم».

رأيت أحدهم ينظر إلى زاوية الباب، واتضح لي أنه رأى الشاطئ لأنه راح يكركر.

«هيا، وإلا أطلقت النار»، قلت لهم.

فخرجوا.

دعني أقل لك إنه لن يقتل مجموعة من التشنكيين إلا رجل لئيم، وأؤكد لك أنه ستنجم عن ذلك المتاعب الكثيرة، إضافة إلى التورط في أمر له أول وليس له آخر.

خرجوا مذعورين ولا أسلحة لديهم، لكنهم كانوا اثني عشر. مشيت القهقرى حتى بلغت مؤخرة الزورق، وأنا أمسك ببندقية

الضغط. «هيا، اقفزوا في الماء»، قلت لهم. «لن تغمر رؤوسكم».

لا حياة لمن تنادي.

«اقفزوا في الماء، أيهـا الأغراب الصفر، أكلة الجرذان»، قال لهم إدي.

«اخرس أنت، يا فاقد الوعي»، قلت له.

«لا نسبح»، قال أحد التشنكيين.

«لست في حاجة للسباحة»، قلت له. «ليست عميقة».

«هيا، اقفزوا في الماء»، قال لهم إدي.

«تعـال إلى مؤخـرة الزورق»، قلـت له. «خـذ البندقية بيد، والمسبار باليد الأخرى، وأرهم كم عمق الماء».

ففعل.

«لا حاجة للسباحة؟». سألني التشنكي.

«لا حاجة».

«حقا؟».

«حقا».

«أين نحن؟».

«في كوبا».

«أيهـا النصاب اللعين»، قـال وهو يتعلق بحافـة الزورق، ثم تركها. غاص رأسـه في الماء، لكنه صعـد وصار ذقنه فوق الماء. «نصاب لعين»، قال. «نصاب لعين».

كان شـديد الغضب والشـجاعة أيضا. قال شيئا بالتشنكية، فراح الآخرون يقفزون من مؤخرة الزورق إلى الماء.

«حسن»، قلت لإدي. «ارفع المرساة».

وبينما نحـــن نتجه إلى عرض البحـــر، راح القمر يطلع وكان بإمكانك أن ترى رؤوس التشـــنكيين بارزة فـــوق الماء بقليل، وهم يسيرون نحو الشاطئ، ومن ورائهم لمعان الشاطئ والشجيرات.

تجاوزنا الحيد فالتفت ورائي ورأيت الشـــاطئ والجبال تبرز رويدا رويدا، عندئذ وجهت الزورق نحو كي وست.

«يمكنـــك الآن أن تنـــام»، قلت لإدي. «بل انتظـــر. انزل وافتح جميع النوافذ لتخرج الرائحة المنتنة، ثم اجلب لي اليود».

«ما بك؟». قال لي عندما جاء به.

«لقد جرحت إصبعي».

«هل تريدني أن أقود؟».

«بل اذهب للنوم»، قلت له. «سأوقظك بنفسي».

اســـتلقى على الســـرير في قمرة الربان الكائـــن فوق خزان الوقود، ثم نام بعد قليل.

وضعت ركبتي علـــى المقود لأثبته وفتحت قميصي ورأيت أين عضني الســـيد ســـنغ. كانت عضة لا بأس بهـــا، فوضعت اليود عليها، ثم جلســـت أوجه الزورق ورحت أتســـاءل إن كانت عضة الصيني ســـامة، وكنت أســـتمع لهدير الزورق السلس، وكان الماء ينســـاب من حوله، ثم جزمت أن عضة الصيني ليســـت ســـامة. فمن الأرجح أن رجلا مثل الســـيد سنغ كان يفرك أسنانه مرتين أو ثلاثا في اليوم الواحد[٣٢]، نعم، هكذا هو السيد سنغ. لم يكن بالتأكيـــد رجل أعمال ناجحا. ومن يـــدري، لعله كان كذلك. لعله

(٣٢) لا يغـــرن القارئ هذا المديح الظاهري، لأن الكلمة التي يســـتخدمها الراوي (scrubbed) ليست مما يستخدم عادة لفرك الأسنان، بل لفرك كل ما هو شديد الاتساخ ويحتاج إلى تنظيف بفرشاة قاسية [المترجم].

وثق بي. لكنني أقول لك إنني لم أستطع سبر غوره.

على أي حال، هانت الأمور الآن لولا إدي. فلأنه يشـــرب كثيرا ســـيتحدث عندما ينفعل. وأنا جالس أقود الـــزورق نظرت إليه، ورحت أفكر: وحق الجحيم، إن حياته هذه هي وموته سيان عندي، وبعدها تنتهي متاعبي. عندما وجدته على متن الزورق، قررت أن أتخلص منه، لكن عندما آلت الأمور إلى هذه النهاية الحســـنة لم يطاوعني قلبي. لكن وجوده مستلقيا أمام ناظري أمر مغر. لكنني فكرت وقلت في نفســـي، لا فائدة من إفساد الأمر بشيء ستندم عليه لاحقا. ثم خطر لي أنه لم يكن حتى على قائمة الطاقم، مما يوجب أن أدفع غرامة عنه، فاحترت في أمره.

علـــى أي حال، لا زال أمامي متســـع من الوقـــت للتفكير في مصيـــره، ورحت أوجـــه الزورق إلى مســـاره، وكنت بـــين الفينة والأخرى أتنـــاول جرعة من الزجاجة التـــي جلبها معه. لم يكن فيها كثير، وعندما انتهت، فتحت الزجاجة الوحيدة التي تركتها، وصدقني إنني كنت منتشيا وأنا أقود الزورق، وكانت ليلة مواتية للعبور. لقد كانت رحلة رائعة، في نهاية المطاف، رغم ما شـــابها من متاعب في كثير من الأحيان.

عندما أشـــرق الصـــبح، اســـــتيقظ إدي وقـــال إنـــه على غير ما يرام.

«خذ المقود لحظة»، قلت له. «أريد أن أستطلع الأمور».

عدت إلى مؤخرة الزورق ورششت قليلا من الماء عليها. لكنها كانت في غاية النظافة. فركت جانب الزورق بالفرشـــاة. أفرغت البندقيتين مـــن الطلقات وخبأتهما في الداخل. لكنني احتفظت

بالمسدس الذي تحت نطاقي. كان الجو منعشا ورائعا كما تريده في الداخل، بلا رائحة على الإطلاق. لقد دخل قليل من الماء من النوافذ في ميمنة الزورق، لا أكثر ولا أقل. لذلك أغلقت جميع النوافذ. فالآن لن يستطيع أي ضابط جمارك في العالم أن يشم رائحة تشنكية في هذا الزورق.

رأيت أوراق التخليص في الحقيبة الشبكية التي تتدلى من تحت رخصة الزورق الموضوعة في إطار حيث دسستها عندما ركبت الزورق، فأخذتها لأراجعها. ثم ذهبت إلى قمرة الريان.

«اسمع»، قلت له. «كيف وضعت اسمك على قائمة الطاقم؟».

«قابلت السمسار عندما كان في طريقه إلى القنصلية وقلت له إنني سأذهب معك».

«إن الله يعتني بفاقدي الوعي»، قلت له، ثم نزعت الثمانية والثلاثين[٣٣] وخبأته في الداخل.

صنعت قهوة في الداخل، ثم صعدت وتوليت القيادة.

«هناك قهوة في الداخل»، قلت له.

«إن القهوة لا تصلح لي، يا أخي». لا مناص لك من الإشفاق عليه. لقد كان مظهره يرثى له حقا.

في حوالي التاسعة رأينا منارة ساند كي (جزيرة الرمال) وقد أوشكت على الانطفاء. صار لنا مدة ونحن نرى ناقلات بحرية تتجه نحو الخليج.

«سندخل الآن»، قلت له. «سأعطيك أربعة دولارات عن كل يوم

---

(٣٣) الإشارة هنا إلى مسدس من طراز سمث آند وسون ٣٨، وقد مر ذكره سابقا في هذه القصة [المترجم].

كما كان يعطيك جونسن».

«كم كسبت من ليلة أمس؟». سألني.

«ستمائة فقط»، قلت له.

لا أعرف إن صدقني أو لا.

«أليس لي فيها حصة؟».

«هــذه هي حصتك»، قلت له. «ليــس لك إلا ما قلته لك، وإن تفوهت بشيء عما حدث ليلة أمس، ستصلني الأخبار وسأتخلص منك».

«أنت تعلم، يا هاري، أن الخيانة ليست من طبعي».

«أنت تشــرب كثيرا. لكن حتى إن انطلق عثار لســانك بسبب كثرة الشراب وتحدثت عما جرى، فسأنفذ ما وعدتك به».

«أنــا رجل طيب، ولا يجوز لك أن تكلمني بهذه الطريقة»، قال لي.

«ومن يضمن لي أنك ستبقى رجلا طيبا؟». قلت له.

لكنه لم يعد يقلقني، إذ من ســيصدق فاقد الوعي؟ والســيد ســنغ لن يرفع دعــوى. وكذلك لن يفعل التشــنكيون. وكذلك لن يفعل الصبي صاحب القارب. ســيثرثر إدي إن عاجلا أو آجلا، لكن من سيصدق فاقد الوعي؟

بالأحرى، أين الدليل ضدي؟ لا شــك في أن وجوده على قائمة الطاقم ستثير مزيدا من القيل والقال. ها قد جد حظي، بلا منازع. بإمكاني أن أقول إنه ســقط من الزورق، لكن هذا سيثير الثرثرة. وها قد جد حظ إدي، أيضا. نعم، جد حظنا نحن الاثنين.

وبعد ذلك بلغنا طرف التيار وتلاشــى لون الماء الأزرق وصار

يميــل نحو الاخضرار الفاتح، ولما دخلنــا رأيت الأوتاد التي تعلم الحيد الطويل والصخور الغريبة الجافة، كما رأيت أيضا أعمدة اللاســلكي في كي وســت وفندق لاكونشــا ينتصــب عاليا فوق البيــوت، والدخان يرتفع من محرقة القمامــة. اقتربنا الآن من منارة ســاند كي، وصار بإمكانك أن ترى عنبر الزوارق والمرسى الصغير بمحاذاة المنارة، فأيقنت أننا أصبحنا على مسافة أربعين دقيقة، فانتشيت بعودتي ولدي ما أقيم به أودي في الصيف.

«ما رأيك في جرعة، يا إدي؟». قلت له.

«آه، هاري، لم أشك قط في كونك صديقي»، قال لي.

عودة التاجر
(١٩٣٦)

عبـــرا من الطرف الآخر ليلا، وكانـــت الريح العاتية تهب من الشـــمال الغربي. ولما ارتفعت الشـــمس رأى ناقلـــة نفط تتهادى في الخليج، فتنتصب بيضاء شامخة تحت أشعة الشمس وبرودة الهواء كأنها مبان تشمخ سامقة وسط البحر، فقال للزنجي، «قل لي بحق السماء أين نحن؟».

نهض الزنجي لينظر.

«لا تشبه هذه ميامي في شيء».

«أنـــت تعلـــم جيـــدا أن قاربنا لـــم يحملنا إلى ميامـــي»، قال للزنجي.

«كل مـــا أقوله هـــو أنه لا توجـــد مثل هذه المبانـــي في جزر فلوريدا».

«كنا نتجه صوب جزيرة الرمال».

«إذن، لا بد أن نراها. إما هي أو المياه الأمريكية الضحلة».

وبعد هنيهة تبين له أنها ناقلة نفط وليســـت مباني، وبعد أقل من ساعة رأى منارة جزيرة الرمال تنتصب، سمراء رفيعة، وسط البحر حيث يجب أن تكون.

«يجـــب أن تكـــون لديك الثقـــة لتتمكن مـــن القيـــادة»، قال للزنجي.

«الثقـــة موجودة»، قال له الزنجي، «لكنني فقدتها نتيجة لهذه الرحلة».

«كيف أصبحت ساقك؟».

«إنها تؤلمني باستمرار».

«إصابتك خفيفة»، قال له الرجل. «احرص على نظافتها واتركها ملفوفة وستشفى من تلقاء ذاتها».

كان يتجه نحو الغرب ليستريح طوال اليوم بين أشجار المانغروف القريبة من «جزيرة المرأة» حيث لا يرى أحدا وحيث سيأتي القارب لملاقاتهما.

«ستكون بخير»، قال للزنجي.

«لا أعرف»، قال الزنجي، «ولكنها تؤلمني ألما شديدا».

«سأعالجك عندما نصل إلى المكان»، قال له. «ليست إصابتك خطرة. كف عن القلق».

«لقد أُصبتُ بطلق ناري. لم أتعرض لمثل هذه الإصابة من قبل. وكيفما أصبت فهي خطرة»، قال له.

«أنت خائف ليس إلا».

«لا يا سيدي. لقد أصبت بطلق ناري. وأنا أتألم ألما شديدا. وقلبي ظل يخفق طوال الليل».

ظل الزنجي يتذمر على هذه الحالة وكان ينزع الضماد باستمرار لينظر إلى الإصابة.

«اتركها وشأنها»، قال له الرجل الذي كان يقود القارب. كان الزنجي يستلقي على سطح القارب بين أكوام من صناديق المشروب المتناثرة هنا وهناك، ولها شكل فخذ الخنزير. وكان كلما تحرك سمع فرقعة الزجاج المتكسر في العبوات، كما تفوح رائحة الشراب المسفوح. كان المشروب مسفوحا في كل مكان. راح الرجل

الآن يتجه نحو «جزيرة المرأة» التي أصبح يراها بجلاء.

«إني أتألم»، قال الزنجي. «والألم يزداد باستمرار».

«أنا آسف، يا وزلي»، قال له الرجل. «لكن علي أن أقود القارب».

«إنك تعامل البشر كمعاملة الكلاب»، قال له الزنجي. ورغم أن الزنجي راح يشاكسه، فإن الرجل ظل يشعر بالأسى من أجله.

«سأجعلك ترتاح، يا وزلي»، قال له. «لكن عليك أن تستلقي بهدوء الآن».

«أنت لا يهمك ماذا يحدث للإنسان»، قال الزنجي. «تكاد لا تكون بشرا».

«سأعالجك علاجا يشفيك»، قال له الرجل. «لكن عليك أن تستلقي بهدوء الآن».

«لن تعالجني ولن تشفيني»، قال الزنجي. لم يقل الرجل المدعو هاري شيئا لأنه كان يحب الزنجي، ولم يعد أمامه خيار سوى أن يضربه، لكنه لا يستطيع أن يضربه. وواصل الزنجي حديثه.

«لماذا لم نتوقف عندما بدأوا إطلاق النار علينا؟».

لم يرد عليه الرجل.

«أليست حياة الإنسان أغلى من حمولة مشروب؟».

كان الرجل منهمكا في قيادة القارب.

«كل ما في الأمر هو أن نتوقف ونتركهم يأخذون المشروب».

«لا»، قال له الرجل. «بل يأخذون المشروب والقارب وأنت تذهب للسجن».

«السجن أهون من أن أصاب بطلقة»، قال الزنجي.

ضاق الرجل ذرعا بهذه المناكدة وسئم حديثه، فسأله: «من إصابته أسوأ من الآخر، أنت أم أنا؟».

«إصابتك أنت»، قال الزنجي. «لكنني لم أصب بطلق ناري من قبل. لم يدخل هذا في حسابي. لا أحد يدفع لي لكي أصاب بطلق ناري. ولا أريد أن أصاب بطلق ناري».

«هون عليك، يا وزلي»، قال له الرجل. «إذ لا طائل من هذا الحديث».

كانا يقتربان من الجزيرة، أصبحا داخل المياه الضحلة، وبينما هو يوجه القارب نحو القناة، أصبحت الرؤية عسيرة بسبب انعكاس الشمس على الماء. أما الزنجي فقد فقد صوابه، أو دخل في نوبة روحية بسبب الألم. على أي حال، راح يهذي بلا كلل.

«لماذا يهربون المشروب الآن؟ لقد انتهى الحظر. لماذا يواصلون هذه التجارة؟ لماذا لا يجلبون المشروب معهم في العبارة؟».

كان الرجل يقود القارب ويراقب القناة مراقبة دقيقة.

«لماذا لا يكون الناس نزيهين شرفاء، ويعيشون عيشة نزيهة شريفة؟».

رأى الرجل الماء يتهادى رقراقا بمحاذاة الضفة التي لم يرها بسبب الشمس، فانعطف بالقارب. ظل يدير موجّه القارب بيد واحدة إلى أن رأى القناة تنفتح أمامه، فقاد القارب ببطء حتى بلغ حافة أشجار المانغروف. توجه إلى مؤخرة القارب حيث المحرك، ثم ألقى بالمرساتين في الماء.

«يمكنني أن ألقي بالمرساة، لكنني لا أستطيع أن أرفعها»، قال الرجل.

«أما أنا فلا أقوى حتى على الحراك»، قال الزنجي.

«إنك فعلا في حال يرثى لها»، قال له الرجل.

لاقى الأمرّين وهو يحل حبل المرساة التي كان يحملها فترتمي منه، لكنه تمكن من رفعها فوق حرف القارب وأرخى لها الحبل بوفرة، فانجذب القارب نحو أشجار المانغروف حتى أصبحت تتدلى فوق سطحه. ثم عاد إلى حيث كان على سطح القارب، فساءه ما رأى.

وبعد أن ضمد جرح الزنجي والزنجي ضمد ذراعه ظل طوال الليلة التالية يراقب البوصلة ويوجه القارب، فلما انبلج الفجر رأى الزنجي مستلقيا بين العبوات في منتصف سطح القارب، لكنه كان يراقب البحر والبوصلة ويبحث عن منارة جزيرة الرمال، فلم يكن ينتبه إلى كيف آلت الأمور، لكنها آلت مآلا سيئا.

كان الزنجي يستلقي في منتصف حمولة المشروب المهرب ويرفع ساقه نحو الأعلى. كان الرصاص قد خلف ثمانية ثقوب واسعة اخترقت سطح المركب. وكان زجاج قمرة القبطان قد تحطم. لم يكن يعرف مدى الدمار، ولم تكن هناك من بقعة لم تتجلل بنجيعه أو نجيع الزنجي. لكن أسوأ ما في الأمر، أو هذا هو شعوره الآن، كان رائحة المشروب المسفوح على كل شيء. كان المركب الآن يرقد بسكينة بين أشجار المانغروف، لكنه ظل يشعر بدوار البحر الذي قضيا فيه ليلة كاملة في ذلك الخليج.

«سأعد بعض القهوة، وبعدها سأعالجك مرة أخرى»، قال للزنجي.

«لا أريد قهوة».

«أنـــا أريدها»، قال لـــه الرجل. لكنه عندمـــا هبط إلى بطن المركب أحس بالدوخة فصعد إلى السطح ثانية.

«يبدو أننا لن نتناول القهوة»، قال للزنجي.

«أريد ماء».

«حسن».

صب كأسا من الماء من زجاجة ضخمة وأعطاها للزنجي.

«لماذا أصررت على الهرب عندما راحوا يطلقون النار؟».

«ولماذا يطلقون النار؟». رد عليه.

«أريد طبيبا»، قال له الزنجي.

«وماذا سيفعل لك الطبيب غير الذي فعلته لك؟».

«الطبيب سيشفيني».

«سترى طبيبا الليلة عندما يأتي المركب لملاقاتنا».

«لا أريد الانتظار حتى يأتينا المركب».

«حسن»، قال الرجل. «سنلقي هذه الحمولة الآن».

ثـــم راح يلقي بها، ولم يكن إلقاؤهـــا بيد واحدة بالأمر الهين. كان وزن العبوة نحو أربعين رطلا، لكنه بمجرد أن ألقى قليلا منها شعر بالدوخة مرة أخرى. قعد ثم استلقى على سطح المركب.

«إنك تقتل نفسك»، قال له الزنجي.

ظل الرجل يستلقي بهدوء ورأسه على إحدى العبوات.

كانـــت أغصان المانغـــروف تتدلى فوق ســـطح المركب وتظلل المكان الذي يســـتلقي فيه. كان يســـمع الريح تهب فوق الأشجار، وإذا تطلع إلى الســـماء الباردة الشـــاهقة يرى تلك الغيوم البنية المتفرقة التي تجلبها ريح الشمال.

«لــن يأتي أحد لملاقاتنا مع هذه الريح»، قال في نفسـه. «لن يبحثوا عنا مع هذا الهبوب».

«هل تظن أنهم سيأتون لملاقاتنا؟». سأله الزنجي.

«بالتأكيد»، قال له الرجل. «لم لا؟».

«إن الريح يشتد هبوبها».

«إنهم يبحثون عنا».

«ليـس في مثل هذا الطقس. لماذا تكذب علي؟». كان الزنجي يتكلم وفمه يكاد يلتصق بإحدى العبوات.

«هون عليك، يا وزلي»، قال له الرجل.

«يقول لي هون عليـك»، واصل الزنجي حديثه. «هون عليك! كيف؟ أتريدني أن أموت كالكلب ولا أجزع؟ لقد جئت بي إلى هذا المكان، فأخرجني منه».

«هون عليك»، قال له الرجل بشيء من اللطف.

«لـن يأتوا»، قال الزنجي. «أنا أعرف أنهم لن يأتوا. ليكن في علمك أنني أشعر بالبرد. وليكن بعلمك أيضا أنني لا أحتمل هذا الوجع والبرد».

اعتدل الرجل في جلسته وكان يشعر بالخواء والدوار. راحت عينـا الزنجي تراقبانه وهـو ينهض على ركبـة واحدة، وذراعه اليمنى تتدلى، ثم يأخذ يده اليمنى بيسـراه ويضعها بين ركبتيه، ثم يتحامل على اللوح الخشـبي المثبت علـى حافة المركب حتى نهـض واقفا، وحدق في الزنجي تحته، بينما لا تزال يده اليمنى بين فخذيه. كان يجول في خاطره أنه في الواقع لم يشعر بالألم من قبل.

«لو أبقيتها ممدودة بشـــكل مســـتقيم، فلن تؤلمني كثيرا»، قال الرجل.

«دعني أعلقها لك على حمالة بعنقك»، قال الزنجي.

«لا يمكننـــي أن أطويهـــا من عند المرفق»، قـــال الرجل. «لقد تخشبت على هذا النحو».

«ماذا سنفعل؟».

«ســنتخلص من هذه الحمولة من المشـــروب»، قال له الرجل. «ألا يمكنك أن تلقي ببعض العبوات التي في متناول يدك من فوق الحافة، يا وزلي؟».

حـــاول الزنجي أن يتحرك لكي يتناول عبوة، لكنه أنّ من الألم وعاد إلى استلقائه.

«هل تتألم إلى هذه الدرجة، يا وزلي؟».

«يا إلهي»، قال الزنجي.

«ألا تعتقد أنه متى حركتها، فلن تؤلمك كثيرا؟».

«أنـــا مصاب بطلق ناري»، قال الزنجي. «لن أتحرك. يا رجل، تريدني أن ألقي بالمشروب وأنا مصاب؟».

«هون عليك».

«لو قلت هذا القول مرة أخرى، لفقدت صوابي».

«هون عليك»، قال له الرجل بهدوء.

أطلق الزنجي صرخة مدوية ثم راح يخبط يديه يمينا وشمالا فوق ظهر المركب، ثم تناول حجر الشحذ من تحت الحتار[٣٤].

«سأقتلك»، قال للرجل. «سأنتزع قلبك وأقطعه».

---

(٣٤) الحتار: حافة مرتفعة حول فتحة في سطح المركب لمنع تسرب المياه إليها [المترجم].

«ليس بحجر الشحذ هذا»، قال له الرجل. «هون عليك، يا وزلي».

انتحب الزنجي ووجهه ملتصق بأحد الصناديق. واصل الرجل ببطء حمل عبوات المشروب المهربة وقذفها من فوق حرف المركب.

وبينما هو يلقي بالحمولة سمع صوت محرك، فالتفت فرأى قاربا ينعطف عند طرف الجزيرة ويتجه عبر القناة نحوهما. كان قاربا أبيض له قمرة صفراء برتقالية وواقية ريح.

«ها قد أتى القارب»، قال الرجل. «هيا يا وزلي».

«لا أستطيع».

«لقد أصبحت أتذكر الآن»، قال الرجل. «أما من قبل فالأمر مختلف».

«تفضل وتذكر»، قال له الزنجي. «أما أنا فلم أنس شيئا».

راح يعمل بسرعة، والعرق يتصبب على وجهه، دون أن يتوقف ليراقب القارب القادم نحوهما ببطء عبر القناة، وكان يحمل عبوات المشروب المهربة بيده السليمة ويلقي بها من فوق حافة المركب.

«هيا تزحزح». ثم تناول العبوة من تحت رأس الزنجي وطوح بها من فوق الحافة. نهض الزنجي وتطلع.

«ها قد أتوا»، قال. كان المركب يكاد يوازي قاربهم.

«إنه الكابتن ولي، ومعه جماعة»، قال الزنجي.

في مؤخرة القارب الأبيض جلس رجلان بملابسهما الداخلية ويعتمران قبعتين من النسيج الأبيض على كراسي صيد ويشدان

خيطـــي صنارة، بينمـــا كان رجل عجوز يلبـــس طاقية من اللباد وســـترة جلدية قصيرة، ويمســـك بدفة التوجيـــه ويقود المركب بمحاذاة أشـــجار المانغروف متجاوزا إياها إلى حيث يرسو قارب المشروب.

«مـــا الأخبار يا هاري؟». نادى العجوز وهو يمر. لوح له هاري بيده الســـليمة محييا. مضى المركب في ســـبيله، وكان الرجلان اللذان كانا يصيدان ينظران إلى قارب المشـــروب ويتحدثان إلى العجوز. لم يسمع هاري ما يقولان.

«ســـينعطف عند المصب ويعود»، قال هاري للزنجي. نزل إلى داخل المركب وعاد ببطانية. «دعني أغطك».

«لقد آن الأوان لأن تغطيني. لا بد أنهما شـــاهدا المشـــروب. فماذا سنفعل؟».

«إن ولي شـــخص طيب»، قال الرجل. «سيخبرهم في المدينة أننا هنا. وهذان الصيادان لن يتحرشـــا بنـــا. فماذا يهمهما من أمرنا؟».

صـــار يرتجف أكثر الآن، ثم جلس علـــى مقعد التوجيه وظل يمسك ذراعه اليمنى بين فخذيه. كانت ركبتاه ترتجفان، وبسبب هذا الارتجاف كان يشـــعر بأن أطـــراف عظامه في أعلى الذراع تصطـــك بعضها ببعض. فتح ركبتيه، وأخـــرج ذراعه من بينهما، وجعلها تتدلى بجانبه. وبينما هو يجلس وذراعه تتدلى، مر بهما المركب عائدا من الطرف الأعلى للقناة. كان الرجلان الجالسان في كرسيي الصيد يتحدثان. كانا قد رفعا صنارتي الصيد وكان أحدهمـــا يتفحصهما بزوج من العدســـات. لم يكـــن بإمكانه أن

يسمع ما يقولان بسبب بعدهما عنه. وحتى لو سمعهما لما كان ذلك في صالحه.

على متن المركب «ساوث فلوريدا» المستأجر الذي كان يجوب القناة في «جزيرة المرأة» بحثا عن الصيد لاستحالة الخروج إلى الحيد البحري بسبب الأنواء، كان الكابتن ولي آدمز يقول في نفسه: إذن لقد عبر هاري في الليلة الماضية. هذا الفتى جريء. لا بد أنه ذاق العاصفة كلها. ومركبه مركب بحري بلا جدال. وإلا كيف تتوقع أن تتحطم واقية الريح؟ اللعنة علي لو عبرت في ليلة كليلة أمس. اللعنة علي لو هربت المشروب من كوبا. إنهم يجلبونه الآن بكل أنواعه من ماريل. لا يكلف الأمر سوى دخول وخروج. يفترض أن يكون الطريق سالكا. «ماذا تقول، أيها الكابتن؟».

«ما ذاك القارب؟». سأله أحد الرجلين الجالسين في كرسيي الصيد.

«ذاك القارب؟».

«نعم، ذاك القارب».

«أوه، إنه أحد قوارب الجزيرة الغربية».

«سؤالي كان: لمن ذلك القارب؟».

«لا علم لي أيها الكابتن».

«هل مالكه صياد؟».

«حسن، يقول البعض إنه كذلك».

«ماذا تقصد؟».

«إنه يعمل في كل شيء».

«ألا تعرف اسمه؟».

«لا، يا سيدي».

«لكنك ناديته باسم هاري».

«ليس أنا».

«أنا سمعتك تناديه هاري».

تمعن الكابتن ولي آدمز مليا في الرجل الذي كان يكلمه، فرأى رجلا عالي الوجنتين، رقيق الشفتين، منتفخ الوجه قليلا، غائر العينين، رماديهما، ذا فم يتدفق ازدراء، رجلا يرنو إليه من تحت قبعة قنب. ما كان يخطر في بال الكابتن ولي آدمز أن كثيرا من النساء في واشنطن كن يحسبن هذا الرجل وسيما إلى درجة لا تقاوم.

«لا بد أنني ناديته كذلك عن طريق الخطأ»، قال الكابتن ولي.

«من الواضح أن الرجل جريح، يا دكتور»، قال الرجل الآخر وهو يناول العدسات إلى رفيقه.

«أستطيع أن أرى ذلك من دون عدسات»، قال الرجل الذي خوطب بلقب دكتور. «من ذلك الرجل؟».

«لا علم لي»، قال الكابتن ولي.

«حسن، سيكون عندك علم»، قال له الرجل ذو الفم المزدري. «اكتب الأرقام على مقدمة القارب».

«لقد فعلت يا دكتور».

«سنذهب ونلقي نظرة»، قال الدكتور.

«هل أنت دكتور؟». سأله الكابتن ولي.

«ليس في الطب»، قال له الرجل ذو العينين الرماديتين.

«إن لم تكن طبيبا فلا أنصحك بالذهاب».

«لماذا؟».

«لـــو كان يريدنا لأومأ إلينا. وإن كان لا يريدنا، فهذا ليس من شغلنا. في هذه النواحي كل إنسان يهتم بشغله».

«لا بـــأس. ما رأيــك لو اهتممت بشـــغلك؟ خذنـــا إلى ذلك القارب».

ظل الكابتن يشق طريقه عبر القناة، بينما كان محرك «بالمر» ذو الأسطوانتين يهدر بثبات.

«ألم تسمعني؟».

«أجل يا سيدي».

«إذن، لماذا لا تطيع أوامري؟».

«قل لي بحق الســـماء، من تظن نفســـك؟». قـــال له الكابتن ولي.

«ليس هذا هو السؤال. بل افعل كما أقول لك».

«من تظن نفسك؟». سأله الكابتن ولي ثانية.

«حســـن. ليكن في علمك أنني واحد من بين أهم ثلاثة رجال في الولايات المتحدة اليوم».

«إذن قـــل لي بحق الســـماء ما الذي تفعله هنـــا في الجزيرة الغريبة؟».

مـــال نحوه الرجل الآخر وقال بنبرة جياشـــة بالإعجاب، «إنه ......».

«لم أسمع به قط»، قال الكابتن ولي.

«حســـن، ستســـمع بـــه»، قـــال الرجـل الملقـــب بالدكـتور.

«وكذلك سـيفعل كل واحد في هذه البليـدة التافهة المعفنة ولو تطلب الأمر اجتثاثها من جذورها».

«كلك لطف»، قال له الكابتن ولي. «لكن قل لي: كيف أصبحت مهما إلى هذه الدرجة؟».

«إنه أعز صديق وأقرب مستشار لـ ....»، قال الرجل الآخر.

«هذا هراء»، قال الكابتن ولي. «إن كان كذلك، فما الذي يفعله هنا في الجزيرة الغربية؟».

«إنه هنا ليرتاح»، قال السكرتير. «سيصبح ....».

«كفى، يا هارس»، قال الرجل الملقب بالدكتور. «والآن سـوف تأخذنـا إلى ذلك القارب»، قـال هذا وهو يبتسـم. كانت لديه ابتسامة يحتفظ بها لمثل هذه المناسبات.

«لا يا سيدي».

«اسـمع، أيهـا الصياد المعتوه. سـأحول حياتـك إلى جحيم ....».

«أجل»، قال الكابتن ولي.

«أنت لا تعرف من أنا».

«كل هذا لا يعنيني»، قال له الكابتن ولي. «وأنت لا تعرف أين أنت».

«ذلك الرجل مهرب مشروبات، أليس كذلك؟».

«وماذا تظن؟».

«قد تكون هناك جائزة من ورائه».

«أشك في ذلك».

«إنه منتهك للقانون».

«بـل لديه عائلة، وعليه أن يأكل ويطعمها. أما أنت، فقل لي بحق السماء ممن تأكل؟ أليس من موظفي الحكومة هنا في الجزيرة الغربية الذين يعملون مقابل ستة دولارات ونصف الدولار أسبوعيا؟».

«إنه جريح. وهذا معناه أنه كان في ورطة».

«ما لم يطلق النار على نفسه للتسلية».

«يمكنك أن توفر تلك السخرية لنفسك. ستمضي بنا إلى ذلك القارب حيث سنحتجزه مع صاحبه».

«أين ستحتجزه؟».

«في الجزيرة الغربية».

«هل أنت شرطي؟».

«لقد قلت لك من هو»، قال السكرتير.

«لا بأس»، قال الكابتن ولي، ثم أدار ذراع الدفة بعنف وانعطف بالقارب مقتربا كثيرا من حافة القناة مما جعل الداسر يثير زوبعة من الطين.

ثم أسرع عبر القناة باتجاه القارب الآخر حيث كان يرسو تحت أشجار المانغروف.

«هل لديك سلاح في هذا المركب؟». قال الرجل الملقب بالدكتور للكابتن ولي.

«لا يا سيدي».

وقف الآن الرجلان في ملابسهما الداخلية يراقبان قارب المشروبات.

«أليس هذا أكثر إمتاعا من صيد الأسماك، يا دكتور؟». قال السكرتير.

«بل الصيد مهزلة»، قال الدكتور. «فحتى لو اصطدت سمكة ذات شراع، ماذا يمكنك أن تفعل بها؟ لا تستطيع أن تأكلها. أما هذا الأمر ففيه متعة وإثارة. وأنا سعيد لأنني رأيته بأم عيني. هذا الرجل جريح ولن يتمكن من الهرب. فالبحر هائج مائج. ونحن نعرف قاربه».

«وها أنت تمسك به بمفردك»، قال السكرتير بنبرة طافحة بالإعجاب.

«ومن غير سلاح، أيضا»، قال الدكتور.

«أو هراء شرطة المباحث»، قال السكرتير.

«إن إدغر هوفر يبالغ في الدعاية لنفسه»، قال الدكتور[٣٥]، «أعتقد أننا أعطيناه صلاحيات واسعة». ثم التفت إلى الكابتن ولي قائلا: «توقف هنا».

حرر الكابتن ولي جهاز التعشيق من المحرك وترك القارب يسير على رسله. ثم نادى على القارب الآخر قائلا: «اخفضوا رؤوسكم».

«ماذا تفعل؟». سأله الدكتور غاضبا.

«اخرس أنت»، قال له الكابتن ولي، ثم نادى ثانية على القارب الآخر. «اسمعوا. اذهبوا إلى المدينة ولا تقلقوا. لا تشغلوا أنفسكم بشأن القارب لأنهم سيأخذونه. أفرغوا حمولتكم وامضوا إلى المدينة. لدي شخص هنا، مجرد شخص تافه من واشنطن. ليس رجل مباحث. بل شخص تافه. أحد الذوات. أكثر أهمية من الرئيس، حسب زعمه. يريد أن يعتقلك لأنه يظن أنك مهرب

---

(٣٥) جون إدغر هوفر (١٨٩٥-١٩٧٢): مدير مكتب التحقيقات الفدرالي (١٩٢٤ - ١٩٧٢)، وقد عرف بكفاءته في كشف الجرائم [المترجم].

مشروبات. وقد سجل أرقام القارب. لم أرك من قبل، لذلك لا أعلم من أنت. ولا أستطيع أن أعرف من أنت ....».

افترق القاربان. وظل الكابتن ولي يصيح، «لا أعرف هذا المكان الذي رأيتك فيه. لذلك لا أعرف كيف سأعود إلى هنا».

«طيب»، جاء صوت من قارب المشروب.

«سآخذ هذا الرجل المهم ليصطاد حتى المساء»، صاح الكابتن ولي.

«طيب».

«إنه يحب صيد السمك»، صاح الكابتن بصوت شبه متهدج. «لكن ابن العاهرة يدعي أنك لا تستطيع أن تأكل السمك».

«شكرا يا أخي».

«ذاك الرجل أخوك؟». سأل الدكتور، ووجهه يحمر، لكن فضوله لم يرتو بعد.

«لا يا سيدي»، قال الكابتن ولي. «لكن معظم أصحاب القوارب ينادون بعضهم بعضا بهذا اللقب».

«سنذهب إلى الجزيرة الغربية»، قال الدكتور، لكنه قال ذلك بلا قناعة.

«لا يا سيدي»، قال الكابتن ولي. «لقد استأجرتماني أيها السيدان يوما كاملا. لذلك سأعمل على إعطائكما قيمة ما دفعتما. لقد نعتُّماني بالمعتوه لكنني سألتزم بالإيجار معكما لمدة يوم بأكمله».

«إنه رجل عجوز»، قال الدكتور لسكرتيره. «ما رأيك لو هجمنا عليه؟».

«لا تحاول»، قال الكابتن ولي. «سأضربك على رأسك بهذه».

ثم أراهما أنبوبا حديديا كان يضرب به أسماك القرش.

«لماذا أيها السيدان لا تصطادان السمك وتروحان عن نفسيكما؟ أنتما لم تأتيا إلى هنا للدخول في المتاعب. بل أتيتما للراحة. تقولان إنكما لا تأكلان الأسماك ذات الشراع، لكنكما لن تعثرا عليها في هذه المياه الضحلة. ستكونان محظوظين إن استطعتما أن تصطادا سمكة الأخفس»[٣٦].

«ما رأيك؟». قال الدكتور.

«يجدر بنا أن نتركه وشأنه»، قال السكرتير وهو يرمق الأنبوب الحديدي.

«كما أنكما ارتكبتما خطأ آخر»، واصل الكابتن حديثه. «فالسمك ذو الشراع صالح للأكل مثل ملك السمك. فعندما كان ريوس يشتريه منا ليبيعه في أسواق هافانا، كنا نبيع الرطل بعشرة سنتات كما نبيع الرطل الواحد من ملك السمك».

«أوه، اخرس»، قال الدكتور.

«ظننت أن هذه الأشياء ستهمك، بوصفك رجل دولة. أليس لك ضلع في وضع أسعار الأشياء التي نأكلها أو ما شابهها؟ أليست الحقيقة أنكم تجعلون الأشياء باهظة الثمن؟ أليست الحقيقة أنكم ترفعون من ثمن لقمة العيش وتخفضون من قيمة عرق الجبين؟ انظر إلى أسعار السمك، فهي في هبوط مستمر».

«قلت لك اخرس»، قال الدكتور.

في هذه الأثناء أتم هاري إفراغ حمولته من المشروب.

---

(٣٦) الأخفس: سمك كبير يألف قيعان البحار الدافئة، وله تسميات أخرى مثل القشر أو اللوز [المترجم].

«أعطني سكين السمك»، قال للزنجي.

«لقد ضاعت».

ضغط هاري على أزرار التشغيل الذاتي وشغل المحركات. تناول البلطة ثم قطع حبل المرساة بيده اليسرى. قال في نفسه إن الحبل سيغطس لكنهم سينتشلونه عندما ينتشلون الحمولة. سأتوجه بالقارب إلى خليج الحصن، وإن شاءوا أخذه فسيأخذونه. علي أن أرى طبيبا. لا أريد أن أفقد ذراعي وقاربي معا. الحمولة تساوي قيمة القارب. لم تتكسر كثير من الصناديق. إذا انكسر شيء قليل فاحت منه رائحة هائلة.

دفع جهاز التعشيق إلى الأمام ثم انعطف مبتعدا عن أشجار المانغروف سائرا مع المد. كانت المحركات تعمل بسلاسة. في هذه الأثناء كان مركب الكابتن ولي قد سبقه مسافة ميلين ويتوجه نحو بوكا غراند. قال هاري في نفسه، أعتقد أن المد عال علوا يسمح بالإبحار بين البحيرات. عشق جهاز التعشيق على ميمنة القارب وراحت المحركات تهدر عندما رفع ذراع المخنق. شعر بمقدمة القارب ترتفع بينما راحت أشجار المانغروف الخضراء تبتعد سريعا بينما كان القارب يسحب الماء وراءه فيعري جذورها. أتمنى ألا يأخذوه، قال في نفسه. آمل أن يتمكنوا من مداواة ذراعي. وما الذي أدرانا أنهم سيطلقون النار علينا في ماربيل بعد أن صار لنا ستة أشهر ونحن نروح ونجيء علنا؟ هكذا هم الكوبيون. لم يدفع أحدهم لأحدهم، فراحوا يطلقون النار علينا. هكذا هم الكوبيون دائما.

«قل لي يا وزلي»، قال وهو ينظر داخل قمرة القبطان حيث كان الزنجي يرقد ملتحفا بالبطانية. «كيف تشعر يا بوجي؟»[٣٧].

«يا إلهي، ليس هناك أفظع من هذا الألم»، قال وزلي.

«سيكون الألم أفظع عندما يتحسس الطبيب العتيد مكانها»، رد عليه هاري[٣٨].

«أنت لست بشرا»، قال له الزنجي. «ليست لديك مشاعر البشر».

ذلك العجوز ولي شخص طيب، كان هاري يقول في نفسه. أجل، إن ذلك العجوز ولي شخص طيب. لقد أحسنا صنعا بمجيئنا. كان ذلك خيرا من الانتظار. لو انتظرنا لكان ذلك حماقة. لقد شعرت بالدوخة والغثيان ففقدت صوابي.

صار الآن بإمكانه أن يرى ماثلا أمامه بياض فندق لاكونشا، وأعمدة اللاسلكي، وبيوت المدينة، وعبارات السيارات راسية في حوض ترامبو الذي سينعطف من عنده قاصدا خليج الحصن. ما أدهى ذلك العجوز ولي، قال في نفسه. لقد أذاقهما الأمرين. ترى، من كان هذان المعتوهان؟ اللعنة علي إن لم أكن في أسوأ حال الآن. أشعر بالدوار. لقد أحسنا صنعا حين جئنا. لقد أحسنا صنعا لأننا لم ننتظر.

«مستر هاري»، قال الزنجي. «أنا آسف لأنني عجزت عن مساعدتك في إفراغ الحمولة».

---

(٣٧) بوجي (تلفظ الجيم هنا كالجيم القاهرية): هو لقب تحبب يستخدمه هاري لمناداة زميله الأسود [المترجم].

(٣٨) يبدو أن رصاصة استقرت في جسد وزلي [المترجم].

«لا عليك»، قال هاري. «لا خير في زنجي أصيب بطلق ناري. أما أنت، يا وزلي، فلا بأس بك من زنجي».

رغـم هدير المحـركات وارتطام القارب العنيف بالماء، شـعر بخواء غريب يغني في قلبه. هكذا هو شعوره دائما عند يعود إلى بيته من رحلة. آمـل أن يتمكنوا من إصلاح تلك الذراع، قال في نفسه. إن لي فيها نفعا كثيرا.

الوشاية
(١٩٣٨)

فيما مضى من الزمن كان مقهى تشـيكوته في مدريد شبيها بستورك، من دون موسـيقى أو فتيات المجتمع الراقي، أو مقهى الرجـال في فندق والدورف لو سـمح للفتيات بارتيادها. طبعا، كـن يدخلن، لكن المقهى كان للرجال وهـن بلا منزلة تذكر. كان بيدرو تشـيكوته هو صاحب المقهى وكان ذا شخصية تملأ المكان بحضورها. وكان دائم البهجة والبشاشـة، طافحا بالحيوية. أما هذه الأيام، فالحيوية شـيء نادر، وإن وجدت عند أحدهم فهي لا تدوم. ويجب ألا يخلط بينها وبين الحركات الاستعراضية. أما تشـيكوته فقد ملكها، وما كانت مزيفة ولا مصطنعة. وكان أيضا متواضعا، بسـيطا، ودودا. لقد كان في الحقيقة لطيفا وظريفا، وكفـؤا إلى درجة عجيبة مثل جورج، ذلك النادل في مقهى الرتز في باريـس. وهذه تكاد تكون أفضل مقارنة يمكنك أن تتفوه بها لشخص مجرب. لقد كان مقهى رائعا.

في تلك الأيام كان المتعجرفون من الشبان الأغنياء في مدريد يرتـادون مكانا اسـمه النادي الجديد بينما يأتـي الطيبون إلى مقهى تشـيكوته. لم يعجبنـي كثير ممن جاء إلـى هذا المقهى، كما لم يعجبني كثير ممن يرتادون سـتورك، لكنني لم أذهب إلى مقهى تشـيكوته أبدا إلا وجدته بهيجا. أحد الأسـباب هو أنك لا تتحـدث في السياسـة هناك. هناك مقـاه مخصصة حصرا للسياسـة، لكنك لا تتحدث في السياسـة في مقهى تشـيكوته.

بيد أنك تتحدث كثيرا في أي من الموضوعات الخمسة الأخرى، وفي المساء تتقاطر أجمل فتيات المدينة، ومقهى تشيكوته أفضل مكان يمكن أن تبدأ به سهرتك، وكلنا كانت له أمسيات جميلة بدأها من هناك.

ثم إنها مكان يمكنك أن ترتاده لتستطلع أخبار القادمين إلى المدينة أو المغادرين. وفي الصيف حين تخلو المدينة من الناس يمكنك أن تأتي للجلوس والتمتع بشراب يقدمه إليك ندل رائعون.

كان المقهى بمنزلة ناد إلا أننا لا ندفع رسوم اشتراك، ويمكنك أن تتعرف على فتاة هناك. ومن المؤكد أنه كان أفضل مقهى في إسبانيا، بل إنني أعتقد أنه أفضل مقهى في العالم، وكل من يرتاده يكن له مودة عظيمة.

والمشروبات رائعة أيضا. إذا طلبت كأس شراب فإنها تخلط مع أفضل أنواع الشراب الذي يمكن شراؤه بالمال، وكان لدى تشيكوته مشروب إسكتلندي بالبراميل وهو أفضل بكثير من النوعيات المعروفة، بل إنه من الإجحاف مقارنته بالمشروب الإسكتلندي العادي. على أي حال، عندما بدأت الثورة، كان تشيكوته في سان سباستيان يدير المقهى الصيفي هناك. إنه لا يزال يديره ويقولون إنه أفضل مقهى في إسبانيا فرانكو. تولى الندل مقهى مدريد ولا يزالون يديرونه، لكنه لم يعد فيها شراب جيد الآن.

معظم زبائن تشيكوته القدامى من أنصار فرانكو، لكن بعضهم موالون للحكومة. لأن المقهى مكان بهيج، ولأن المبتهجين

الحقيقيين هم الأشـــجع عادة، والأشجع يقتلون قبل غيرهم، فإن جزءا كبيرا من زبائن تشـــيكوته القدامى من عداد الأموات الآن. لقد انتهى مشـــروب البراميل منذ عدة أشـــهر، وأتينا على آخر الشـــراب الأصفر في مايـــو ١٩٣٨، لم يعد في المـــكان ما يغري بالذهاب إليه، لذلك أعتقد أنه لو تأخر لويس دلغادو في مجيئه إلى مدريد قليلا لبقي بعيدا عن المكان ولما تورط في تلك المشكلة. لكنه عندما جاء إلى مدريد في شـــهر نوفمبر من عام ١٩٣٧ كان لا يزال هناك شـــراب أصفر وماء الكيـنين الهنـدي[٣٩]، وهـــذان لا يستحقان أن يجازف المرء بحياته من أجلهما، لذلك أعتقد أنه أراد أن يتناول مشروبا في ذلك المكان العتيد. ومن يعرفه ويعرف المكان في الماضي من الأيام يســـتطيع أن يفهم هذا تماما. ذبحت بقرة عند السفارة في ذلك اليوم وجاء البواب إلى فندق فلوريدا ليقول لنا إنهم تركوا لنا عشرة أرطال من اللحم الطازج. توجهت على قدمي لجلبها عند الغســـق في ذلك الشـــتاء المدريدي. كان مســـلحان من حرس المغاوير يجلســـان على كرسيين خارج بوابة السفارة، وكان اللحم ينتظر في مسكن البواب.

قال البواب إن قطعة اللحم جيدة لكن البقرة هزيلة. أخرجت له من جيب ســـترتي بـــذورا محمصة من عباد الشـــمس وجوز البلوط، وتمازحنا قليلا بينما كنا نقف خارج مسكنه عند مدخل السفارة المرصوف بالحصى.

رحت أشـــق طريقي عبر المدينة، متأبطا قطعة اللحم الثقيلة.

---

(٣٩) ماء الكينين: شـــراب منكه بقليل من الكينين (مادة قلوية شديدة المرارة) والليمون الحامض [المترجم].

كان هنـــاك قصف في آخر الشـــارع الكبير، فعرجت على مقهى تشـــيكوته إلـــى أن ينجلي القصـــف. كان المقهى يغـــص بالناس والضجيج، فجلســـت إلى طاولة صغيرة في إحدى الزوايا تحت نافذة محشـــوة بأكياس الرمـــل، ثم وضعت اللحـــم على المقعد بجانبـــي وطلبت مشـــروبا من الجن والماء المقوي. لقد اكتشـــفنا في هذا الأســـبوع بالذات أن المقهى مـــا زال فيه ماء مقو. فمنذ بداية الحرب لم يطلب أحد هذا المشـــروب، لذلك ظل سعره كما كان قبل الثورة. لم تكن صحف المســـاء قـــد صدرت بعد، لذلك اشـــتريت ثلاثة منشـــورات حزبية من إحدى العجائز. كان سعر المنشـــور الواحد عشرة ســـنتافو، فقلت لها أن تحتفظ بما تبقى من البيزيتا. فدعت الله أن يبارك لي. لا أظن أنه سيفعل، لكنني قرأت المنشورات الثلاثة وشربت المشروب والماء المقوي.

جـــاء إلى طاولتـــي نادل أعرفـــه منذ زمـــن وأخبرني ببعض الأشياء.

«لا»، قلت له. «لا أصدق ذلك».

«بـــل صدقني»، قال لي بإلحاح، ثم أمال صينيته ورأســـه في الاتجاه نفسه. «لا تنظر الآن. هاهو ذاك».

«ليس هذا من شأني»، قلت له.

«ولا من شأني».

ابتعد عني واشـــتريت من عجوز أخرى صحف المســـاء التي صدرت للتو وقرأتها. لم يكن يســـاورني الشـــك فيما قاله النادل عن الرجل الذي أشـــار إليه. فكلانا يعرفه تمام المعرفة. وكل ما كان يدور في رأسي هو: يا له من مغفل! يا له من مغفل أحمق!

في هذه اللحظة بالذات جاء إلى طاولتي رفيق يوناني. كان قائد سرية في اللواء الخامس عشر، وكانت طائرة قد ألقت عليه قنبلة فدفنته تحت التراب وقتلت أربعة آخرين، فوضع تحت المراقبة الطبية، ثم أرسل إلى بيت للراحة أو ما شابهه.

«كيف حالك، يا جون؟». سألته. «جرب أحد هذين».

«ماذا تسمي هذا المشروب، يا سيد إموندز؟».

«اسمه مشروب مقو».

«لكن من أي المقويات هو؟».

«كينين. جربه».

«اسمع، أنا لا أشرب كثيرا، لكن الكينين مفيد للحمى. سأجرب قليلا منه».

«ماذا قال الطبيب عن حالتك، يا جون؟».

«لا حاجة لرؤية الطبيب. أنا بخير. كل ما هنالك هو أن في رأسي طنينا لا ينقطع».

«عليك أن تراجعه، يا جون».

«لا بأس من ذلك. لكنه لا يفهمني. يقول لي إني لا أملك أوراقا تخولني دخول المصحة».

«سأتصل بهم بهذا الخصوص. فأنا أعرف العاملين هناك»، قلت له. «هل الطبيب ألماني؟».

«نعم»، قال جون. «ألماني. هو ما في كلام إنجليزي كويس»[٤٠].

(٤٠) من المفارقة أن يتحدث جون بلغة إنجليزية مهشمة عن عدم كفاءة الطبيب الألماني في الإنجليزية. لذلك نقلت كلامه المفكك إلى لغة عربية فيها رطانة واضحة [المترجم].

فـــي هذه اللحظة بالذات جاء النادل إلى طاولتنا. كان عجوزا ذا رأس أصلـــع وأخلاق محافظة لم تســـتطع الحرب أن تغيرها. كان شديد القلق.

«لـــدي ابن فـــي الجبهة. ومـــات آخر. والآن انظـــر إلى هذا الوضع».

«إنها مشكلتك».

«وماذا عنك أنت؟ لقد قلت لك».

«أنا جئت إلى هنا لأتناول المشروب قبل أن آكل».

«وأنا أعمل هنا. فقل لي ما العمل؟».

«إنها مشكلتك»، قلت له. «فأنا لست رجل سياسة».

«هل تفهم الإسبانية، يا جون؟». سألت الرفيق اليوناني.

«لا أفهم منها ســـوى بضـــع كلمات، لكنني أتحـــدث اليونانية والإنجليزيـــة والعربية. في يوم من الأيام كنـــت أتحدث العربية بشكل جيد. هل تعرف كيف دفنت؟».

«لا. فكل ما أعرف هو أنك دفنت».

كان له وجه أسمر وسيم ويدان شديدتا السمرة لا تكفان عن الحركـــة حينما يتكلم. كان ابن إحدى الجزر [اليونانية] وكان إذا تكلم، تكلم بانفعال شديد.

«إذن، أخبرك الآن. أنا، كما تعلم، محارب متمرس. وقد كنت من قبل نقيبا في الجيش اليوناني أيضا. أنا محارب جيد. وعندما رأيت الطائـــرة مقبلة ونحن في خنادقنا عنـــد فوينتس دل إبرو راقبتها من كثب. رأيت الطائرة متجهة نحونا، ثم تميل، وتنعطف هكذا» (ثم يستدير ويميل يديه الاثنتين) «ثم تنقض نحونا، فقلت

آها، إنها تريد الأركان العامة. لقد جاءت للاستطلاع. وفي الحال جاءت طائرات أخرى.

«وهكــذا، كما قلت، جاءت طائــرات أخرى. فوقفت وراقبت. راقبــت من كثــب. أتطلع إلى فوق ثم أبين للســرية ماذا يجري. كانــت الطائرات تأتي ثلاثــا، ثلاثا. واحدة فــي المقدمة تتلوها اثنتان. وعندما مرت مجموعة من ثلاث طائرات، قلت للســرية، هل ترون؟ لقد مر تشكيل واحد.

«ثــم جــاءت ثلاث أخرى فقلت للســرية، لا بــأس الآن. زال الخطر. لا داعي للقلق الآن. آخر شيء أذكره منذ أسبوعين».

«متى حدث هذا؟».

«منذ شــهر تقريبا. لقد حشــر وجهي داخــل الخوذة عندما دفنتني القنبلة تحت التراب، وكان في الخوذة هواء ظللت أتنفس منه إلى أن أخرجوني، لكنني لا أذكر شــيئا من هذا. كان الهواء الذي كنت أتنفســه قد امتزج مع دخان الانفجار، فمرضت وقتا طويلا. لكنني الآن بخير، لولا ذلك الطنين في رأسي. ماذا يسمى هذا المشروب؟».

«مشروب مقو. ماء إشــويبس الهندي المقوي. كان هذا المقهى في غاية الفخامة قبل الحرب، وكان هذا المشــروب يكلف خمس بيزيتات عندما كانت الســبع بيزيتات تساوي دولارا واحدا. لقد اكتشــفنا لتونا أنه لا يزال لديهم الماء المقوي، وأن ســعره لا يزال كما كان. لم يتبق سوى صندوق واحد».

«لا بأس به من مشــروب. قل لي، كيف كانت هذه المدينة قبل الحرب؟».

«رائعة. تماما كما هي الآن، لكن الطعام كان متوافرا بكثرة».

جاء النادل وانحنى فوق الطاولة وقال، «وإن لم أفعل، أليست هذه مسؤوليتي؟».

«إذا شئت، فاذهب إلى الهاتف واتصل بهذا الرقم. سجله».

سجله، فقلت له، «اطلب پپيه».

«ليس بيني وبينه عداوة شخصية»، قال النادل. «ولكنها القضية. بلا شك، إن مثل هذا الرجل خطر على قضيتنا».

«ألا يعرفه النُّدُل الآخرون؟».

«أظن ذلك، لكن لم يقل أي منهم شيئا. إنه زبون قديم».

«وأنا زبون قديم أيضا».

«لعله الآن صار إلى جانبنا أيضا».

«لا»، قلت له. «أنا أعلم أنه ليس كذلك».

«لكنني لم أش بأحد من قبل».

«إنها مشكلتك. لعل أحد الندل الآخرين يشي به».

«لا. إذ لا يعرفه إلا الندل القدامى والندل القدامى لا يشون بأحد».

«هات واحدة من المشروب الأصفر وشيئا من المر»، قلت له[٤١]، «فلا يزال هناك ماء مقو في الزجاجة».

«عم يتحدث؟». سألني جون. «فأنا لا أفهمه إلا قليلا».

«يوجد هنا رجل نعرفه من قديم الأيام. كان صياد حمام رائعا، وكنت أراه في مباريات الصيد. أما الآن فهو فاشي، ومجيئه الآن،

---

(٤١) المقصود بالمر هو ماء الكينين؛ إذ إنه شديد المرارة [المترجم].

مهما كانــت دوافعه، في غاية الحماقة. لكنه كان دائما في غاية الشجاعة والحماقة أيضا».

«أرني إياه».

«هناك على تلك الطاولة مع الطيارين».

«أي واحد منهم؟».

«ذو الوجه الأســمر جدا، الذي يضع قبعته على إحدى عينيه، ويضحك الآن».

«هذا فاشي؟».

«نعم».

«هذه أول مرة أرى فيها فاشيا من كثب منذ فوينتس دل إيبرو. هل يوجد كثير من الفاشيين هنا؟».

«تجد عددا منهم بين الحين والآخر».

«إنه يشــرب ذات الشــراب الذي تشــربه»، قــال جون. «هل تظن أن الناس يعتقدون أننا فاشــيون بسبب ما نشرب؟ قل لي: هل ســبق لك أن زرت أمريكا الجنوبية، أو الســاحل الغربي، أو ماغلانيس؟»[٤٢].

«لا».

«لا بأس بها من بلاد، لولا الأخطبوط».

«لولا ماذا؟».

«الأخطبــوط». لفظ الكلمة واضعا التشــديد على الباء. «ذو الأرجل الثمانية».

«أوه، الأخطبوط»، قلت له.

---

(٤٢) تقع ماغلانيس في مقاطعة تشيلينا في جمهورية تشيلي [المترجم].

«نعـــم، الأخطبــوط»، قــال جون. «كمــا تعلم، فأنــا غواص أيضا. وتلــك البلاد لا بأس بها للعمل وجنــي المال الكثير، لولا الأخطبوط».

«هل كن يضايقنك؟».

«لا أعرف. لكنني رأيت الأخطبوط عندما نزلت أول مرة إلى ميناء ماغلانيس. ثم وقف على أقدامه هكذا». راح جون يشــير بأصابعه على الطاولة، ويرفع يديه، وفي الوقت ذاته يرفع كتفيه وحاجبيه. «كان يقف أطول مني ويتفرس في عيني. جذبت الحبل بقوة أن انتشلوني».

«كم كان حجمه، يا جون؟».

«لا أســتطيع أن أصف حجمه بدقة، لأن زجاج الخوذة يشــوه الصورة قليلا. لكن محيط رأســه كان أكثر مــن أربع أقدام في كل الأحــوال. وكان يقــف كأنما علــى رؤوس أقدامه وينظر إلي هكــذا». (ثم راح يبحلق في). «وعندمــا خرجت من الماء، نزعوا عنــي الخوذة، وقلت لهم لن أنزل في الماء بعد الآن. فقال لي رب العمل: ماذا دهاك يا جــون؟ إن خوف الأخطبوط منك أكثر من خوفك من الأخطبوط، فقلت له، هذا مستحيل. ما قولك في أن نشرب مزيدا من هذا المشروب الفاشي؟».

«لا بأس»، قلت له.

كنت أراقــب الرجل الجالس إلى الطاولة. كان اســمه لويس دلغادو وكانــت آخر مرة رأيته فيها في العام ١٩٣٣ وهو يصطاد الحمائم في ســانت سباســتيان، فتذكرت وقوفي معه على قمة المنصــة نراقب انتهاء المباراة الكبــرى. تراهنّا أنا وهو على مبلغ

لا طاقـة لي به، ولا طاقة له به إن خسـره في تلك السـنة. ثم تذكـرت ابتهاجه عندما دفع لي المبلـغ ونحن ننزل الدرج، وكيف جعل الأمر يبدو كأنه امتيـاز عظيم له. ثم تذكرت أيضا وقوفنا أمام المقهى ونحن نتناول كأسا من المارتيني، وكيف غمرني شعور رائع من الارتياح إذ أخرجت نفسي سالما من مأزق الرهان، وكنت أتسـاءل عن أثر الخسـارة الذي تركه الرهان في نفسـه. كانت رماياتي سـيئة طوال الأسـبوع، أما رماياته فكانـت رائعة وكان يصيـب طيورا تكاد إصابتها تكون مسـتحيلة، وراح يراهن على نفسه بهمة واعتداد.

«ما رأيك في ترتيب مباراة حامية؟». سألني.

«أتريد ذلك حقا؟».

«نعم، إن أحببت ذلك».

«كم المبلغ؟».

أخرج محفظة نقـود، ثم تفحص ما فيها وضحك قائلا: «أنا أقول المبلغ الذي تريده. لكن ما رأيك لو اتفقنا على ثمانية آلاف بيزيتا؟ فهذا هو المبلغ الموجود».

كان ذلك يساوي ألف دولار تقريبا في تلك الأيام.

«لا بأس»، قلت لـه، وقد غادرتني تلـك الطمأنينة الداخلية الرائعة ليحل محلهـا ذلك الخواء الذي يلازم لاعب الورق. «من سيتبارى مع من؟».

«أنا وأنت».

خض كل منا قطعة الخمس بيزيتات الثقيلة في يده المضمومة، ثم وضع القطعة على ظهر يده اليسرى، ويده اليمنى تغطيها.

«ماذا لديك؟». سألني.

رفعت يدي عن القطعة الفضية فإذا بوجه ألفونسو الثامن الطفولي يطل علي.

«رؤوس»، قلت له.

«خذ هذه الأشياء اللعينة، وكن كريما واسقني كأسا من المشروب على حسابك». ثم أفرغ المحفظة من النقود. «قل لي، ألا تريد شراء بندقية بيردي جيدة؟».

«لا»، قلت له. «لكن انظر، يا لويس، إن كنت في حاجة إلى بعض المال ......».

كانت أوراق النقود من فئة الألف بيزيتا في يدي تمتد نحوه، خضراء، مطوية، لامعة، ثقيلة.

«لا تكن سخيفا، يا إنريك»، قال لي. «لقد كنا نلعب الورق، أليس كذلك؟».

«نعم، ولكننا يعرف بعضنا بعضا جيدا».

«ليس إلى الحد الذي تظن».

«حسن»، قلت له. «أنت أدرى مني بهذا. لكن ماذا تود أن تشرب؟».

«ما رأيك في المشروب وشراب مقو؟ إنه مشروب رائع، كما تعلم».

وهكذا تناولنا المشروب مع الشراب المقوي، وشعرت بالأسى لأنني هزمته، وبالفرحة الكبرى لأنني ربحت الرهان، ولم أذق في حياتي مشروبا ألذ من ذلك المشروب والمقوي. إذ لا فائدة من الكذب في هذه الأمور أو التظاهر بأنك لا تتمتع بالربح. لكن

هذا الولد لويس دلغادو كان لاعب ورق في غاية الروعة.

«لـــو أن النـــاس لعبوا بمـــا يطيقون احتماله، فـــلا أظن أنهم سيجدون متعة في ذلك. ما رأيك، يا إنريك؟».

«لا أعرف. فأنا لم تكن لي طاقة به قط».

«لا تكن سخيفا. لديك مال كثير».

«لا، ليس لدي ما تقول. حقا»، قلت له.

«بل كل إنســـان عنده مـــال. وكل ما هنالك هـــو أن تبيع هذا الشيء أو ذاك لتحصل عليه».

«ليس لدي الكثير، حقا».

«أوه، لا تكن ســـخيفا. فأنا لم أعرف فـــي حياتي أمريكيا إلا وكان غنيا».

ربمـــا لم يجانبه الصواب. فأنى له أن يلتقي بهؤلاء في مقهى الريتز أو تشيكوته في تلك الأيام؟ أما وقد عاد الآن إلى تشيكوته، فإن الأمريكيين الذين ســـيقابلهم الآن ليســـوا من الصنف الذي اعتاد رؤيته، فيما عداي، وأنا كنت غلطة. كان بودي أن أعطي ما في وسعي لكي لا أراه هناك.

ومـــع ذلك فإذا رغب في ارتكاب حماقـــة كهذه التي ارتكبها، فهذا شـــأنه. لكننـــي عندما نظرت إلى الطاولـــة وتذكرت الأيام الخوالي، أســـفت لحاله وندمت على إعطائي النادل رقم مكتب مكافحة التجســـس في مقر الأمن. كان بإمكانه أن يحصل على رقم الأمن من عامل المقسم. لكنني وفرت له أقصر طريق لاعتقال دلغادو، وذلك في ســـورة من النزاهة والاستقامة والفرعنة وتلك الرغبة القذرة في رؤية كيف يتصرف الناس تحت وطأة الصراع

العاطفي الذي يجعل الكتاب رفاقا جذابين.

جاءني النادل وقال، «ما رأيك؟».

«مــا كنت لأشــي به شــخصيا»، قلــت له، محــاولا أن أكفر لنفســي عن خطأ إعطائه الرقم. «لكننــي أجنبي، وهذه حربكم ومشكلتكم».

«ولكنك معنا».

«دائمــا وأبــدا. لكــن هــذا لا يعنــي الوشــاية بالأصدقاء القدامى».

«وماذا عني أنا؟».

«الأمر مختلف بالنسبة إليك».

كنــت أعلم أن هذا صحيح، ولم يكن لدي ما أقوله ســوى ما قلت، وكم كنت أتمنى ألا أسمع بهذا الأمر إطلاقا.

لقد ارتوى فضولي بمعرفة كيف يتصرف الناس في مثل هذه الأحوال، ارتوى منذ زمن بعيد وبطريقة يندى لها الجبين. التفتُّ إلى جون، فلم أنظر إلى الطاولة التي يجلس إليها لويس دلغادو. كنت أعلم أنه منذ ســنة وهو يرافق الطيارين الفاشيين، وها هو الآن يرتــدي زي الموالين ويتحدث مع ثلاثة من الطيارين الموالين الشباب ممن تخرجوا في آخر دفعة تدربت في فرنسا[٤٣].

ما كان في وســع أي من هؤلاء الشــبان الأغــرار أن يعرفوه، فكنت أتساءل إن كان قد جاء لعله يسرق طائرة أو شيئا من هذا

---

(٤٣) دارت الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦-١٩٣٩) التي أطاحت، تحت قيادة الجنرال فرانكو، بالجمهورية الإسبانية الثانية بين فريقين هما القوميون (وقد ضم فريقهم الإقطاعيين، والكنيسة الكاثوليكيــة الرومانيــة، وقادة الجيش، وحزب الكتائب الفاشــي) والموالــون (وقد ضم فريقهم الليبراليين، والفوضويين، والاشتراكيين، والشيوعيين) [المترجم].

القبيـــل. ومهما كان دافعه إلى المجـــيء فقد ارتكب حماقة كبرى في مجيئه الآن إلى تشيكوته.

«كيف تشعر الآن، يا جون؟». سألته.

«بخير»، قال جون. «إنه شـــراب لا بأس به. ربما يجعلني غير صاح قليلا. إنه يصلح لعلاج الطنين الذي في رأسي».

جاء النادل، وعلامات الإثارة بادية عليه.

«لقد وشيت به»، قال النادل.

«إذن، لم تعد لديك مشكلة»، قلت له.

«نعم، لم تعد»، قال باعتداد. «لقد وشيت به، وهم في طريقهم الآن لاعتقاله».

«دعنـــا نذهـــب»، قلت لجون. «لن نســـلم من بعـــض المتاعب هنا».

«إذن، فالأفضـــل أن نذهب»، قال جون. «دائما تحصل متاعب كثيـــرة حتـــى عندما تبذل أقصى مـــا في وســـعك لتفاديها. كم الحساب؟».

«ألن تبقوا؟». سألنا النادل.

«لا».

«لكنك أعطيتني رقم الهاتف».

«أعلم ذلك. لو مكثت في هذه المدينة طويلا لعرفت كثيرا من أرقام الهواتف».

«لكن ذلك كان واجبي».

«أجل. ولم لا؟ فالواجب دافع قوي جدا».

«والآن؟».

«حســن، ألم تشــعر بالرضا عما فعلت الآن؟ ربما ستشــعر بالرضا عما فعلت مرة أخرى. وربما ستحب ما فعلت».

«لقد نسيت الصرة»، قال لي النادل. ثم ناولني اللحم الملفوف بمغلفين وصلت بهما نســخ من مجلة «سپير» لتتكدس بين أكوام المجلات في أحد مكاتب السفارة.

«أنا متفهم للأمر»، قلت له. «أقول لك الحق».

«لقد كان زبونا قديما، وزبونا جيدا. ثم إنني لم أش بإنســان قط. لم أش به من أجل المتعة».

«ولا أريــد أنا أن أتحدث بما يوحي بالتشــكيك أو التوحش. قل له إنني أنا الذي وشــيت به. إنه يكرهني الآن بسبب خلافات سياسية. وسوف يشعر بالحزن إن علم أنك وشيت به».

«لا. فكل إنسان يتحمل مسؤولية أفعاله. لكنك متفهم؟».

«نعــم»، قلــت له. ثــم كذبت، قائــلا، «إنني أتفهــم ما فعلت وأستحسنه». غالبا ما يتعين عليك أن تكذب في ظروف الحرب، لكن إن اضطررت إلى ذلك فعليك أن تكذب بسرعة وإتقان.

صافحته وخرجــت مع جون. التفت إلى الــوراء، وأنا خارج، لأنظر إلــى الطاولة التي كان يجلس إليهــا لويس دلغادو. كانت أمامــه كأس أخرى من الجن والمقــوي، وكان كل من يجلس إلى طاولته يضحك بســبب شــيء قاله. كان ذا وجه أسمر بشوش، وعيني صياد، وكنت أتساءل عن الصفة التي انتحلها لنفسه.

لقد ارتكب حماقة بمجيئه إلى تشيكوته. لكن مثل هذا الفعل بالذات ســيكون مدعاة للتفاخر بين أهله وأصحابه عندما يعود إليهم. وبينما كنا نخرج من الباب وننعطف نحو الشــارع، توقفت

سيارة أمن كبيرة أمام تشيكوته وخرج منها ثمانية رجال. أخذ ستة مواقعهم عند الباب، وهم يحملون بنادق نصف آلية، بينما دخل اثنان وهما بالزي المدني. سألنا أحد الرجال عن هويتنا، فقلت له «أجانب» فسمح لنا بمتابعة مسيرنا من غير اعتراض أو ممانعة[٤٤].

وبينما نحن نصعد الشارع الكبير في الظلام، رأينا الكثير من الزجاج المحطم حديثا على الرصيف والأنقاض تحت أقدامنا بسبب القصف. كان الجو لا يزال يعج بالدخان ورائحة المتفجرات والغرانيت المدمر.

«أين ستأكل؟». سألني جون.

«عندي لحم يكفي للجميع، ويمكننا أن نطبخه في الغرفة».

«أنا سأطبخه»، قال جون. «أنا طباخ جيد. أذكر إحدى المرات عندما كنت أطبخ على متن سفينة ......».

«إنه في غاية المتانة»، قلت له. «إنه لحم طازج».

«لا، لا»، قال جون. «فالحرب لا تعرف لحما متينا».

كان الناس يحثون الخطى في الظلام، عائدين إلى بيوتهم من دور السينما حيث كانوا يلتجئون إلى أن ينتهي القصف.

«ماذا دهى ذلك الفاشي ليأتي إلى ذلك المقهى حيث الكل يعرفه؟».

«لقد كان مجيئه ضربا من الجنون».

«وهذه هي مشكلة الحرب»، قال جون، «إذ يكثر فيها المجانين».

---

(٤٤) شكل المتطوعون الأجانب، ومنهم بعض المغاربة، «الألوية الدولية» للقتال إلى جانب الموالين [المترجم].

«أعتقد أنك أصبت في هذا، يا جون»، قلت له.

عدنا إلى الفندق ودخلنا من الباب عبر أكياس الرمال المكدسة لحماية مكتب البواب، وطلبت منه المفتاح، لكنه قال إن اثنين من الرفاق صعدا إلى الغرفة ليستحما، فأعطاهما المفتاح.

«اصعد، يا جون، فأنا أريد أن أتصل بالهاتف».

توجهت إلى حجيرة الهاتف واتصلت بذات الرقم الذي لا أعطيته للنادل.

«ألو؟ پپيه؟».

جاءني صوت رفيع عبر الهاتف، «كيف حالك، يا إنريك؟».

«قل لي يا پپيه، هل اعتقلتم شخصا اسمه لويس دلغادو في مقهى تشيكوته؟».

«نعم، يا رجل، نعم. كالعادة. بلا متاعب».

«هل قلتم له أي شيء عن النادل؟».

«لا، يا رجل، لا».

«إذن، لا تقولوا له. قولوا له إنني أنا الذي وشى به. لا تذكروا له النادل».

«ولماذا نقول له ذلك؟ إنه جاسوس، وسيعدم. لا خيار لنا في الأمر».

«أعرف ذلك»، قلت له. «لكن هناك فرقا».

«كما تريد، يا رجل. كما تريد. متى سأراك؟».

«على الغداء غدا. لدينا بعض اللحم».

«والمشروب قبله. حسن، يا رجل، حسن».

«إلى اللقاء، يا پپيه، وشكرا لك».

«إلى اللقاء، إنريك. لا داعي للشكر. إلى اللقاء».

كان صوتا غريبا ومرعبا جدا، ولم آلف سماعه قط، لكنني شعرت بتحسن كبير وأنا أصعد الدرج.

كان لمقهى تشيكوته علينا، نحن زبائنه القدامى، شيء من السحر يجذبنا إليه. وكنت أعلم أن هذا هو ما شد لويس دلغادو للعودة إليه. كان بإمكانه أن يقضي عمله في مكان آخر. لكن إن جاء إلى مدريد، فعليه أن يذهب إلى هناك. كان واحدا من الزبائن الجيدين، كما قال النادل، وكنا أصدقاء. ومما لا شك فيه أن أي بادرة من الكياسة تأتي بها في هذه الدنيا، مهما صغرت، فهي جديرة بأن تفعل. لهذا سررت لأنني اتصلت بصديقي پيپه في مقر الأمن، لأن لويس دلغادو كان أحد زبائن مقهى تشيكوته القدامى ولم أكن أرغب في أن يصاب بالصدمة أو المرارة إزاء النُدل قبل أن يموت.

الفراشة والدبابة
[١٩٣٨]

كنت عائدا هذا المساء إلى فندق فلوريدا مشيا على قدمي من مكتب الرقابة وكانت السماء تمطر. وفي منتصف الطريق سئمت من المطر، فعرجت على مقهى تشيكوته لأتناول مشروبا على عجل. كان هذا ثاني شتاء من القصف في حصار مدريد، وكان النقص في كل شيء حتى في التبغ وأمزجة الناس، وكان الجوع يصاحبك دائما، فتتضايق فجأة وبلا مبرر من أشياء لا حول لك ولا قوة إزاءها كالطقس مثلا. كان الأجدر بي أن أتابع مسيري إلى الفندق. لم يكن يبعد سوى خمس حارات، لكنني عندما رأيت باب المقهى خطر لي أن أتناول مشروبا على عجل، وبعدها أقطع الحارات الست في الشارع الكبير عبر الوحل وأنقاض الشوارع التي دمرها القصف.

كان المقهى مكتظا، وكانت جميع الطاولات تزدحم بالزبائن. كانت ملأى بالدخان والغناء ورجال في الزي العسكري ورائحة المعاطف الجلدية المبللة، وكانت الكؤوس تدار من فوق حشود بلغ عمقها حول المشرب ثلاثة صفوف.

جلب لي نادل أعرفه كرسيا من طاولة أخرى، فجلست مع ألماني نحيف، أبيض الوجه، ذي حنجرة ناتئة. كنت أعرف هذا الألماني، إذ كان يعمل في مكتب الرقابة، وكان يجلس معنا اثنان آخران لا أعرفهما. كانت الطاولة في منتصف الصالة وإلى يمين المدخل قليلا.

كان الغناء يجعل من المستحيل عليك أن تسمع نفسك عندما تتحدث، فطلبت كأسا من المشروب، علها تقيني من شر البرد. كان المكان مزدحما، وكان الجميع مبتهجين، وربما يكون سبب ابتهاجهم المفرط عائدا إلى تناول معظمهم للمشروب الكاتالوني المصنَّع حديثا. صفعني على ظهري شخصان لا أعرفهما، وعندما كلمتني الفتاة الجالسة معنا لم أسمعها، فقلت لها، «بالتأكيد».

أما وقد توقفت عن النظر حولي وركزت أنظاري على طاولتنا، تبين لي الآن مدى بشاعة الفتاة الجالسة أمامي. يا إلهي، ما أبشعها! كما تبين لي أيضا، عندما أتى النادل، أن ما طلبته هو أن تتناول مشروبا على حسابي. لم تبد على رفيقها علامة من علامات الجرأة، لكن جرأتها هي كانت كافية لكليهما. كان لها وجه صارم، كلاسيكي تقريبا، وكأنه وجه مروضة للأسود، أما الصبي الذي معها فبدا جديرا بلبس ربطة عنق مدرسية عتيقة. لكنه لم يكن كذلك. بل كان يرتدي معطفا جلديا مثلنا تماما، وإن لم يكن مبللا لأنهما جاءا إلى المقهى قبل هطول المطر. وهي أيضا كانت ترتدي معطفا جلديا، وكان ملائما لنوع وجهها.

في هذه الأثناء كنت أتمنى لو أنني لم أعرج على مقهى تشيكوته، بل لو تابعت طريقي إلى الفندق حيث بمقدوري أن أبدل ملابسي، وأن أنشف نفسي، وأن أستمتع بمشروبي وأنا في السرير وقدماي مرفوعتان، فقد سئمت من النظر إلى هذين الشابين. إن الحياة قصيرة جدا، بعكس النساء القبيحات تماما، وبرغم كوني كاتبا يفترض أن يكون لديه فضول عارم للتعرف على كل أنواع البشر، قررت وأنا جالس أنني لا أريد أن أعرف

حقا إن كان هذان الشـــابان متزوجين، أو ما الذي رآه كل منهما في الآخـــر، أو ما خطهما السياســـي، أو إن كان لدى أي منهما قليـــل من المال، أو أن أعرف أي شـــيء عنهما. قلت في نفســـي لا بد أنهما يعملان فـــي الإذاعة. ففي كل مرة ترى فيها مدنيين شـــاذي المنظر في مدريد، تجد أنهما يعملان في الإذاعة. ولكي أقول شـــيئا، رفعت صوتي فوق صوت الضجيج وسألتهما، «هل أنتما في الإذاعة؟».

«نحـــن كذلـــك»، قالت الفتـــاة. إذن، لقد حـــزرت. إنهما في الإذاعة.

«كيف حالك، يا رفيق؟». قلت للألماني.

«بخير. وأنت؟».

«مبلل»، قلت له، فضحك ورأسه مائل على أحد الجانبين.

«أليـــس عندك ســـجائر؟». ســـألني، فناولته علبتـــي ما قبل الأخيرة، فأخذ سيجارتين. أخذت الفتاة الجريئة سيجارتين، أما الشـــاب ذو الوجه الذي يليق بربطة عنق مدرســـية عتيقة فأخذ واحدة.

«خذ واحدة أخرى»، صحت به.

«لا، شكرا»، قال لي، فأخذها الألماني بدلا منه.

«هل عندك مانع؟». سألني مبتسما.

«طبعا، لا»، قلت له. كان فعلا لدي مانع، وكان يعلم ذلك. لكن رغبته في الحصول على الســـجائر كانت عارمة إلى درجة جعلته لا يكترث بممانعتي. هدأ الغناء مؤقتا، أو ربما كان هناك فاصل كما في العواصف، فتمكنوا جميعا من سماع ما نقول.

«هل صار لك مدة طويلة هنا؟». سألتني الفتاة الجريئة.

«تقريبا»، قلت لها.

«يجب أن نتحدث بجدية»، قال لي الألماني. «أريد أن أتحدث معك بجدية، فمتى يمكننا ذلك؟».

«سأتصل بك»، قلت له. كان هذا الألماني غريب الأطوار فعلا، ولم يكن أي من الألمان الجيدين يحبونه. كان يتوهم أنه يستطيع العزف على البيانو، لكن لو حبسته عن تلك الآلات فلا مشكلة لديه، ما لم يتوافر لديه المشروب أو فرصة للثرثرة، وحتى الآن لم يتمكن أحد من منعه من هاتين.

كانت الثرثرة أفضل صنعة يتقنها، فهو دائما يعرف أخبارا لا تصدق إطلاقا عن أي شخص يخطر في بالك في مدريد، أو بلنسيا، أو برشلونة، أو في أي مركز سياسي آخر.

في تلك اللحظة بالذات استؤنف الغناء مجددا، فلم تعد الثرثرة بصوت عال مجدية، وهكذا بدا قضاء ذلك العصر في المقهى مملا، فقررت أن أغادر حالما أشتري جرعة من الشراب لنفسي.

في تلك اللحظة بالذات حدث ما حدث. قام مدني يرتدي بذلة بنية، وقميصا أبيض، وربطة عنق سوداء، له شعر ينكفئ باستقامة نحو الخلف من جبين عال نوعا ما، وكان يطوف من قبل بين الطاولات بحركات تهريجية، قام هذا المدني بزرق أحد النُدل بمسدس مائي. ضحك الجميع ما عدا النادل الذي كان يحمل آنية ممتلئة بالمشروبات في تلك اللحظة.

«نو آي دريتشـو»، قال له النادل ساخطا. وهذا معناه، «ليس لك الحق في أن تفعل هذا»، وهذه أبسط عبارة احتجاج وأقواها في إسبانيا.

انتشى صاحب المسدس بنجاحه، غير آبه بكون الحرب مستمرة للسنة الثانية، أو بكونه في مدينة محاصرة حيث أعصاب الجميع مشدودة، أو بكونه واحدا من بين أربعة فقط في ذلك المكان يرتدون ملابس مدنية، فقام بزرق نادل آخر بمسدسه.

تطلعت حولي أبحث عن مكان أنبطح فيه. ثار سخط هذا النادل أيضا، فزرقه صاحب المسدس مرتين أخريين بلا مبالاة. ومع ذلك وجد بعض الناس، بمن فيهم الفتاة الجريئة، أن الأمر مضحك. أما النادل فقد تسمر مكانه، وهو يهز برأسه، وكانت شفتاه ترتجفان. كان رجلا عجوزا ومنذ أن عرفت مقهى تشيكوته منذ عشر سنوات وهو يعمل فيه.

«نو آي دريتشو»، قال له النادل بوقار.

لكن الناس ضحكوا، فقام صاحب المسدس، الذي لم ينتبه إلى خفوت صوت الغناء، بزرق نادل آخر على رقبته من الخلف. التفت النادل، وهو يحمل آنيته، وقال، «نو آي دريتشو».

لم يعد هذا القول مجرد احتجاج هذه المرة، بل صار اتهاما. رأيت ثلاثة رجال بزي عسكري ينهضون من إحدى الطاولات ويتجهون نحو صاحب المسدس، وفي لمح البصر خرج الأربعة من الباب الدوار، وسمعنا أحدهم يصفع صاحب المسدس على فمه. حمل شخص آخر المسدس ورماه من الباب خلفه.

عاد الرجال الثلاثة صارمين، متجهمين، راضين بما فعلوا.

ثم استدار الباب ودخل صاحب المسدس. كان شعره منكفئا نحو عينيه، والدم يسـيل على وجهه، وربطة عنقه مشدودة إلى أحد الجانبين، وقميصه ممزقا. كان يمسـك بالمسـدس، وبينما كان يندفـع في الصالة، سـاخط العينين، أبيض الوجه، راح يسـدد مسدسه من غير هدف نحو الحشد، متحديا.

رأيت أحد الرجال الثلاثة يتجه نحوه ورأيت وجه هذا الرجل. انضـم إليه رجـال آخـرون الآن، فحاصروا صاحب المسـدس بين طاولتين على يسـار المدخل، وراح صاحب المسـدس يصارع باهتياج، وعندما أطلقت النار أمسكت بالفتاة الجريئة من ذراعها وركضت نحو باب المطبخ.

كان بـاب المطبـخ مغلقـا، وعندما حاولت فتحـه بكتفي، لم يتزحزح.

«انزلي هنا خلف هذه الزاوية»، قلت لها، فركعت.

«انبطحي»، قلت لها ثم دفعتها نحو الأرض، فراحت تتميز من الغيظ.

سحب كل رجل في الصالة مسدسه، ما عدا الألماني، الذي اختبـأ وراء إحدى الطاولات، والصبي الذي يبدو كطالب في مدرسـة حكومية، حيث وقف يتطـاول مع الجدار في إحدى الزوايـا. كانـت ثلاث فتيات ذوات شـقرة زائفـة، حيث بدا شـعرهن أسود عند الجذور، يقفن على رؤوس أصابعهن على مقعد بحذاء الجدار ليشـاهدن مـا يجـري، وكـن يصـرخن بلا انقطاع.

«لست خائفة»، قالت الجريئة. «هذا شيء سخيف».

«لا داعي لأن تقتلي بسبب شجار في مقهى»، قلت لها. «يمكن أن تجري الأمور على نحو سيئ إن كان لصاحب المسدس المائي أي أنصار هنا».

لكن اتضح أنه بلا أنصار، حيث أعاد الجميع أسلحتهم إلى أماكنها، وأنزل أحدهم الشقراوات الصارخات عن المقعد، وعاد الجميع إلى أماكنهم، تاركين صاحب المسدس يستلقي على ظهره على الأرض.

«لن يبرح أحد مكانه حتى تأتي الشرطة»، صاح أحدهم من عند الباب.

كان شرطيان مسلحان من دورية كانت تجوب الشوارع يقفان عند الباب، وعند هذا الإعلان رأيت ستة رجال يصطفون، كما لو يصطف فريق لكرة القدم، ثم يخرجون من الباب. ثلاثة من هؤلاء كانوا الرجال الذين رموا صاحب المسدس خارج الباب في البداية. وواحد كان الذي أطلق عليه النار. تسللوا من بين الشرطيين المسلحين، فتعثرت جهودهما وأفشل هدفهما. وبعد أن خرجوا، وضع أحد الشرطيين بندقيته بشكل متعامد على الباب وقال، «لا يمكن لأحد أن يغادر. لا أحد على الإطلاق».

«لماذا خرج أولئك الرجال إذن؟ لماذا تحتجزنا عندما يغادر غيرنا؟».

«إنهم ميكانيكيون يعملون في المطارات وعليهم أن يعودوا إلى عملهم»، قال شخص ما.

«لكنه من السخف أن تحتجزنا عندما يغادر غيرنا».

«على الجميع أن ينتظر حضور الأمن. يجب أن تجري الأمور بشكل قانوني ومنظم».

«لكن ألا تعتقد أنه من السخف أن تحتجز الناس عندما يغادر غيرهم؟».

«لا أحد يستطيع أن يغادر، وعلى الجميع أن ينتظر».

«هذه مهزلة»، قلت للفتاة الجريئة.

«لا، ليست كذلك. إنها فظاعة».

وقفنا على أقدامنا الآن، فراحت تحدق بسخط باتجاه صاحب المسدس المسجى على ظهره. كانت ذراعاه مبسوطتين إلى أقصاهما، وكانت إحدى ساقيه مضمومة نحو الأعلى.

«أنا ذاهبة لمساعدة ذلك المسكين الجريح. لماذا لم يساعده أحد أو يفعل له شيئا؟».

«أقترح عليك أن تتركيه وشأنه، وعليك ألا تتورطي في هذا الأمر».

«ولكن الأمر في غاية الوحشية. أنا ممرضة وسأعطيه الإسعافات الأولية».

«لا تفعلي، ولا تقتربي منه»، قلت لها.

«ولم لا»، سألتني بنبرة حانقة تقترب من الهستيريا.

«لأنه ميت»، قلت لها.

عندما وصلت الشرطة، احتجزوا الجميع لمدة ثلاث ساعات. بدأوا أولا بشم جميع المسدسات، لعلهم يتمكنون من اكتشاف أي مسدس أطلقت منه النار أخيرا. وبعد أن شموا نحو أربعين مسدسا، سئموا من هذا الأمر، إذ لا يمكن للمرء أن يشم سوى

رائحـــة المعاطف الجلدية المبللـــة. بعد ذلك جلســوا إلى طاولة نصبوها وراء الفقيد الراحل المســتلقي على الأرض كأنه صورة كاريكاتيرية من الشــمع الشــاحب، ويداه ووجهه كأنها قدت من شمع. جلسوا هناك ليدققوا هويات الناس.

كان ظاهرا للعيان من خلال قميصه الممزق أن صاحب المسدس لم يكن يرتدي قميصا داخليا، كما أن نعلي حذائه كانا مهترئين. بدا صغيــرا جدا، وكان منظره وهو مســجى على الأرض مثيرا للشــفقة. كان علينــا أن نخطو من فوقه كي نصــل إلى الطاولة التي كان يجلس وراءها شرطيان بملابس مدنية ليدققا هوياتنا. أضاع الزوج أوراقه مرات عدة من شــدة التوتر ثم وجدها. كان يحمــل جواز عبــور في مكان ما، لكنه أضاعــه في أحد جيوبه، فيظــل يبحث عنه ويتفصد عرقا إلى أن يجــده. وبعد أن يجده يضعــه في جيب آخر، مــا يوجب عليه البحث مــن جديد. كان عرقه يتصبب بغزارة أثناء بحثه هذا، فصار شعره شديد التجعد ووجهه شديد الاحمرار. صار منظره الآن يستحق أن يلبس ليس ربطة عنق مدرسية قديمة فقط، بل واحدة من القبعات الصغيرة التي يلبسها الأولاد في الصفوف الدنيا أيضا. لا بد أنكم سمعتم أن الأحداث تشــيب لهولها الولدان. حســنا، صاحبنا هذا عاد عشر سنين إلى الوراء نتيجة إطلاق النار!

وبينمــا نحن ننتظر قلت للفتاة الجريئة إن ما حدث يشــكل، فــي رأيي، قصة جيدة جدا وإنني ســأكتبها فــي يوم من الأيام. فالطريقة التي اصطف بها الرجال الســتة وكيفية خروجهم من ذلك الباب كانت جديرة بالإعجاب. أصيبت بالصدمة وقالت إنني

لا يمكــن أن أكتبها لأن في كتابتها إســاءة إلى قضية الجمهورية الإســبانية. قلت لها إنني أمضيت وقتا طويلا في إســبانيا، وإن عهد الملكية المندثرة شــهد عــددا هائلا من حوادث إطلاق النار في بلنســيا، وإنه قبل قيام الجمهورية بمئات السنين كان الناس في الأندلس يقطعون بعضهم بعضا بســكاكين تســمى نافاخا، وإن شهدت حادث إطلاق نار مضحكا في مقهى تشيكوته خلال الحرب فإنني ســأكتب عنه كأنه حدث في نيويورك، أو شيكاغو، أو كي وست، أو مارسيليا. فالأمر لا علاقة له بالسياسة. أشارت إليّ بألا أفعل. ومن المرجح أن كثيرا من الناس سيشير إليّ بذات الرأي. لكن الألماني يعتقــد، فيما يبدو، أن ما حدث قصة جيدة جدا، فأعطيته ما تبقى لدي من سجائر «الجمل». على أي حال، سمحت لنا الشرطة بالمغادرة بعد نحو ثلاث ساعات.

كان رفاقــي في فنــدق فلوريدا قلقين علــيَّ إلى حد ما، لأن القصــف يجعل الناس يقلقون إذا انطلقت إلى بيتك على الأقدام في تلك الأيام ولم تصل بعد إغلاق الحانات في السابعة والنصف. سررت بوصولي سالما وبينما كنا نعد العشاء على طباخ كهربائي رويت لهم القصة فلاقت رواجا كبيرا.

على أي حال، توقف المطر ليلا، وكان صباح اليوم التالي يوما جميلا ناصعا في ذلك الشتاء البارد، وفي الواحدة إلا ربعا دخلت مقهى تشــيكوته لتناول قليل من الشراب قبل الغداء. لم يكن في المقهى في تلك الســاعة ســوى بضعة أناس، فجاء إلى طاولتي نادلان ومدير المقهى، وكانوا جميعا يبتسمون.

«هل أمسكوا بالقاتل؟». سألتهم.

«لا تمــزح والنهار لا يزال في أوله»، قال لي المدير. «هل رأيته أنت والنار تطلق عليه؟».

«نعم»، قلت له.

«وأنــا كذلك»، قال لــي. «لقد كنت هنا تمامــا عندما حدث الإطلاق». ثم أشــار إلى طاولة في الزاوية. «لقد وضع المسدس في صدر الرجل تماما عندما أطلق النار عليه».

«إلى متى ظلوا يحتجزون الناس؟».

«أوه، إلى ما بعد الثانية من هذا الصباح».

«لقد جاءوا فقط من أجل الفيامبري»(*)، «جاءوا في الحادية عشرة صباحا».

«لكنك لا تعرف شيئا عن هذا بعد»، قال لي المدير.

«لا. إنه لا يعرف»، رد أحد النادلين.

«إنه أمر نادر جدا»، قال نادل آخر.

«ومحزن أيضا»، قال المدير وهو يهز رأسه.

«أجل، محزن وغريب»، قال النادل. «محزن جدا».

«قل لي».

«إنه أمر نادر جدا»، قال المدير.

«أخبرني. هيا، أخبرني».

انحنى المدير فوق الطاولة كمن يريد أن يفشــي سرا عظيما، وقال، «كان المسكين يضع ماء الكولونيا في المسدس».

«وكما ترى، لم تكن مزحته تفتقر إلى الذوق»، قال النادل.

(*) وهــذه الكلمــة تعني الجثة في العامية الإسـبانية، وهي ذات الكلمة المسـتخدمة في قائمة الأطعمة في المطاعم، أي اللحم البارد.

«لـم يكن في الأمر ســوى المرح. كان الأجــدر ألا ينزعج منه أحد. يا له من مسكين».

«لقد فهمت»، قلــت له. «إذن، كان يريد أن يدخل البهجة إلى قلوب الجميع».

«أجــل»، قــال المديــر. «لقــد كان الأمــر مجرد ســوء فهم منحوس».

«وماذا حل بالمسدس المائي؟».

«أخذته الشرطة ثم أرسلته إلى أسرته».

«أظن أنهم سيسرون به»، قلت له.

«أجل»، قال المدير. «بلا شك. فالمسدس المائي مفيد دائما».

«ماذا يعمل ذلك الرجل؟».

«نجار موبيليا».

«متزوج؟».

«نعــم، وقد جاءت زوجتــه إلى هنا مع الشــرطة صباح هذا اليوم».

«ركعت إلى جانبه وقالت، بيدرو، ما الذي فعلوه بك، يا بيدرو؟ من فعل بك هذا؟ أوه، يا بيدرو؟».

«بعد ذلك أبعدتها الشــرطة لأنها لم تتمكن من السيطرة على نفسها»، قال النادل.

«يبدو أنــه كان يعــاني وجــعا في صـــــدره»، قال المدير. «كان يقاتــل في صفوف الحركة فــي انطلاقتها الأولى. يقال إنــه قاتل في الجبال لكن وجعا في صدره حال دون مواصلته القتال».

«لهذا خرج عصر أمس ليوزع البهجة على المدينة»، قلت على سبيل الشرح.

«لا»، قــال المدير. «كما ترى، فالأمر نادر الحدوث. كل شــيء نادر. هــذا ما أتعلمه من الشــرطة التي يمكــن أن تكون كفوءة إن أتيــح لها الوقت الكافي. لقد اســتجوبوا بعض الرفاق الذين يعملون معه في المحل. وقد استطاعوا أن يستدلوا على المحل من بطاقته النقابية التي كانت في جيبه. لقد اشترى المسدس المائي وماء الكولونيا ليســتخدمهما في مزحة فــي حفلة زفاف. وكان قد صرح بنيته علنا. لقد اشــتراهما من الجهة المقابلة للمقهى. كانت على قنينة الكولونيا قســيمة تحمل العنوان. كانت القنينة في مرحــاض المطعم، إذ ذهب إلى هناك ليملأ مسدســه. بعد شرائهما لا بد أنه أتى إلى هنا عندما بدأ المطر يهطل».

«أنا أذكر عندما دخل»، قال أحد النادلين.

«لقد انجرف مع تيار الفرح والغناء».

«نعم، لقد كان فرحا بما لا يدع مجالا للشــك»، قلت له. «لقد كان في الواقع يطير من الفرح».

واصل المدير منطقه الإســباني الذي لا يتزحزح، وقال، «لقد اجتمعت بهجة النشوة مع وهن في الصدر».

«لا تعجبني هذه القصة كثيرا»، قلت له.

«أقــول لك إنها نــادرة»، قال المدير. «لقــد التحم المرح عنده بجدية الحرب كما تلتحم فراشة».

«أجــل، كمــا تلتحم فراشــة»، قلت لــه. «تماما كمــا تلتحم فراشة».

«أنا لا أمزح»، قال المدير. «هل ترى؟ إن الأمر أشبه بالفراشة والدبابة».

لقد سـره هذا القول سرورا عظيما، إذ تمكن من الغوص في أعماق الميتافيزيقيا الإسبانية الحقيقية.

«اشـرب على حساب المقهى»، قال لي. «عليك أن تكتب قصة عن هذه الحادثة».

تذكرت صاحب المسـدس ويديه ووجهه الشـمعيين، وذراعيه الممدودتين إلى أقصاهما، وساقيه المضمومتين إلى الأعلى، فبدا إلى حد ما، ليس كثيرا، كأنه فراشة. ولكنه من جهة أخرى لم يكن يشبه البشر. في الواقع كان أكثر ما يذكرني بعصفور ميت.

«أريد كأسا من الشراب»، قلت له.

«عليـك أن تكتب قصة عن الأمر»، قـال لي المدير. «هذا هو الحظ يأتيك إلى هنا».

«الحظ»، قلت له. «لقد أشـارت عليّ فتاة إنجليزية ليلة أمس ألا أكتب عن الموضوع، لأن في ذلك إساءة إلى القضية».

«أي هراء هذا!» قال المدير. «عندما يلتقي المرح الذي يسـاء فهمـه مع الجدية القاتلة الضاربـة أطنابها دوما هنا، فإن الأمر في غاية المتعة والأهمية. إن الأمر بالنسـبة إلي أمتع شيء وأندر شيء رأيته منذ سنين. لا مناص لك من الكتابة عنه».

«لا بأس»، قلت له. «بالتأكيد. هل لديه أولاد؟».

«لا، لقد سـألت الشرطة. لكن عليك أن تكتب القصة وعليك أن تسميها الفراشة والدبابة»، قال لي.

«لا بأس»، قلت له. «بالتأكيد. لكن العنوان لا يعجبني كثيرا».

«بل إنه أنيق جدا»، قال لي المدير. «إنه الأدب بعينه».

«لا بأس»، قلت له. «بالتأكيد. هذا ما سنسميها. الفراشة والدبابة»

وأنا جالس في ذلك الصباح المرح الساطع[٤٥] في ذلك المقهى النظيف الجيد التهوية، مع صديقي القديم، مدير المقهى الذي ابتهج كثيرا بالأدب الذي سنشترك في كتابته، أخذت رشفة من الشراب، ونظرت من النافذة المحاطة بأكياس الرمل، وفكرت في الزوجة الراكعة إلى جانب زوجها وهي تناديه: «بيدرو، بيدرو، من فعل بك هذا يا بيدرو؟». خطر لي أن الشرطة لن تتمكن من إخبارها حتى لو حصلوا على اسم الرجل الذي أطلق عليه النار.

(٤٥) يبدو أن همنغواي نسي أن راوي القصة قد صرح من قبل أنه جاء إلى المقهى في الواحدة إلا ربعا، أي أنه جاء بعد انقضاء الصباح بمدة [المترجم].

تحت سفح الجبل
[١٩٣٩]

كان يومــا قائظــا والغبار يعصف، فخرجنا مــن المعركة وقد جفت أفواهنا، وسدت أنوفنا، وأثقلت كواهلنا بما حملت، عائدين إلى سلســلة الجبال الطويلة المطلة على النهر حيث تتجمع قوات الاحتياط الإسبانية.

جلســت مســندا ظهري على جدار الخنــدق الضئيل، بينما أسندت كتفي ومؤخرة رأسي على التراب الذي صار بمنجاة الآن حتى من الرصاص الطائش، ونظرت إلى المشهد الممتد في الفجوة أمامنا. كانــت هناك دبابات الاحتياط المغطاة بأغصان الزيتون، وإلى يسارها ســيارات الأركان المموهة بالطين والأغصان، وبين هذه وتلــك كان هناك خط طويل من الرجال يحملون نقالات ثم يهبطون في شــعب متعرج إلى منبســط السلسلة الجبلية حيث سيارات الإسعاف تحمل. كانت بغال المؤن المحملة بأكياس الخبز وبراميل المشروب، تتبعها بغال محملة بالذخيرة، تصعد الأخدود وراء سائقيها، ويرافقها في رحلة صعودها البطيء رجال يحملون نقالات فارغة.

على يميني، وتحت منعطف السلســلة، كنت أرى مدخل الكهف الذي يعمل فيه أركان اللواء، وأســلاك الإشــارة خارجة من أعلى الكهف ثم تتلوى من فوق السلسلة إلى الملجأ الذي كنا نحتمي به.

كان سائقو الدراجات النارية في ملابسهم الجلدية وخوذاتهم يصعدون في الأخدود أو يهبطون على دراجاتهم، وعندما يشــق

عليهم الصعود أو الهبوط، كانوا يمشون بمحاذاتها إلى أن يصلوا إلـــى مدخل الكهف حيـــث ينحنون للدخـــول. وبينما كنت أراقب المشـــهد، رأيت هنغاريـــا ضخما من معارفي يخـــرج من الكهف، وهو يحشـــو بعض الأوراق في محفظة جيبه، ويتجه إلى دراجته. أخذ يدفع دراجته من بين سيل البغال وحملة النقالات، ثم قذف بإحدى ســـاقيه فوق الســـرج، وانطلق هادرا من فوق السلســـلة، مثيرا خلفه عاصفة من الغبار.

في الأســـفل كان شـــريط أخضر يعبر المنبسط الذي تجوبه ســـيارات الإسعاف ذهابا وإيابا، فيرسم مسار النهر. وكان هناك منزل كبير ذو ســـقف قرميدي أحمر، وطاحونـــة حجرية باهتة اللون، ومن بين الأشـــجار المحيطـــة بالبيت الكبيـــر وراء النهر، كانت بنادقنا تومض. كانوا يســـددون إصابات مباشـــرة نحونا، حيث تتوالى ومضات مزدوجة، يتلوها دوي الأسلحة النارية ذات البوصـــات الثلاث قصيرا، مجلجلا، يعقبها دوي القذائف قادما نحونا ثم يمر فوق رؤوســـنا. وكعادتنا، كانت تعوزنا المدفعية. لم يكن لدينا سوى أربع بطاريات منها، في حين يجب أن يكون لدينا أربعون، ولم نكن نستخدم سوى رشاشين في آن واحد. لقد فشل الهجوم قبل أن نهبط.

«هل أنتم روس؟». سألني جندي إسباني.

«بل أمريكان»، قلت له. «هل لديك ماء؟».

«نعم، يا رفيق». ثـــم ناولني قربة مصنوعة من جلد الخنزير. كانت قوات الاحتياط هذه لا تعرف من الجندية ســـوى اســـمها وزيها الرســـمي الموحد. لـــم يكن من المفترض أن يشـــاركوا في

الهجوم، لذلك انتشروا في نسق محاذ لسفح الجبل، على شكل مجموعات، إما يأكلون، أو يشربون، أو يتحدثون، أو يجلسون منتظرين كالبلهاء. كان الهجوم تقوم به أحد الألوية الدولية.

شرب كلانا، وكان للماء طعم الإسفلت وشعر الخنازير.

«المشروب أفضل»، قال لي الجندي. «سأجلب المشروب».

«نعم، لكن لا شيء يروي الغليل كالماء».

«لا عطش كعطش المعركة. حتى أنا، جندي الاحتياط، شديد العطش».

«هذا هو الخوف»، قال جندي آخر. «العطش يعني الخوف».

«لا»، رد جندي آخر. «العطش ملازم دائم للخوف. لكن العطش يشتد في المعركة حتى عندما ينعدم الخوف».

«لا تخلو الحرب قط من الخوف»، قال الجندي الأول.

«بالنسبة إليك»، قال الجندي الثاني.

«إنه شيء طبيعي»، قال الجندي الأول.

«بالنسبة إليك».

«سد فمك القذر»، قال الجندي الأول. «أنا بكل بساطة رجل يقول الحق».

كان يوما من أيام أبريل الناصعة، وكانت الريح تهب بعنف جعلت كل بغل يصعد الأخدود يثير زوبعة من الغبار. وكذلك كان كل واحد من حاملي النقالة يثير زوبعة من عنده، فتلتقيان لتشكلا زوبعة أكبر، وبدورها كانت سيارات الإسعاف التي تعبر المنبسط أسفل السفح تخلف وراءها ضفائر طويلة من الغبار تتبعثر نتفا في الريح.

أيقنت الآن أنني لن أقتل في ذلك اليوم، ومنبع يقيني هذا من كوننا قمنا بواجبنا خير قيام، إضافة إلى ذلك أن موتنا استحق مرتين في المراحل الأولى من الهجوم لكننا لم نمت. كانت المرة الأولى عندما رافقنا الدبابات واخترنا مكانا نصور منه الهجوم. بعد ذلك انتابني شعور من الريبة حول المكان، فنقلنا الكاميرات مسافة مائتي ياردة إلى اليسار. وقبل أن أغادر المكان، قمت بتعليمه بأقدم الطرق المعروفة[٤٦]، وخلال عشر دقائق سقطت قذيفة طولها ست بوصات في ذات المكان، فإذا به أثر بعد عين، وخلفت القذيفة حفرة كبيرة في الأرض.

ثم بعد ساعتين جاءنا ضابط بولندي فُرز أخيرا من الكتيبة إلى هيئة الأركان، وتطوع ليطلعنا على المواقع التي استولى عليها البولنديون توا، فخرجنا نحتمي بثنية إحدى الروابي لنزحف من تحت وابل نيران المدافع الرشاشة، ندس ذقوننا في التراب ونلتهم الغبار بأنوفنا، لنكتشف أن البولنديين لم يستولوا على أي موقع في ذلك اليوم إطلاقا، بل تراجعوا قليلا عن الأماكن التي كانوا قد انطلقوا منها. وبينما كنت أجلس محتميا بالخندق، راح العرق يتصبب مني والجوع يقرصني، والعطش يكويني، والخواء يملأ كياني بعد أن زال خطر الهجوم.

«هل أنت متأكد أنكم لستم روسا؟». سألني أحد الجنود. «فالروس موجودون هنا اليوم».

«أجل، لكننا لسنا روسا».

«إن وجهك كوجه الروسي».

(٤٦) أي بالتبول، وهي الطريقة التي تتبعها ذكور الحيوانات لتعليم حرم أراضيها [المترجم].

«لا»، قلــت لــه. «أنت مخطــئ، أيها الرفيــق. إن لدي وجها مضحكا، لكنه ليس وجها روسيا».

«إن وجهه كوجه الروســـي»، قال وهو يشـــير إلى أحدنا الذي كان يصلح الكاميرا.

«ربما، لكنه ليس روسيا. من أين أنت؟».

«من إكستريماديورا»، قال باعتزاز(٤٧).

«هل يوجد روس في إكستريماديورا؟». سألته.

«لا»، قال باعتزاز أكبر. «لا يوجد روس في إكســـتريماديورا، ولا يوجد إكستريماديوريون في روسيا».

«ما هو اتجاهك السياسي؟».

«أنا أكره كل الأجانب»، قال لي.

«هذا برنامج سياسي عريض».

«أكره المغاربة، والإنجليز، والفرنسيين، والإيطاليين، والألمان، والأمريكيين الشماليين، والروس».

«وهل تكرههم بهذا الترتيب؟».

«نعم، لكن كرهي للروس ربما يكون أشد».

«يا رجــل، أنت صاحب أفــكار ظريفة»، قلت لــه. «هل أنت فاشي؟».

«لا، أنا إكستريماديوري وأكره الأجانب».

«إنـــه صاحب أفكار نادرة»، قال جندي آخر. «لكن لا تعره أي اهتمام. أنا أحب الأجانب. أنا من بلنسيا. تناول كأسا أخرى من المشروب، أرجوك».

---

(٤٧) إكستريماديورا: منطقة في الجنوب الغربي من إسبانيا [المترجم].

تناولت الكأس، وكان طعم الكأس السـابقة لا يزال لاذعا في فمي. نظرت إلى الإكسـتريماديوري، فـكان طويلا ونحيفا. كان وجهه مرهقا، غير حليق، وكان خداه غائرين. كان يقف منتصب القامة، غاضبا، متدثرا ببطانية مسدلة على منكبيه.

«أخفض رأسك»، قلت له. «هناك كثير من الرصاص الطائش يمر من فوقنا».

«لا خـوف عندي من الرصاص وأكـره كل الأجانب»، رد علي بعنف.

«لا داعي لأن تخشى الرصاص»، قلت له. «بل عليك أن تتفاداه عندما تكـون في الاحتياط. فليس من الـذكاء أن تجرح عندما يكون تفادي ذلك ممكنا».

«لست أخاف من شيء»، قال الإكستريماديوري.

«أنت محظوظ، أيها الرفيق».

«هذا صحيح»، قـال الآخـر، صـاحب كـأس الشـراب. «إنه لا يخاف حتى من الطائرات».

«إنه مجنون»، قال جندي آخـر. «الكل يخاف من الطائرات. إنها تقتل القليل لكنها تبث الرعب».

«أنـا لا أخـاف مـن الطائـرات ولا مـن أي شـيء»، قـال الإكستريماديوري. «وأكره كل أجنبي على وجه الأرض».

رأيت رجلا طويلا بزي الألوية الدولية يمشي في أدنى الأخدود إلـى جانب اثنين من حملة النقالات، غير آبه، فيما يبدو، للمكان الذي هو فيه، ويحمل فوق كتفه بطانية مربوطة عند خصره. كان يمشـي مرفوع الرأس وبدا مثل رجل يمشـي في حلمه. كان في

منتصــف العمر. لم يكن يحمل بندقية، ولم يتضح لي من موقعي إن كان جريحا.

راقبته وهو يمشــي وحيدا، خارجا لتوه من الحرب. وقبل أن يصل إلى ســيارات الأركان، انعطف نحو اليســار مرفوع الرأس بذات الطريقة الغريبة، ثم واصل مسيره فوق حافة السلسلة إلى أن توارى عن الأنظار.

لــم ينتبه إليــه رفيقي الذي كان يبدل الفيلــم في الكاميرات اليدوية.

جاءت قذيفة وحيدة من فوق السلســلة وسقطت قبيل دبابات الاحتياط، ناثرة التراب ودخانا أسود.

أطل أحدهم برأســه من الكهف، حيث قيادة أركان اللواء، ثم اندس إلى الداخل. خطر لي أن أتوجه إليهم، لكنني كنت أعلم أنهم غاضبون بســبب الهجوم الفاشل، ولم أكن راغبا في مواجهتهم. فلو نجحت عملية ما، فإنهم ســيكونون ســعداء بتصويرها. لكن إن فشــلت، ســيغضب الجميع إلى درجة أنهم قد يضعونني قيد الاعتقال.

«قد يقصفوننا الآن»، قلت.

«لا فــرق عندي»، قال الإكســتريماديوري. بدأت أضيق ذرعا بهذا الإكستريماديوري.

«هل ما زال عندك مشــروب؟». ســألت، والجفاف لم يفارق فمي.

«نعم، يا رجل. هناك عدة غالونات منه»، قال الجندي الودود، وكان قصيرا، شــديد الاتســاخ، له قبضتان كبيرتان، تكاد لحيته

تكون بطول شعر رأسه المقصوص قصيرا. «هل تظن أنهم سيقصفوننا؟».

«يجب أن يفعلوا»، قلت له. «لكن التنبؤ في هذه الحرب أمر مستحيل».

«وما مشكلة هذه الحرب؟». سأل الإكستريماديوري غاضبا. «ألا تحب هذه الحرب؟».

«اخرس!» زجره الجندي الودود. «أنا القائد هنا، وهؤلاء الرفاق ضيوفنا».

«إذن، قل له ألا ينتقص من حربنا».

«قل لي يا رفيق، من أي بلدة أنت؟». سألت الإكستريماديوري.

«بداغوث»، قال لي. «أنا من بداغوث. لقد تعرضنا في بداغوث للسلب والنهب، واغتصبت نساؤنا من قبل الإنجليز والفرنسيين، وهن الآن يغتصبن من قبل المغاربة. ما فعله المغاربة الآن ليس أسوأ مما فعله الإنجليز تحت قيادة ولنغتون(٤٨). عليك أن تقرأ التاريخ. لقد قتل الإنجليز جدة أبي. والبيت الذي كانت تسكنه أسرتي أحرقه الإنجليز».

«يؤسفني ذلك»، قلت له. «لكن لماذا تكره الأمريكيين الشماليين؟».

«لقد قتلوا أبي في كوبا عندما زج به إلى الجندية هناك».

---

(٤٨) يبدو أن الإشارة هنا إلى آرثر ولزي، دوق ولنغتون (١٧٦٩ - ١٨٥٢)، وهو قائد عسكري وسياسي بريطاني مخضرم، خاض الحرب في الهند، وأخرج الفرنسيين من إسبانيا وهزم نابليون الأول في معركة واترلو في العام ١٨١٥ [المترجم].

«وهذا يؤسفني أيضا. يؤسفني حقا. صدقني. ولماذا تكره الروس؟».

«لأنهم يمثلون الاستبداد وأنا أكره وجوههم. وأنت لك وجه كوجه الروس».

«ربما يجدر بنا أن نخرج من هنا»، قلت لرفيقي الذي لم يكن يعرف الإسبانية. «يبدو أن لي وجها كوجه الروس، وهذا يوقعني في المتاعب».

«سوف أنام»، رد علي. «هذا مكان جيد. لا تكثر من الحديث، ولن تقع في المتاعب».

«أحد الرفاق هنا لا يعجبه وجهي. أعتقد أنه أحد الفوضويين».

«إذن، انتبه لئلا يطلق عليك النار. سوف أنام».

في هذه اللحظة بالذات، طلع علينا من الأخدود رجلان وتوجها نحونا. كان كلاهما يرتدي معطفا جلديا. واحد قصير وسمين، والآخر متوسط الطول، وكلاهما يعتمر قبعة مدنية، ولكل منهما وجه خال من الملامح، مرتفع الوجنتين، ويحمل كل منهما على ساقه مسدس ماوزر ذا قراب بلون الخشب.

تحدث إلي أطولهما بالفرنسية. «هل رأيت رفيقا فرنسيا يمر من هنا؟». سألني. «رفيقا يربط بطانية حول كتفيه على هيئة حزام الرصاص؟ رفيقا بين الخامسة والأربعين والخمسين من عمره؟ هل رأيت رفيقا بهذه الأوصاف يسير بالاتجاه المعاكس لخط الجبهة؟».

«لا»، قلت له. «لا، لم أر رفيقا بهذه الأوصاف».

نظـــر إلي لحظة ولم يرف له جفـــن، فلاحظت أن في عينيه صفارا مائلا إلى الرمادي.

«شـــكرا، يا رفيق»، قال لي بفرنسيته الغريبة، ثم راح يتحدث بســـرعة إلى زميله بلغة لم أفهمها. تابعا مسيرهما وتسلقا قمة السلسلة حيث صار في إمكانهما أن يريا كل الأخاديد.

«هذا هو الوجه الحقيقي للروس»، قال الإكستريماديوري.

«اخـــرس!» قلت لـــه. كنت أراقـــب الرجلين فـــي معطفيهما الجلديين. كانا يقفان في مكانهما تحت وابل شديد من النيران، يمعنان النظر في الريف المدمر بين سفح الجبل والنهر.

فجـــأة رأى أحدهمـــا ما كان يبحث عنه وأشـــار بيده، فراحا يعـــدوان ككلاب الصيـــد: واحـــد يعدو بخط مســـتقيم من فوق السلســـلة، والآخر يعدو بزاوية كأنه يريد أن يقطع الطريق على شـــخص ما. وقبل أن يتجاوز الثاني قمة السلســـلة رأيته يسحب مسدسه ويمسك به أمامه وهو يعدو.

«وما رأيك فيما ترى؟». سألني الإكستريماديوري.

«لا يختلف عن رأيك»، قلت له.

من فوق قمة السلسلة الموازية سمعت أصوات المسدسين تنطلق مدوية دويا قصيرا متقطعا. أطلقا نحو اثنتي عشرة طلقة. لا بد أنهما أطلقا النار من مســـافة بعيـــدة. ثم توقف الإطلاق بعد كل هذا الوابل، تلته طلقة واحدة.

نظر إلي الإكســـتريماديوري متجهما ولم يقل شيئا. خطر لي أنه لو بدأ القصف لهانت الأمور. لكنه لم يبدأ.

عاد الرجلان المرتديان المعطفين الجلديين والقبعتين المدنيتين

يسيران معا من فوق السلسلة، ثم هبطا السفح يسلكان الأخدود بركب مثنية على شاكلة الحيوان ذي الساقين عندما يهبط منحدرا سحيقا. انتحيا جانب الأخدود عندما مرت بهما دبابة تهدر نازلة.

لقد فشلت الدبابات مرة أخرى في ذلك اليوم، فهبط سائقوها من خطوط الجبهة بخوذاتهم، وفتحوا أبراج دباباتهم عندما أصبحوا في حماية السلسلة الجبلية، تعلو وجوههم سيماء كسيماء لاعبي كرة القدم الذين أخرجوا من مباراة بسبب جبنهم.

وقف الرجلان صاحبا الوجهين الخاليين من أي ملامح إلى جانبنا على السلسلة ليسمحا للدبابة بالمرور.

«هل وجدتما الرفيق الذي كنتما تبحثان عنه؟». سألت أطولهما بالفرنسية.

«نعم، يا رفيق. شكرا لك»، قال لي ورمقني بتمعن.

«ماذا يقول؟». سألني الإكستريماديوري.

«يقول إنهما وجدا الرفيق الذي كانا يبحثان عنه»، قلت له، فلم يقل الإكستريماديوري شيئا.

كنا طوال ذلك الصباح في المكان الذي غادره الفرنسي المتوسط العمر مشيا على الأقدام. كنا في الغبار، والدخان، والضجيج، والإصابة بالجروح، والموت، ورهبة الموت، والاستبسال، والجبن، والجنون، وإخفاق هجوم فاشل. كنا في ذلك الحقل المحروث الذي لا يعبره الرجال ويبقون أحياء. كنا نبطح أرضا، ونعمل كومة من تراب نحمي بها رؤوسنا، بينما ندس ذقوننا في التراب،

وننتظر أمرا بصعود ذلك السـفح الـذي لا يصعده رجل ويبقى حيا.

لقد كنا ننتظر مع أولئك الذين ينتظرون الدبابات التي لم تأت، كنا ننتظر تحت زعيق القذائف القادمة وهديرها، وكانت الشظايا والتراب تتطاير كتلا كأنها تتبثق من ينبوع يبصق ترابا، وكان أزيز النيران فوقنا كالسـتارة. كنا نعلم مشاعر أولئك المنتظرين. لقد تقدموا إلى أبعد نقطة ممكنة، ولم يكن في اسـتطاعة إنسان أن يتقدم خطوة أخرى ويبقى حيا عندما جاء الأمر بالتقدم.

كنـا طوال ذلـك الصباح في المـكان الذي غادره الفرنسـي المتوسط العمر مشيا على الأقدام. لقد فهمت كيف يمكن لامرئ أن يتصرف كما تصرف الفرنسي الذي غادر أرض المعركة عندما تبين له بجلاء مفاجئ حماقة الموت في هجوم فاشـل، تماما كما يرى الإنسـان الأمور بجلاء قبيل موته، فأيقـن أن الأمر برمته عديم الجدوى وفي منتهى الغباء. وهو يتصرف هكذا لا جبنا ولا فزعـا، بل من انجلاء الأمر على حقيقته، ومن يقينه المفاجئ أنه لم يعد أمامه من خيار سوى أن ينفض يديه من هذا الأمر.

لقد انسـحب الفرنسي من الهجوم بكرامته، وفهمته بوصفي إنسـانا. لكنه جندي في نظر هذين الرجلين اللذين كانا يقومان بدور الشـرطة الحربية، فطارداه، فلاقاه الموت الذي هرب منه عندما انحدر من قمة الجبل باتجاه النهر، وأصبح في مأمن من الرصاص والقذائف.

«وهذه؟». سـألني الإكستريماديوري، وهو يشير إلى الشرطة الحربية.

«هـــذه هـــي الحـــرب»، قلت لـــه. «ففـــي الحـــرب لابد من الانضباط».

«ولكي نعيش في ظل هذا الانضباط علينا أن نموت؟».

«من غير انضباط سيموت الجميع في كل الأحوال».

«هناك نوعان من الانضباط»، قال الإكستريماديوري. «اسمع ما أقوله لك. في فبراير كنا هنا حيث نحن الآن، عندما هاجمنا الفاشيون، فساقونا من التلال التي حاولتم، أنتم الألوية الدولية، أن تستولوا عليها اليوم ففشلتم. تراجعنا إلـــى هنا، إلى هذه السلســلة، فجاءت الألويــة الدولية وتمركزت فـــي الخط الذي أمامنا».

«أعرف ذلك»، قلت له.

«لكنك لا تعرف هذا»، اســتأنف غاضبا. «كان هناك فتى من منطقتي، فأصابه الذعر من جراء القصف، فأطلق النار على يده كي يتمكن من مغادرة الجبهة لأنه كان خائفا».

لاذ الآن كل الجنود الآخريــن بالصمت، بينما راح عدد منهم يهزون رؤوسهم.

«مثــل هؤلاء تضمد جروحهم ويعادون إلى الجبهة فورا»، تابع الإكستريماديوري قوله. «وهذا هو الواجب».

«أجل، إنه كذلك»، قلت له.

«أجل، هــذا هــو الواجب»، قــال الإكســتريماديوري. «لكن إصابــة هذا الفتى حطمت عظم يده، فتلوث الجرح، ما أدى إلى بترها».

هز عدد من الجنود رؤوسهم.

«هيا أخبره البقية»، قال أحدهم.

«قد يجدر بنا ألا نتحدث عن هذا الأمر»، قال قائدهم ذو الشعر القصير واللحية الكثة.

«إنه واجبي أن أتحدث»، قال الإكستريماديوري.

هز قائدهم كتفيه، وقال، «لم يعجبني ما حدث. هيا أخبره، إذن. لكنني لا أحب أن أسمع اللغط في هذا الأمر».

«ظل هذا الفتى في المستشفى في الوادي منذ فبراير»، قال الإكستريماديوري. «بعض منا رآه في المستشفى. الكل قال إنه كان محبوبا في المستشفى، واستطاع أن يكون، بيد واحدة، نافعا إلى أبعد الحدود. لم يتعرض للاعتقال قط. لم يكن هناك ما يهيئه لما سيحدث».

ناولني قائدهم كأس مشروب آخر من دون أن يتفوه بكلمة. كان الجميع ينصت، تماما كما ينصت لقصة من لا يقرأ ولا يكتب.

«قبيل غروب شمس أمس، وقبل أن نعلم بخطة الهجوم، ظننا أن اليوم سيكون مثل باقي الأيام، جاءوا به من السهل عبر الأخدود إلى هنا. كنا نعد طعام العشاء عندما جاءوا به. كانوا أربعة فقط: الفتى پاكو، وهذان الاثنان اللذان رأيتهما الآن في معطفيهما الجلديين وقبعتيهما، وضابط من اللواء. رأينا الأربعة يصعدون عبر الأخدود، وكانت يدا پاكو طليقتين، ولم يكن مقيدا بأي شيء.

«عندما رأيناه احتشدنا حوله ورحبنا به وسألناه عن أحواله. فقال لنا إن كل شيء على ما يرام لولا يده، ثم أرانا يده المقطوعة.

«قـــال پاكو: لقد كانـــت فعلتي فعلة جبن وحماقـــة، وأنا نادم عليها. لكنني ســـأحاول أن أكون ذا نفع بيد واحدة. ســـأفعل ما أستطيع بيد واحدة في سبيل القضية».

«نعم»، قال أحد الجنود مقاطعا. «لقد قال ذلك. أنا ســـمعته يقول ذلك».

«لقد تحدثنا معه»، قال الإكســـتريماديوري. «وتحدث معنا. عندما يأتي أصحاب المعاطف الجلدية والمسدســـات فإن ذلك دوما نذير شـــؤم في الحـــرب، مثل وصـــول حاملي الخرائط والنواظيـــر الميدانيـــة. ومع ذلك ظننا أنهم أتـــوا به في زيارة، فسعدنا برؤيته نحن الذين لم نتمكن من زيارته في المستشفى، وكما قلت كان الوقت ســـاعة العشـــاء، وكانت أمســـية صافية ودافئة».

«لا تهب هذه الريح إلا خلال الليل»، قال أحد الجنود.

«بعد ذلك»، قال الإكستريماديوري بنبرة حزينة، «سأل أحدهم الضابط بالإسبانية عن المكان».

«أين المكان الذي جرح فيه پاكو هذا؟» سأل الضابط.

«أجبتـــه أنا»، قال قائدهم. «أريتهم المكان. إنه أبعد بقليل من مكانك».

«هـــذا هو المـــكان»، قال أحـــد الجنود، ثم أشـــار إلى المكان، فتحققت من المكان. كان واضحا أنه المكان.

«ثـــم أخذ أحدهم بذراع پاكو وقاده إلى المكان، وظل ممســـكا بذراعه بينما كان الآخر يتحدث بالإسبانية. كان يتحدث بالإسبانية ويرتكب كثيرا من الأخطاء اللغوية. أردنا في البداية أن نضحك،

وراح پاكو يبتسم. لم أفهم كل كلامه، لكنني فهمت أن پاكو يجب أن يعاقب كي يكون عبرة لغيره ولكي لا تسول لأحد نفسه صنيعا كهذا، وأن كل من يفعل هكذا سيعاقب بذات الطريقة.

«وبينما كان أحدهم يمسك بذراع پاكو الذي أخجله أن يحكى عنه بهذه الطريقة، فزاده ذلك خجلا وأسفا، أخرج الآخر مسدسه وأطلق النار على مؤخرة رأس پاكو من دون أن يكلمه ولو بكلمة واحدة».

هز الجنود رؤوسهم جميعا.

«هكذا حدث الأمر»، قال أحد الجنود. «يمكنك أن ترى المكان. لقد وقع على فمه هناك. يمكنك أن ترى المكان».

نعم، لقد رأيت المكان بجلاء من حيث أقف.

«لم يعط أي إنذار أو فرصة لتهيئة نفسه»، قال قائدهم. «لقد أعدم بمنتهى الوحشية».

«لهذا السبب أكره جميع الأجانب»، قال الإكستريماديوري. «لا يمكننا أن نتعامى عن الأجانب. أنا آسف إذا كنت أجنبيا. لكنه لم يعد في إمكاني الآن أن أستثني أحدا منهم. لقد تقاسمت معنا الخبز والمشروب، لكن عليك أن تذهب الآن».

«لا تتكلم بهذه الطريقة»، قال القائد للإكستريماديوري. «فمن الضروري الالتزام بآداب السلوك».

«أعتقد أنه يجب علينا أن نغادر»، قلت له.

«أنت لست غاضبا؟». سألني القائد. «يمكنك أن تبقى في هذا الملجأ قدر ما تريد. هل أنت عطشان؟ هل تريد مزيدا من المشروب؟».

«أشـــكرك شـــكرا جزيـــلا»، قلت لـــه. «أعتقد أنـــه يجب أن نغادر».

«هل تفهم حقدي؟». سألني الإكستريماديوري.

«نعم، أفهم حقدك»، قلت له.

«هـــذا جيـــد»، قال لـــي، وهو يمد يـــده. «لا مانـــع لدي من مصافحتك. وأتمنى لك، بالذات، حظا موفقا».

«وهذا ما أتمناه لك أيضا»، قلت له. «لك شـــخصيا، ولكونك إسبانيا».

أيقظت زميلي المصور وهبطنا سفح الجبل باتجاه قيادة أركان اللواء. كانت الدبابات عائدة الآن، فلم يعد في إمكانك أن تسمع نفسك وأنت تتحدث.

«هل كنت تتحدث كل هذه الفترة؟».

«بل أستمع».

«هل سمعت شيئا ممتعا؟».

«الكثير».

«ماذا تريد أن تفعل الآن؟».

«العودة إلى مدريد».

«علينا أن نرى الجنرال».

«نعم، يجب أن نراه»، قلت له.

كان الجنـــرال حانقا حنقا فاترا. لقد تلقى أمرا بشـــن هجوم مباغـــت بلواء واحد فقط، والانتهاء مـــن الأمر قبيل الفجر. كان الهجـــوم يحتاج إلـــى فرقة على الأقل، فاســـتخدم ثلاث كتائب، وأبقـــى واحدة احتياطا. تنـــاول قائد كتيبة الدبابات الفرنســـي

المشـــروب ليتشجع لشن الهجوم، لكنه أسرف في المشروب وشله كثرة المشـــروب في نهاية المطاف عـــن الحركة. لذا تقرر إعدامه عندما يصحو من فقدان وعيه.

لم تصل كتيبة الدبابات في الوقت المناسب، وأخيرا رفضت أن تتقدم، مما جعل الكتيبتين تخفقان في تحقيق أهدافهما. حققت الثالثة أهدافها، لكنها لم تســـتطع أن تتمسك بها أو تدافع عنها. النتيجة الحقيقية الوحيدة التي حققها الهجوم هي أســـر بعض الجنود الذين عهد إلى رجال الدبابات أن يحضروهم معهم، لكن هؤلاء قتلوهم. لم يكن عند الجنرال ســـوى أخبار الفشل، وهؤلاء قتلوا أسراه.

«ماذا يمكنني أن أكتب؟». سألته.

«لا تكتب إلا ما هو في البيان الرسمي. هل لديك مشروب في هذه القنينة الطويلة؟».

«نعم».

أخـــذ جرعة ثم لحس شـــفتيه بعناية. لقـــد كان في يوم من الأيام نقيبا في سلاح الفرسان الهنغاري، واستولى ذات يوم على قطار محمل بالذهب في إســـبيريا عندما كان قائدا للمتطوعين من الفرســـان في الجيش الأحمر، وظل متمسكا به طوال فصل الشتاء عندما هبطت درجات الحرارة إلى الأربعين تحت الصفر. كنا أصدقاء جيدين، وكان يحب المشروب، والآن قد مات.

«اخرج من هنا الآن»، قال لي. «هل لديك وسيلة نقل؟».

«نعم».

«هل التقطتم أي صور؟».

«التقطنا بعض الصور للدبابات».

«الدبابـــات»، قالها بمـــرارة. «الخنازير. الجبنـــاء. انتبه لئلا تقتل»، قال لي. «يفترض أن تكون كاتبا».

«لا أستطيع أن أكتب أي شيء الآن».

«اكتبه لاحقا. يمكنك أن تكتب كل شـــيء لاحقا. لكن لا تقتل. أحذرك بشكل خاص ألا تقتل. والآن اخرج من هنا».

لم يســـتطع هو شـــخصيا العمل بنصيحتـــه، إذ قتل بعد ذلك بشـــهرين. لكن أغـــرب ما في ذلك اليوم هو روعـــة الصور التي التقطناها للدبابات. بدت الدبابات على الشاشة وهي تتقدم فوق الهضبة بلا مقاومة، وكانت تطأ الذرى كسفن عظيمة، ثم تزحف هادرة نحو سراب ذلك النصر الذي عرضناه على الشاشة.

قد يكون أكثر الناس اقترابا من النصر في ذلك اليوم هو ذلك الفرنسي الذي غادر المعركة مرفوع الرأس شامخا. لكن نصره لم يدم أكثر من نصف المسافة التي قطعها على سفح الجبل. رأيناه ممددا على السفح، متدثرا ببطانيته، عندما هبطنا الأخدود إلى سيارة الأركان التي ستأخذنا إلى مدريد.

لا أحد يموت قط
[١٩٣٩]

كان المنزل مبنيا من جص ذي لون وردي تقشر وبهت لونه بفعل الرطوبة، ومن شرفته كان في إمكان المرء أن يرى البحر الشديد الزرقة عند نهاية الشارع. كانت أشجار الغار تحف الرصيف وتتطاول لتظلل أعلى الشرفة، ناشرة البرودة في ظلالها. كان طائر محاك[٤٩] يقبع في قفص مصنوع من الأماليد في إحدى زوايا الشرفة، وقد توقف الآن عن الغناء والزقزقة، لأن شابا في الثامنة والعشرين، نحيف البنية، أسمر اللون، تحيط بعينيه هالات زرقاء، وله لحية كثة قصيرة، خلع كنزة كان يلبسها وألقى بها على القفص. كان هذا الشاب يقف مصغيا، وفمه يفتر قليلا. كان أحدهم يحاول فتح الباب الأمامي المغلق.

وبينما هو يصغي سمع صوت الريح تداعب أشجار الغار التي تحف بالشرفة، وبوق سيارة أجرة تسير في الشارع، وأصوات أطفال يلعبون في قطعة أرض مهجورة. بعد ذلك سمع استدارة مفتاح في قفل الباب الأمامي، فيسمع الباب ينفتح، ثم وهو يجذب نحو الرتاج، ثم ينغلق القفل ثانية. في الوقت ذاته سمع صوت مضرب لكرة البيسبول وصراخا حادا بالإسبانية آتيا من قطعة الأرض المهجورة. ظل واقفا، يلعق شفتيه ليرطبهما، ويصغي، بينما يحاول أحدهم فتح الباب الخلفي.

---

(٤٩) الطائر المحاكي: طائر غريد يتميز بقدرته على محاكاة كل أصوات الطيور الأخرى [المترجم].

خلع الشـــاب، الذي يدعـــى إنريك، حذاءه، ثـــم وضعه على الأرض بحذر شـــديد، وتحرك بهدوء بمحاذاة قرميد الشـــرفة إلى أن صـــار في إمكانه أن يطل على البـــاب الخلفي. لم يكن هناك أحد. تسلل عائدا إلى واجهة المنزل، وراح ينظر، متخفيا، باتجاه الشارع.

كان زنجي يمشـــي على الرصيف تحت أشـــجار الغار يعتمر قبعة قش رقيقة الحافة، مســـطحة من الأعلـــى، ويلبس معطفا رماديـــا من صوف الألپكا وبنطالا أســـود[٥٠]. ظل إنريك يراقب، لكن لم يكن هناك أحـــد آخر. ظل يراقب ويصغي بعض الوقت، ثم نزع كنزته عن قفص الطائر ولبسها.

كان عرقه يتصبب بغزارة عندما كان يصغي، أما الآن فشـــعر بالبرد بسبب الظل والريح الشمالية الشرقية الباردة. كان يتدلى مـــن كتفه، تحت الكنزة، قراب جلـــدي مبقع ومبيض من التعرق، يحمل فيه مســـدس كولت عيار خمســـة وأربعين، الذي سبب له، بفعل الاحتكاك المســـتمر، بثرا صغيرا تحت إبطه. استلقى على سرير من قنب بحذاء جدار المنزل، وراح يصغي.

زقزق الطائر وراح يقفز داخل القفص، فتطلع إليه الشـــاب. ثم نهـــض وفتح له باب القفص. مد الطائـــر عنقه باتجاه الباب المفتـــوح، ثم تراجع، ثم مده بعنف مرة أخرى، مصوبا منقاره على شكل زاوية.

«هيـــا، طـــر»، قال له الشـــاب بصوت خفيض. «إنها ليســـت خدعة».

---

(٥٠) الألپـــكا: حيوان ثديي يشـــبه الخروف، يعيش في أمريـــكا الجنوبية، له صوف طويل وناعم [المترجم].

أدخل يده في القفص، فطار الطائر إلى الخلف، وهو يضرب الأماليد بجناحيه.

«أنت سخيف»، قال الشاب للطائر، ثم أخرج يده من القفص. «سأتركه مفتوحا».

انكب على وجهه على السرير، واضعا ذقنه على ذراعيه المثنيتين، وراح يصغي. سمع الطائر يفر من القفص، ثم سمعه يغرد على إحدى أشجار الغار.

خطر بباله أنه من السخف أن يحتفظ بطائر إذا كان البيت مهجورا. «إن الحماقة هي سبب كل المتاعب. كيف لي أن ألوم الآخرين إذا كنت أنا على هذه الدرجة من الغباء؟».

كان الأولاد لا يزالون يلعبون كرة البيسبول في الأرض المهجورة، وأصبح الجو باردا الآن. نزع قراب مسدسه الجلدي عن كتفه، ووضع مسدسه الكبير عند ساقه، ثم نام.

عندما استيقظ كان الظلام قد حل، وكانت مصابيح الشارع تتلألأ من بين أوراق الأشجار. نهض ومشى إلى مقدمة المنزل، فعاين الشارع من أوله إلى آخره. فعل هذا وهو يحتمي بظل الجدار. كان رجل يعتمر قبعة قش رقيقة الحافة، مسطحة من الأعلى، يجلس تحت شجرة عند الزاوية. لم يكن في استطاعة إنريك رؤية لون معطفه أو بنطاله، لكنه كان زنجيا.

أسرع إنريك إلى آخر الشرفة، لكن لم تكن هناك من إضاءة سوى ما تبثه النوافذ الخلفية للبيتين المجاورين على الحقل المعشب. قد يكون في الخلف أي عدد من الناس قد يخطر

بالبال. كان يعلم هذا، إذ إنه لم يعد يسمع كما كان في العصر، لأن مذياعا كان يصدح في البيت الثاني.

فجأة سمع الشاب صوت صفارة إنذار يتعالى آليا، فشعر بموجة من القشعريرة الواخزة تجتاح فروة رأسه. فاجأته كما يفاجئ احمرار الخجل إنسانا، وسفعته بحرارتها الواخزة، ثم تلاشت فجأة كما أتت. كانت صفارة الإنذار جزءا من إعلان في المذياع، تبعها صوت المذيع: «معجون أسنان غافس. لا يتغير، لا يعلى عليه، لا شيء أفضل منه».

ابتسم إنريك في الظلام. لقد آن لأحدهم أن يأتي.

وبعد صفارة الإنذار في الإعلانات المسجلة، سمع طفلا يصرخ، فيقول المذيع إنه لا يشبعه سوى «مالتا - مالتا»[51]، ثم بوق سيارة يطلب صاحبها بنزينا أخضر. «لا أريد سماع أي حكاية، بل أريد بنزينا أخضر. إنه اقتصادي، أميال أكثر بوقود أقل. إنه الأفضل».

كان إنريك يحفظ كل الإعلانات عن ظهر قلب. فهي لم تتغير طوال الأشهر الخمسة عشر التي قضاها في الحرب. ومع أن الإذاعة لا تزال تستخدم ذات الأسطوانات، فقد استطاعت صفارة الإنذار أن تخدعه، وتبعث فيه قشعريرة واخزة اجتاحت فروة رأسه، وكانت بلا شك بمنزلة استشعار بالخطر، تماما كما يستشعر كلب صيد دفء رائحة الطريدة.

لم يشعر بتلك القشعريرة عندما بدأ. لقد جعله الخطر والخوف منه يشعر بالخواء في يوم من الأيام. لقد أوهناه كما

(٥١) مالتا: كلمة إسبانية تعني النقيع الذي يصنع من دقيق الحبوب (لا سيما الشعير)، ويستخدم غذاء للأطفال [المترجم].

توهنك الحمى، فعرف معنى العجز عن الحركة مثلما يعجز امرؤ عن قســر رجليه على التقدم لأن رجليه حــل بهما إما موات أو سبات. أما الآن فقد ولى كل هذا إلى غير رجعة، وهان عليه فعل أي شيء يجب عليه فعله. أما القشعريرة فكانت مما يتبقى لدى الشــجعان من مقدرة أولية واسعة على الخوف. إنها كل ما تبقى له من ردة فعل على استشــعاره للخطر، أما التعرق فهو يعلم أنه سيلازمه دوما وأنه الآن صار بمنزلة ناقوس للخطر ليس إلا.

وبينما راح ينظر إلى الشجرة التي يجلس صاحب قبعة القش على حرف الرصيف تحتها، ســقطت حجرة على أرض الشرفة. فتش عنها إنريــك بحذاء الجدار فلم يجدهــا. دس يديه تحت الســرير فلم يجدها. وبينما هو راكع، سقطت حصاة أخرى على قرميد الشــرفة، ثم تدحرجت إلى الزاويــة باتجاه واجهة البيت المطلة على الشــارع. التقطها إنريك، فكانت حصاة عادية ناعمة الملمس، فوضعها في جيبه، ودخل المنزل، وهبط الدرج إلى الباب الخلفي.

انتحى إلى أحد جانبي الباب، ثم أخرج المســدس من قرابه، وأمسك به، فشعر بثقله في يده اليمنى.

«النصر»، قال الشــاب بصوت خفيض جدا بالإسبانية، وفمه يزدري هذه اللفظة، ثــم انتقل بهدوء على قدميه الحافيتين إلى الناحية الأخرى من الباب.

«لمن يســتحقونه»، قال أحدهم مــن وراء الباب. كان الصوت صوت امرأة يكمل الجزء الثاني من كلمة الســر، وكانت تتحدث بسرعة واضطراب.

أرجع إنريك الرتاج المزدوج وفتح الباب بيسراه، بينما المسدس في يمناه.

وقفت في الظلام فتاة تحمل سلة، وتضع منديلا على رأسها.

«مرحبا»، قـال لها ثم أغلق الباب بالرتاج. كان في إمكانه أن يسمع أنفاسها في الظلام. أخذ منها السلة وربت على كتفها.

«إنريك»، قالت له، ولم يكن يعرف كيف كانت عيناها تتألقان أو كيف يبدو وجهها.

«تعالي إلى فوق»، قال لها. «هناك شـخص يراقب البيت من الأمام. هل رآك؟».

«لا»، قالت له. «لقد جئت عبر الأرض المهجورة».

«سأريك إياه. تعالي إلى الشرفة».

صعدا الدرج، وإنريك يحمل السـلة. وضع السـلة إلى جانب السرير، ثم ذهب إلى حرف الشرفة ونظر. كان الزنجي صاحب قبعة القش الرقيقة الحافة المسطحة من الأعلى قد اختفى.

«هكذا»، قال إنريك بصوت هادئ.

«هكذا ماذا؟». سـألت الصبية التي كانت تمسك بذراعه الآن وتنظر إلى الخارج.

«هكذا اختفى. ماذا جلبت من أكل؟».

«أنا آسفة لأنك بقيت وحدك طوال اليوم. لقد كان في منتهى الغباء أن يفرض علي أن أنتظر حلول الظلام حتى آتيك. لقد كان بودي أن آتيك في النهار».

«بل إن وجودي هنا في منتهى الغباء. لقد جاءوا بي من القارب إلى هنا قبل طلوع الفجر وتركوني في منزل مراقب ليس لي فيه

زاد إلا كلمة سر لا تسمن ولا تغني من جوع. كان يجب ألا أوضع في بيت يراقبه الآخرون. هكذا هم الكوبيون. لكننا فيما سلف من الأيام كنا نأكل على الأقل. أخبريني عن أحوالك، يا ماريا».

قبلته في الظلام على فمه قبلة مشتاق. أحس بوخز الألم يتقد في أسفل ظهره.

«آااي! انتبهي».

«ما بك؟».

«ظهري».

«ما به ظهرك؟ هل أنت جريح؟».

«عليك أن تريه»، قال لها.

«هل يمكن أن أراه الآن؟».

«ترينه لاحقا. علينا أن نأكل ثم نخرج من هنا. ما الذي خزنوه هنا؟».

«أشياء كثيرة. ما تبقى من انتكاسة نيسان. أشياء تركوها للمستقبل».

«المستقبل البعيد»، قال لها. «هل كانوا يعرفون أنه مراقب؟».

«لست متأكدة».

«ماذا فيه؟».

«هناك بعض البنادق في أكياس. وهناك صناديق ذخيرة».

«يجب أن ينقل كل شيء الليلة». كان فمه ممتلئا. «ستمر علينا سنوات طويلة من العمل قبل أن نحتاج إلى هذا».

«هل أعجبتك أكلة الإسكابيشه؟»[٥٢].

---

(٥٢) الإسكابيشه: سمك مخلل [المترجم].

«إنها جيدة. اجلسي قريبا مني».

«إنريك»، قالت له، وقد التصقت به. وضعت يدها على فخذه، وبيدها الأخرى مسدت رقبته من الخلف. «إنريكي أنا».

«المسيني بحذر»، قال لها، وهو يأكل. «إن ظهري يؤلمني».

«هل أنت سعيد بعودتك من الحرب؟».

«لم يخطر هذا الأمر ببالي»، قال لها.

«إنريك، كيف هي حال شوشو؟».

«لقد مات في لريدا».

«وفلپي؟».

«لقد مات. أيضا في لريدا».

«وآرتورو؟».

«مات في تريول».

«وفسنتي؟». سألته بصوت خال من أي نبرة، ويداها مثبتتان على فخذه الآن.

«لقد مات. في الهجوم على الطرف الآخر من الطريق في سلادس».

«ولكن فسنتي أخي». تخشبت في جلستها الآن وأبعدت يديها عن فخذه.

«أعلم ذلك»، قال إنريك، وهو يتابع الأكل.

«إنه أخي الوحيد».

«ظننتك تعلمين»، قال إنريك.

«لم أكن أعلم، وهو أخي».

«أنا آسف يا ماريا. كان علي أن أخبرك بطريقة أخرى».

«لقد مات، هل تعلم أنه مات، أم أنك سمعت هذا فقط؟».

«اسمعي. أنا وروجيو، وباسيليو، وإستبان، وفيلو أحياء. أما الباقون فقد ماتوا».

«جميعا؟».

«جميعا»، قال إنريك.

«لا أطيق هذا الأمر»، قالت ماريا. «أرجوك، لا أطيق هذا الأمر».

«لا فائدة من مناقشة الأمر. لقد ماتوا».

«ليست المسألة هي أن فسنتي أخي، فأنا قادرة على التخلي عن أخي. إنهم زهرة حزبنا».

«أجل. زهرة الحزب».

«ليس في الأمر ما يستحق. لقد دمر هذا الأمر أفضل ما عندنا».

«بل في الأمر ما يستحق».

«كيف تقول ذلك؟ هذه جريمة».

«لا، فالأمر يستحق ذلك».

راحت تنتحب، وواصل هو أكله. «لا تنتحبي»، قال لها. «ما علينا أن نفعله الآن هو أن نفكر فيما يجب عمله لكي نحل محلهم».

«لكنه أخي. ألا تفهم؟ إنه أخي».

«نحن جميعا إخوة. بعضنا مات، وبعضنا الآخر على قيد الحياة. إنهم يرسلوننا الآن إلى أوطاننا، وهذا يعني أن بعضنا سيبقى على قيد الحياة. وإلا لن يبقى أحد. والآن علينا أن نعمل».

«ولكن لماذا قتلوا جميعا؟».

«لقد كنا مع فرقة مهاجمة. فكنا إما نقتل أو نجرح. نحن أيضا جرحنا».

«كيف قتل فسنتي؟».

«لقد كان يعبر الطريق عندما أصابه رشاش يطلق النار من منزل ريفي على اليمين. كانت الرمايات المركزة على الطريق تنطلق من ذلك المنزل».

«هل كنت هناك؟».

«نعم، كنت قائد السرية الأولى. كنا على يمينه. لقد استولينا على المنزل، لكن هذا استغرق بعض الوقت. كانت لديهم ثلاثة مدافع رشاشة: اثنان في المنزل، وواحد في الإسطبل. كان الاقتراب من ذلك المنزل عسيرا، لذلك كان علينا أن نقصفه بالدبابة كي نتمكن من تدمير آخر رشاش. فقدت ثمانية من رجالي، وهذا عدد كبير».

«أين حدث هذا؟».

«في سلادس».

«لم أسمع بهذا من قبل».

«طبعا»، قال إنريك. «كانت العملية فاشلة. لن يسمع بها أحد. هناك قتل فسنتي وإغناسيو».

«وأنت تقول إن هذه الأمور مبررة؟ أن يموت رجال كهؤلاء في عمليات فاشلة في بلد أجنبي؟»[٥٢].

«البلاد التي ينطق أهلها بالإسبانية ليست بلادا أجنبية،

---

(٥٢) البلد الأجنبي المقصود هنا هو إسبانيا التي كانت تدور فيها حرب أهلية [المترجم].

يا ماريـــا. لا يهم أين يموت المرء إذا كان يموت من أجل الحرية. على أي حال، ما علينا أن نفعله هو أن نعيش لا أن نموت».

«لكن فكر فيمن ماتوا بعيدا من هنا وفي عمليات فاشلة».

«لم يذهبوا ليموتوا. بل ذهبوا ليقاتلوا. أما موتهم فهو حادث عرضي».

«ولكنهـــم ماتـــوا في عمليات فاشـــلة. أخي مـــات في عملية فاشلة. وشوشو مات في عملية فاشلة. وإغناسيو مات في عملية فاشلة».

«لقد كانت هذه العمليات مجرد جزء. لقد كانت بعض الأشياء التـــي توجب علينا إنجازها مســـتحيلة. كما أن أشـــياء بدت لنا مستحيلة أنجزناها. في بعض الأحيان كان الناس على يميننا أو يســـارنا لا يهاجمون. وفي أحيان أخـــرى لم يكن هناك ما يكفي من المدافـــع. وفي بعض الأحيان كنا نؤمر بـــأداء مهمات بقوات لا تكفي، كما في ســـلادس. هذه هي أســـباب الفشل. لكنها في النهاية ليست فشلا».

لم تجبه بشيء، وأنهى هو طعامه.

راحت الريح تنشـــط بين الأشجار الآن، وصار الجو باردا في الشـــرفة. أعاد الصحون إلى السلة ومســـح فمه بالمنديل. مسح يديه بعناية ثم طوق الفتاة بذراعه. كانت الفتاة تنتحب.

«لا تنتحبي، يا ماريا»، قال لها. «لقد جرى ما جرى. علينا أن نفكر فيما يجب فعله. وهناك كثير من هذا».

لم تقل شـــيئا، وعلى ضوء مصباح الشارع كان في إمكانه أن يرى أنها تسدد نظراتها إلى الأمام.

«علينا أن نكف عن رومانسيتنا الحالمة. وهذا المكان مثال على تلك الرومانسية. علينا أن نوقف الإرهاب. علينا أن ننطلق كي لا نقع مرة أخرى في المغامرة الثورية».

ظلت الصبية صامتة، ونظر إلى وجهها الذي لم يكن يشغله عنه في تلك الأشهر سوى عمله.

«أنت تتحدث ككتاب، لا كإنسان»، قالت له.

«أنا آسف»، قال لها. «فما هذه إلا دروس تعلمتها، وأشياء أعلم أن علينا أن نقوم بها. وهي بالنسبة إلي أكثر واقعية من أي شيء سواها».

«كل ما هو واقعي بالنسبة إلي هم أولئك الموتى»، قالت له.

«نحن نجلهم، لكنهم ليسوا مهمين».

«ها أنت تتحدث مثل كتاب مرة أخرى»، قالت له غاضبة. «إن قلبك كتاب».

«أنا آسف، يا ماريا. لكنني ظننتك ستفهمين».

«كل ما أفهمه هو الأموات»، قالت له.

كان يعلم أن هذا ليس صحيحا لأنها لم ترهم وهم ميتون كما رآهم هو تحت المطر في بساتين الزيتون في خراما، أو في الشمس اللاهبة في بيوت إكويخورنا المدمرة، أو في الثلج في تريويل. لكنه كان يعلم أنها تلومه لأنه ظل على قيد الحياة وفسنتي مات، وفجأة أحس بها تجرح مشاعره جرحا عميقا، أحس بذلك في ذلك الجزء الصغير الذي تبقى له من طبيعته البشرية غير المروضة، ذلك الجزء الذي ظنه غير موجود.

«كان هنا طائر»، قال لها. «طائر محاك في قفص».

«نعم».

«وأطلقت سراحه».

«ما ألطفك!» قالت له ساخرة. «هل كل الجنود مرهفو الأحاسيس؟».

«أنا جندي جيد».

«أصدقك. فأنت تتحدث مثل جندي جيد. لكن أي نوع من الجنود كان أخي؟».

«جيد جدا. أكثر ميلا للمرح مني. أنا لم أكن ميالا للمرح. وهذه نقيصة».

«لكنك تمارس النقد الذاتي وتتحدث مثل كتاب».

«لو كنت ميالا للفرح لكان ذلك أفضل»، قال لها. «لم أتمكن من تعلم هذه الصفة».

«أما محبو المرح فقد ماتوا جميعا».

«لا»، قال لها. «إن باسيليو يحب المرح».

«إذن، سيموت»، قالت له.

«ماريا، لا تتحدثي هكذا. أنت تتحدثين كالانهزاميين».

«وأنت تتحدث مثل كتاب»، قالت له. «أرجوك لا تلمسني. إن لك قلبا جافا وأنا أكرهك».

ها هو يجرح ثانية، هو الذي ظن قلبه جافا، وأن لا شيء يمكن أن يؤلمه سوى الألم، فجلس على السرير ومال إلى الأمام.

«ارفعي كنزتي»، قال لها.

«لا أريد».

رفع كنزته من الخلف ثم مال إلى الأمام، وقال لها: «انظري هناك، يا ماريا. فهذا لم يأت من كتاب».

«لا أرى»، قالت له. «ولا أريد أن أرى».

«ضعي يدك على أسفل ظهري».

أحس بأصابعها تلامس ذلك المكان الكبير الغائر الذي يمكن أن يتسع لكرة بيسبول، وذلك الجرح البشع الذي اتسع ليد الجراح التي كانت ترتدي قفازا مطاطيا لتنظفه، ذلك الجرح الذي امتد على امتداد ظهره من الأسفل. شعر بها وهي تتلمسه فانكمش على نفسه من الداخل. ، ثم شعر بعد ذلك كمن يجرفه السيل، وزال الألم عندما جلس وحيدا، يتصبب عرقا، بينما ماريا تبكي وتقول، «أوه، يا إنريك. سامحني. سامحني، أرجوك».

«لا عليك»، قال إنريك. «لا يوجد ما يستحق أن تطلبي المغفرة من أجله. لكنه لم يأت من أي كتاب».

«ولكن هل يؤلمك دوما؟».

«فقط عندما ألمس أو أصدم».

«وماذا عن النخاع الشوكي؟».

«لم يمس إلا قليلا. وكذلك الكليتان، لكنهما بخير. لقد دخلت شظية القذيفة من جهة وخرجت من الجهة الأخرى. هناك جروح أخرى إلى الأسفل وعلى ساقي».

«أرجوك سامحني يا إنريك».

«لا يوجد ما يستحق أن تطلبي المغفرة من أجله، وأنا آسف لأنني لست ميالا للمرح».

«يمكننا أن نمرح بعد أن يشفى جرحك».

«أجل».

«وسيشفى».

«أجل».

«وسأعتني بك».

«لا. بل أنا سأعتني بك. لست أكترث لهذا الشيء. ما يؤلمني هو الألم الناتج عن اللمس أو الاصطدام. أما الجرح فلا يؤلمني. والآن علينا أن نعمل. علينا أن نغادر هذا المكان فورا. كل الأشياء الموجودة هنا يجب أن تنقل الليلة. يجب أن تخزن في مكان جديد لا يشتبه فيه أحد، وفي مكان لا يعرضها للتلف. سيمر وقت طويل قبل أن نحتاج إليها. لدينا كثير مما نقوم به قبل أن نصل إلى تلك المرحلة مرة أخرى. يجب توعية الكثيرين. وعندئذ قد لا تعود هذه الخراطيش صالحة. فهذا الطقس يفسد الفتيل. وعلينا أن نذهب الآن. لقد كنت أحمق في بقائي هنا كل هذه المدة، والأحمق الذي وضعني هنا سيتعرض للمساءلة من قبل اللجنة».

«أنا جئت لآخذك إلى هناك الليلة. لقد ظنوا أن هذا البيت آمن لبقائك فيه اليوم».

«بل إن هذا البيت سيكلفنا كثيرا».

«سنذهب الآن».

«كان علينا أن نذهب من قبل».

«قبلني يا إنريك».

«سنفعل، لكن بحذر شديد»، قال لها.

ثم تحامل على نفسه، وأغمض عينيه، فإذا بالسعادة تغمره ولا ألم، ويشعر فجأة بأنه في وطنه ولا ألم، ويعود إليه دفق

الحياة ولا ألم، وينعم بسلوى الحب ولا ألم، وبينما هما كذلك، شق السكون صوت صفارة الإنذار، باترا، مباغتا، يتصاعد كأن ألم الدنيا كلها ينهض معه فجأة. إنها صفارة إنذار حقيقية، لا صفارة إعلان في الإذاعة. ولم تصدر صفارة واحدة، بل اثنتان. كانتا قادمتين من الشارع من كلتا جهتيه.

أدار رأسه ثم نهض. خطر له أن مجيئه إلى الوطن لم يدم طويلا.

«اخرجي من الباب واذهبي عبر الأرض المهجورة»، قال لها. «هيا. يمكنني أن أشاغلهم بالنار من هنا».

«بل اذهب أنت»، قالت له. «أرجوك، سأبقى هنا لمشاغلتهم بالنار ليظنوا أنك في الداخل».

«هيا بنا، سنذهب كلانا»، قال لها. «لا يوجد ما يدافع عنه هنا. فهذه الأشياء عديمة النفع. ويجدر بنا أن نهرب».

«أريد أن أبقى»، قالت له. «أريد أن أحميك».

مدت يدها نحو المسدس المعلق في القراب تحت ذراعه، فصفعها على وجهها. «هيا بنا. لا تكوني سخيفة. هيا».

هبط الدرج وشعر بها على إثره. فتح الباب بعنف، وعندما صارا خارجه، استدار وأغلق الباب. «اركضي، يا ماريا»، قال لها. «اركضي عبر الأرض المهجورة في ذلك الاتجاه. هيا».

«أريد أن أذهب معك».

صفعها مرة أخرى صفعة سريعة. «اركضي. ثم انبطحي بين العشب وازحفي. سامحيني يا ماريا. لكن عليك أن تذهبي. أنا سأذهب في الاتجاه الآخر. هيا»، قال لها. «عليك اللعنة، اذهبي».

انطلقا باتجاه العشب في آن معا. وبعد أن ركض عشرين خطوة انبطح أرضا وراح يزحف، وكانت سيارات الشرطة قد توقفت أمام المنزل وصفارات الإنذار قد سكتت.

كان غبار الطلع يتناثر من الأعشاب في وجهه، وبينما كان يزحف بثبات، كانت النباتات الرملية الشائكة تلسع يديه وركبتيه لسعا حادا دقيقا، وسمعهم يطوقون المنزل.

ظل يزحف، ويرهق نفسه بالتفكير، غير آبه بالألم.

«ولكن لماذا صفارات الإنذار؟ لماذا لا توجد سيارة ثالثة من الخلف؟ لماذا لا يوجد ضوء كاشف مسلط على هذا الحقل؟ كوبيون!» قال في نفسه. «هل يمكن أن يكونوا على هذه الدرجة من الغباء والزيف؟ لا بد أنهم ظنوا أن لا أحد في المنزل. لا بد أنهم جاءوا للاستيلاء على الأسلحة فقط. ولكن لماذا صفارات الإنذار؟».

سمعهم وهم يقتحمون الباب خلفه. لقد طوقوا المنزل من كل الجهات. سمع صفارة تنطلق مرتين من مكان قريب من المنزل، فتابع زحفه بثبات.

«يا لهم من مغفلين!» قال في نفسه. «لكن لا بد أنهم اكتشفوا السلة والصحون الآن. يا لهؤلاء الناس! ما هكذا تقتحم البيوت!».

أصبح الآن على حافة الأرض المهجورة تقريبا، وكان يعلم أن عليه أن ينهض وينطلق بأقصى سرعة، ليعبر الطريق ويلجأ إلى البيوت البعيدة. كان قد اكتشف طريقة للزحف لا تؤلمه كثيرا. كان يستطيع أن يؤقلم نفسه مع أي حركة، لكن التغيرات العنيفة

المفاجئة هي التي كانت تؤلمه، وكان يرتعب من النهوض على قدميه.

نهض على إحدى ركبتيه بين الأعشاب، وتحمل صعقة الألم، وتحامل على نفسه، وتحمل الصعقة الثانية عندما جذب قدمه الأخرى نحو ركبته استعدادا للنهوض.

راح يعدو نحو البيت على الطرف الآخر من الطريق في آخر قطعة الأرض التالية، عندما سلطت عليه الأنوار الكاشفة فجأة، فإذا به يقف وسطها، ويتطلع إليها، فيرسم الظلام خطا حادا على كلا جانبيها.

سلطت عليه الأنوار الكاشفة من سيارة الشرطة التي جاءت بلا صفارة إنذار وتمركزت في إحدى زوايا قطعة الأرض الخلفية.

عندما نهض إنريك على قدميه، والأنوار ترسم ملامحه نحيفا، هزيلا، راح يسحب مسدسه الكبير من قرابه تحت إبطه، عاجلته الرشاشات بنارها من السيارة المطفأة الأنوار.

شعر كأن عصا تضربه على صدره، لكنه لم يشعر سوى بالأولى. أما الضربات التالية فلم تكن سوى أصداء.

انكب متهاويا على وجهه بين الأعشاب، وبينما هو يتهاوى، أو ربما في الفترة الفاصلة بين تسليط الأضواء عليه ورشقه بأول رصاصة، خطر له هذا الخاطر: «إنهم ليسوا على تلك الدرجة من الغباء التي ظننتها. لعل شيئا يمكن القيام به إزاءهم».

ولو كان لديه وقت لخاطر آخر، لتمنى ألا تكون هناك سيارة في الزاوية الأخرى. لكن الزاوية الأخرى كانت فيها سيارة تسلط أضواءها الكاشفة على الحقل. وكانت حزمتها الضوئية العريضة

تصول وتجول فوق الأعشــاب حيث تختبــئ الصبية ماريا. كان الرماة في السيارة المطفأة الأنوار يتابعون تمشيط الحقل بحزمة النور، وأيديهم على أزندة رشاشاتهم القبيحة البارعة، من طراز تومسن، ذات الفوهات المخددة.

كان زنجي يقف في ظل الشجرة خلف السيارة المطفأة الأنوار التي كانت تسـلط أنوارها الكاشفة. كان يعتمر قبعة قش رقيقة الحافة، مسـطحة من الأعلى، ويلبس معطفا من صوف الألپكا. وكان يلبـس تحت قميصه عقدا من خرزات الڤودو الزرقاء. كان يراقب الأضواء بهدوء.

كانت الأضواء الكاشــفة تصول وتجول فوق حقل الأعشــاب الذي تنبطح على أرضــه الصبية وذقنها في التراب. لم تتحرك قط منذ أن ســمعت رشقة الرصاص الأولى. كان في إمكانها أن تشعر بقلبها وهو يخفق على الأرض.

«هل تراها»، سأل أحد الرجال في السيارة.

«قل لهم أن يمشــطوا الأعشــاب من الجهة الأخرى»، قال المــلازم الجالس فــي المقعد الأمامي. ثم نــادى على الزنجي الواقف تحت الشجرة، «اذهب إلى المنزل وقل لهم أن يمشطوا الأعشــاب باتجاهنا وعلى نحو مكثف. ألا يوجد سوى هذين الاثنين؟».

«لا أحد ســواهما»، قال الزنجي بصوت خفيض. «لقد تمكنا من أحدهما».

«اذهب».

«حاضر، سيدي الملازم».

أمســك قبعته بكلتا يديه وراح يعدو على حافة الحقل باتجاه المنزل الذي صارت الأضواء الآن تنطلق من كل نوافذه.

كانــت الصبيــة تنبطح في الحقــل ويداها متشــابكتان فوق رأسها. «ساعدني على تحمل هذا الأمر»، قالت وفمها مدسوس في الأعشــاب، ولــم تكن توجــه حديثها إلى أحد لأنــه لم يكن هناك أحد. ثم راحت تنشــج فجأة، وتخاطب أشخاصا بعينهم، «ساعدني، يا فسنتي. ســاعدني، يا قلبي. ساعدني، يا شوشو. ساعدني، يا آرتورو. ساعدني الآن، يا إنريك. ساعدني».

لو كانت في غير هذه اللحظــة، لصلت، لكنها فقدت قدرتها على الصلاة، وهي الآن في حاجة إلى شيء.

«ســاعدوني على ألا أتكلم إن أخذوني»، قالت وفمها يلتصق بالعشــب. «امنعني من الحديث، يــا إنريك. امنعني من الحديث أبدا، يا فسنتي».

كانت تســمعهم يمشــطون الأعشــاب خلفها كأنهــم صيادو أرانب. كانوا ينتشــرون على نطاق واســع ويتقدمون كالمشتركين في مناوشة، ويسلطون مصابيحهم الكهربائية على الأعشاب.

«ساعدني، يا إنريك»، قالت الصبية.

أنزلت يديها من فوق رأسها وضمتهما إلى جانبيها، قائلة، «هكذا أفضل. إن ركضت سيطلقون النار عليَّ. وهذا أهون الشرين».

نهضــت ببــطء وركضت باتجاه الســيارة. ســلطت الأضواء الكاشــفة عليها تماما، فلما رأتها راحت تعدو، لا ترى ســواها، نحــو عينها البيضاء التي تعمي الأبصــار. خطر لها أن هذا هو السلوك الأمثل.

كانوا يصيحون من ورائها، لكنهم لم يطلقوا عليها النار. عرقلها أحدهم بقدمه، فتعثرت واقعة على الأرض. كانت تسمع أنفاسه عندما أمسك بها.

وضعها شخص آخر تحت ذراعه ثم رفعها. أمسك بها الاثنان من ذراعيها وجرَّاها إلى السيارة. لم يستعملا القسوة معها، لكنهما جرَّاها جرًّا إلى السيارة.

«لا، لا، لا»، قالت لهما.

«إنها أخت فسنتي إرتوبه»، قال الملازم. «ستكون نافعة لنا».

«لقد جرى استجوابها من قبل»، قال آخر.

«ليس بصورة جدية».

«لا، لا، لا»، صرخت بصوت عال. «ساعدني يا فسنتي! ساعدني، ساعدني، يا إنريك!».

«إنهم أموات»، قال لها أحدهم. «ولن يساعدوك. فلا تكوني سخيفة».

«بل سيساعدونني. إن الأموات هم الذين سيساعدونني. أجل، أجل، أجل. إن موتانا هم الذين سيساعدونني».

«إذن، ألقي نظرة على إنريك»، قال لها الملازم. «انظري إن كان سيساعدك. إنه خلف تلك السيارة».

«إنه يساعدني الآن»، قالت الصبية ماريا. «ألا ترى أنه يساعدني الآن؟ شكرا لك، يا إنريك. أوه، شكرا لك».

«هيا بنا»، قال الملازم. «إنها مجنونة. اتركوا أربعة رجال لحراسة المصادرات وسنرسل لكم شاحنة لتأخذها. سنأخذ هذه المجنونة إلى مقر القيادة حيث يمكنها أن تتحدث هناك».

«لا»، قالت له ماريا، وقد أمسـكت بـه من ردنه. «ألا ترى أن الكل يساعدونني الآن؟».

«لا»، قال الملازم. «أنت مجنونة».

«لا أحد يموت من أجل لا شيء»، قالت ماريا. «الكل يساعدني الآن».

«دعيهم يساعدوك بعد ساعة تقريبا»، قال لها الملازم.

«سـيفعلون»، قالت ماريا. «أرجوك، لا تقلق. فالكثير، الكثير يساعدونني الآن».

جلست رابطة الجأش وهي تسند ظهرها على مسند المقعد. بـدت الآن كأن ثقة غريبة تتملكها. لقد كانت الثقة نفسـها التي تملكـت صبية أخرى فـي عمرها منذ أكثر من خمسـمائة عام بقليل في سوق مدينة تدعى روين(٥٤).

لـم يخطر هذا في بال ماريا. ولا في بال أي من الجالسـين في السيارة. لم يكن يجمع بين هاتين الفتاتين، جان وماريا، سوى هذه الثقة الغريبة المفاجئة التي تملكتهما ساعة حاجتهما إليها. لكن كل أفراد الشـرطة الجالسين في السيارة انتابهم القلق إزاء ماريا التي جلسـت منتصبة الظهر ووجهها يتألق تحت المصابيح المقوسة.

انطلقت السـيارات وكان الرجال في المقعد الخلفي للسيارة الأماميـة يضعون الرشاشـات في أكياس القنـب الثقيلة، حيث ينزعـون مقابضهـا ويضعونهـا في جيـوب الأكيـاس المائلة،

---

(٥٤) الفتاة المعنية هنا هي المناضلة الفرنسية جان دارك (١٤١٢ - ١٤٣١) التي قاتلت الإنجليز في حرب المائة عام [المترجم].

والسـبطانات مع حاضناتها اليدوية في الجراب الكبير المتهدل، والمخازن في الجيوب الضيقة المتشابكة كأنها شباك العنكبوت.

خرج الزنجي، صاحب قبعة القش المسـطحة، من ظل المنزل وأوقـف السـيارة الأولى. ركـب في المقعد الأمامـي إلى جانب راكب ثان يجلس بجانب السـائق، ثم انعطفت السـيارات الأربع نحو الطريق الرئيسـي الذي ينضـم إلى الطريق البحري باتجاه هافانا.

كان الزنجـي يجلس محشـورا في المقعد الأمامي للسـيارة عندما مـد أصابعه تحت قميصه ووضعهـا على خيط خرزات الڤودو الزرقاء. كان يجلس صامتا، وأصابعه تمسـك بالخرزات. كان يعمل في حوض السـفن قبـل أن يحصل على وظيفة مخبر لدى شـرطة هافانا، وسيحصل على خمسين دولارا لقاء ما قام بـه من عمل هذه الليلة. خمسـون دولارا مبلغ كبير من المال في هافانـا، لكن الزنجي لم يعد يفكر في المال. وعندما بلغوا طريق «مالكون» المضاء، أدار رأسـه قليلا وبطيئا، ثم التفت إلى الوراء فرأى الصبية مشرقة الوجه، مرفوعة الرأس، عزيزة.

ارتعب الزنجي، فمرر أصابعه جميعا على عقد خرزات الڤودو الزرقاء وأمسـكها بإحكام. لكنها لم تخفف من روعه، لأنه وجد نفسه الآن في مواجهة سحر أكثر قدما.

الأسد الطيب
[١٩٥١]

في يوم من الأيام كان هناك أســـد يعيش مع بقية الأسود في أفريقيــا. كانت الأســـود الأخرى جميعا شــريرة. فكل يوم كانت تـــأكل حمر الوحش، وثيران النو، والوعــول. وفي بعض الأحيان كانت الأسود الشريرة تأكل البشر أيضا. كانت تأكل السواحليين والأمبولـــو والواندوروبـــو، وكانت تفضل بشـــكل خـــاص التجار الهندوس، لأنهم سمان لذيذون.

لكن هذا الأســـد، الذي نحبه لطيبته الزائدة، كانت له أجنحة علـــى ظهـــره. ولأنه كانت لـــه أجنحة على ظهره، كانت الأســـود الأخرى تسخر منه.

«انظروا إلى تلك الأجنحة على ظهره»، كانوا يقولون وينفجرون ضاحكين.

«انظروا إلى ما يأكل»، كانوا يقولون لأن الأسد، لشدة طيبته، لم يكن يأكل سوى الپاستا(٥٥) والقريدس.

كانت الأسود الشريرة تزمجر ضاحكة ثم تأكل تاجرا هندوسيا آخر، وتشـــرب زوجاتها دمه وتلعقه بألسنتها مثل كبار القطط. لم تكن تتوقف إلا لتهر أو تزمجر ضاحكة على الأسد الطيب، أو لتسخر من أجنحته. لقد كانت حقا أسودا شريرة خبيثة.

أما الأســـد الطيب فكان يطـــوي جناحيه ويطلب بأدب كدأبه كأســـا من النغروني أو فنجانا من الأمريكانـــو الذي اعتاد على

---

(٥٥) الباستا: نوع من أنواع المكرونة الإيطالية [المترجم].

شــريه بدلا من دم التجار الهندوس[٥٦]. وفي يوم من الأيام رفض أن يأكل ثمانية رؤوس من قطعان المساي[٥٧] واكتفى بأكل قليل من التاغلياتلي[٥٨] وشرب كأس من عصير الطماطم.

غضب منه الأســـود الأشـرار غضبا شــديدا، فقالت له أخبث اللبــؤات التي ما كانت تســتطيع أن تزيـل دم التجـار الهندوس عن شــاربيها حتى لو فـركت وجهها بالعشب، «من تظن نفســك لتتعالــى علينا؟ من أين أنت، يا آكـل الباســتا؟ ومــاذا تفعل هنــا بيننا؟». هرت في وجهــه فزمجر الآخرون جميعا من غير ضحك.

«يعيــش أبي في مدينة حيث ينتصب تحت برج ســاعة ويطل علــى ألف حمامة تخضع له جميعا. وعندما تطير تســمعون لها ضجة كأنها نهر هــادر. إن القصور في مدينة أبي أكثر مما في أفريقيــا كلها، وهنــاك أربعة أحصنة عظيمة مــن البرونز تقف قبالتــه، وكل واحد منها يرفع إحدى قوائمه في الهواء خوفا منه ورهبة.

«في مدينة أبي يمشي الناس راجلين أو في قوارب، ولا يدخل المدينة حصان حقيقي خوفا من أبي».

«إن أبــاك غرفــين»[٥٩]، قالــت اللبــؤة الخبيثــة، وهي تلعق شاربيها.

---

(٥٦) النغرونــي: نــوع من أنواع الكوكتيل، أما الأمريكانو فهو قهوة مركزة يضاف إليها الشــراب الإيرلندي والقشدة [المترجم].

(٥٧) المســاي: قوم من الرعاة الرحل يعيشــون في شــرقي أفريقيا، لا ســيما في كينيا وتنزانيا [المترجم].

(٥٨) تاغلياتلي: تسمية شائعة في شمالي إيطاليا لنوع من أنواع الباستا المعروف باسم فتوتشيني [المترجم].

(٥٩) الغرفين: حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه الآخر أسد [المترجم].

«أنت كاذب»، قال أحد الأســود الشريرة. «لا توجد مثل هذه المدينة».

«ناولوني قطعة من لحم التاجر الهندوســي»، قال أسد شرير آخر. «فلحم هذه القطعان لا يزال طازجا».

«أنت أفاق تافه وابن غرفين»، قالت له أخبث اللبؤات. «والآن يحلو لي أن أقتلك وآكلك، أنت وأجنحتك».

ارتعب الأســد الطيب كثيرا إذ رأى عينيها الصفراوين وذيلها وهو يعلو ويهبط والدم المتجمد على شــاربيها، وشم رائحة فمها الكريهة لأنها لم تكن تنظف أســنانها قط. كذلك رأى بقايا تاجر هندوسي تحت فكيها.

«لا تقتليني»، قال لها الأسد الطيب. «إن أبي أسد نبيل حظي بالاحترام دائما وكل ما قلته صحيح».

فــي هذه اللحظة بالــذات وثبت عليه اللبؤة الشــريرة، لكنه حلق في الجو بوســاطة أجنحته، وطاف مرة واحدة فوق الأسود الأشــرار التي كانت تزمجر جميعــا وتتطلع إليه. أطل عليها من عليائه وقال في نفسه: «ما أشد همجية هذه الأسود!».

ثــم طاف فوقها مرة أخــرى ليجعلها تزمجــر بصوت أعلى، وانقض هابطا كي ينظر في عيني اللبؤة الشريرة التي نهضت على قائمتيها الخلفيتين لعلها تمسك به. لكنه أفلت من مخالبها.

«أديــوس»، وداعــا، قال لها، إذ كان أســدا مثقفــا ويتحدث الإسبانية بشكل جميل.

«أو رفوار»، (وداعا)، قال للأسود بفرنسية لا يعلى عليها.

فزمجروا جميعا وهروا بلهجة الأسود الأفريقية.

ثم راح الأسد الطيب يحلق أعلى فأعلى، قاصدا مدينة البندقية. هبط في الساحة العامة وسر الجميع برؤيته. حلق لحظة وقبل أباه على خديه ورأى أن قوائم الأحصنة لا تزال معلقة في الهواء، وأن الباسيلكا أكثر جمالا من فقاعة صابون. كان برج الناقوس في مكانه، وكانت الحمائم تأوي إلى أعشاشها في المساء.

«كيف وجدت أفريقيا؟». سأله أبوه.

«شديدة الهمجية، يا أبي»، رد الأسد الطيب.

«لدينا الآن إنارة ليلية هنا»، قال أبوه.

«لقد رأيت ذلك»، قال الأسد الطيب كدأب الأولاد المطيعين.

«إنها تزعج عيني قليلا»، أسر له أبوه. «إلى أين تريد الذهاب الآن يا بني؟».

«إلى مقهى هاري»، قال الأسد الطيب.

«سلم لي على تشيرياني وقل له إني سآتي إليه قريبا لأسدد حسابي»، قال أبوه.

«أجل، يا أبي»، قال الأسد الطيب ثم نزل طائرا بتؤدة، ثم سار إلى مقهى هاري على قوائمه الأربع.

لم يتغير شيء عند تشيرياني. كان كل أصدقائه هناك. لكن مكوثه في أفريقيا قد غيره هو قليلا.

«نغروني، يا سيدي البارون؟». سأله تشيرياني.

لكن الأسد الطيب طار طوال الطريق من أفريقيا، وكانت أفريقيا قد أثرت فيه.

«هل لديك شطائر من لحم التجار الهندوس؟». سأل تشيرياني.

«لا، ولكن في استطاعتي أن أحصل عليها».

«إلى أن تحصل عليها، أعد لي كأسا من المشروب الجاف جدا مع شراب غوردن»، قال له.

«حسن»، قال تشيرياني. «حسن جدا».

راح الأسـد ينظر حوله الآن إلى وجوه الناس الطيبين فأحس أنه في وطنه لكنه لم ينس أنه قد سافر، فشعر بالسعادة.

الثور المخلص
[١٩٥١]

في يوم من الأيام كان هناك ثور واســـمه لم يكن فيردناند ولم يكــن يهتم بالزهــور[٦٠]. كان يحب القتــال، وكان يتقاتل مع بقية الثيران من سنه أو غير سنه، وكان البطل دائما.

كان قرناه متينين كالخشب ومدببين وحادين كإبرة شيهم. كانا يؤلمانه من عند جذريهما عندما يقاتل لكنه لم يكن يكترث. كانت عضلات رقبته تنتفخ على شــكل كتلة عظيمة تسمى بالإسبانية موريو، وكانت هذه الموريو تنتفخ مثل تلة عندما يستعد للقتال. كان دائما مستعدا للقتال، وكان جلده أسود لامعا، وعيناه صافيتين.

كان يتحفز للقتال لأي ســبب، وكان يقبل على القتال بحماسة مفرطــة تماما كما يقبل بعض الناس علــى الأكل أو القراءة. لم يكــن يقاتــل إلا ليقتل، ولم تكــن بقية الثيران تخشــاه لأنها من ســلالة جيدة ولا تخافه. لكنها لم تكن ترغب في اســتفزازه أو في مقاتلته.

لم يكن متنمرا ولا شريرا، لكنه كان يحب أن يقاتل تماما كما يحــب الرجال أن يغنوا أو أن يصبحوا رؤســاء أو ملوكا. لم يكن يفكر قط. كان القتال لزاما عليه وواجبا ومتعة.

كان يقاتل علــى الأرض الصخرية المرتفعة. وكان يقاتل تحت أشــجار الفلين وفي المروج الخضراء بجوار النهر. كان يمشي كل

---

(٦٠) الإشارة هنا، وإن على سبيل المعارضة، إلى كتاب منرو ليف «قصة فيردناند» (١٩٣٦) الذي يحكي قصة ثور يسمى فيردناند، يحب الزهور ويأنف من مصارعة الثيران [المترجم].

يوم خمسة عشر ميلا من النهر إلى الأرض الصخرية المرتفعة، وكان مستعدا لقتال أي ثور ينظر إليه. لكنه لا يغضب قط.

ليس هذا صحيحا في الواقع، إذ كان يغضب في قرارة نفسه. لكنه لم يكن يعلم لأنه غير قادر على التفكير. كان نبيلا جدا ويحب القتال.

إذن، فماذا حدث له؟ كان مالكه، إن كان في مقدور أي إنسان أن يملك مثل هذا الحيوان، كان يعلم عظمة هذا الثور، لكن ما كان يقلقه هو التكلفة الباهظة التي يسببها له في مقاتلته للثيران الأخرى. كان ثمن كل ثور أكثر من ألف دولار، لكن بعد أن ينازلها الثور العظيم ينخفض ثمنها إلى مائتي دولار أو أقل أحيانا.

وهكذا قرر الرجل الطيب أن يجعل دم هذا الثور يجري في عروق القطيع كله بدلا من أن يرسله إلى الحلبة ليقتل. وهكذا اختاره فحلا للاستيلاد.

لكن هذا الثور كان ثورا غريبا. إذ عندما أطلقوه في المروج مع البقرات المعدة للاستيلاد، رأى بقرة فتية جميلة، وكانت أنحف وأكثر رشاقة ولمعانا وجاذبية من البقية. وبما أنه منع من القتال، فقد وقع في غرامها ولم يكترث بالبقرات الأخرى. كان يريد أن يكون معها وحدها، أما البقية فلم تكن تعني له شيئا على الإطلاق.

كان صاحب مزرعة الأبقار يأمل أن يتغير الثور أو يتعلم أو يختلف عما كان. لكن الثور ظل كما هو، يحب من يحب ولا أحد سواها. كان يريد أن يكون معها وحدها، أما البقية فلم تكن تعني له شيئا على الإطلاق.

وهكذا أرسله الرجل ليقتل مع خمسة ثيران أخرى في الحلبة، فعلى الأقل يستطيع الثور أن يقاتل، مع أنه كان مخلصا. قاتل بشكل رائع ونال إعجاب الجميع، لاسيما الرجل الذي قتله. لكن سترة المصارعة التي كان يرتديها الرجل الذي يدعى الماتادور كانت ترشح عرقا وجف فمه جفافا شديدا.

«ما أشجع هذا الثور!» قال الماتادور وهو يناول سيفه إلى حامل السيف. ناوله السيف ومقبضه إلى الأعلى ونصله يقطر منه دم قلب الثور الشجاع الذي انتهت متاعبه جميعا، تجره أربعة خيول خارج الحلبة.

«أجل، إنه الثور الذي تعين على ماركيز بيامايور أن يتخلص منه لأنه كان مخلصا»، قال حامل السيف الذي كان يعلم كل شيء.

«لعله يجدر بنا جميعا أن نكون مخلصين»، قال الماتادور.

ليت للكفيف عينا مبصرة!
[١٩٥٧]

«وماذا فعلنا عندئذ؟». سألها، فأخبرته.

«هذا الجزء غريب جدا، فأنا لا أذكره إطلاقا».

«هل تذكر عندما بدأت الرحلة؟».

«لا أتذكرها، مع أنه يجب عليَّ أن أتذكرها. أذكر النساء وهن يسلكن الطريق إلى الشاطئ طلبا للماء، والقدور على رؤوسهن، وأذكر سرب الإوز التي كان الكلب يدفعها نحو الماء. أذكر كيف كن يتهادين في مشيتهن، وكن إما يصعدن أو يهبطن. كان المد عاليا جدا، وكانت السهول المنخفضة صفراء، وكانت القناة بمحاذاة الجزيرة البعيدة. كانت الريح تهب دائما، فلم يكن هناك ذباب أو بعوض. كان هناك سقف وأرض إسمنتية وأعمدة ينهض عليها السقف، وكانت الريح تلعب فيها باستمرار. كان الجو معتدل البرودة نهارا ورائعا ومعتدلا ليلا».

«هل تذكر الدهو[٦١] وهو ينساب مع المد المنخفض؟».

«نعم، أذكر ذلك، وأذكر كيف جاء طاقم المركب في قواربهم إلى الشاطئ وسلكوا الطريق، وكيف كانت الإوز والنساء يرتعدن خوفا منهم».

«كان ذلك يوم اصطدنا سمكا كثيرا، لكن تعين علينا العودة بسبب صعوبة الموج».

---

(٦١) الدهو: مركب شراعي كبير معروف في شواطئ الجزيرة العربية وشرقي أفريقيا [المترجم].

«أذكر ذلك».

«إنــك تتــذكــر جـيدا اليــوم»، قالت لــه. «لا تفرط في ذلك».

«آسف لأنك لم تتمكني من الطيران إلى زنجبار»، قال لها. «إن ذلك الشــاطئ العالي الذي كان يطــل على مكان إقامتنا ســابقا يصلح للهبوط. كان في إمكانك أن تهبطي وتقلعي من هناك بسهولة».

«في وســعنا أن نذهب إلى زنجبار متى شئنا. لا تحاول أن تتذكــر كثيرا اليوم. هل تريدني أن أقرأ لك؟ فهناك كثير مما فاتنا من أعداد «النيويوركر القديمة»(٦٢).

«لا، أرجــوك لا تقرئي»، قال لها. «حدثيني فقط. حدثيني عن أيامنا السعيدة».

«هل تريد أن أخبرك عن الطقس في الخارج؟».

«أعرف أنها تمطر»، قال لها.

«إنها تمطر مطرا غزيرا»، قالت له. «لن يخرج ســائح في هذا الجو الماطــر. فالريح عاصفة جــدا، ويمكننا أن نذهب ونجلس قرب الموقد».

«هــذا ممكن في كل الأحوال. لم أعد أكترث لهم. أحب أن أسمعهم يتحدثون».

«بعضهــم فظيعون، وبعضهم رائعون»، قالت له. «أعتقد أن الرائعين منهم هم الذين يخرجون إلى تورتشلو»(٦٣).

---

(٦٢) «النيويوركر»: مجلة أسبوعية تصدر في نيويورك [المترجم].

(٦٣) تورتشلو: بلدة في الشمال الشرقي من إيطاليا تقع على ساحل بحيرة البندقية [المترجم].

«هذا صحيــح تماما»، قال لها. «لــم يخطر هذا في بالي قط. في الحقيقة لا يوجد هنا ما يشاهدونه ما لم يكونوا في غاية اللطف».

«هــل يمكنني أن أعد لك مشــروبا؟». ســألته. «أنت تعلم كم أنا ممرضة فاشــلة. لم أتلق تدريبــا في هذا المجال، وليس لديَّ موهبة فيه. لكنني أستطيع أن أعد المشروبات».

«إذن لنتناول مشروبا».

«ماذا تريد؟».

«أي شيء».

«سأعد لك مفاجأة. سأعدها في الأسفل».

ســمع الباب ينفتح ثم ينغلق، وســمع قدميها تهبطان الدرج، فخطــر له: عليَّ أن أرســلها فــي رحلة. وعلــيَّ أن أجد طريقة لإقناعها بذلك. عليَّ أن أفكر في شــيء عملــي. إن ما بي الآن ســيظل معي إلى نهاية العمر، وعليَّ أن أجد الوسيلة كي لا أدمر حياتها أو أدمرها هي. لقد كانت طيبة جدا، وهي لم تخلق لتكون طيبة. أقصد طيبة كل يوم وإلى درجة الإملال.

سمعها وهي تصعد الدرج وانتبه إلى الفرق في وقع خطواتها وهي تحمل الآن كأسين وعندما نزلت الدرج خالية اليدين. سمع وقع المطر على زجاج النافذة وشــم رائحة خشب الزان المحترق في الموقد. عندما دخلت الغرفة مد يده ليتناول الكأس وضم يده عليها وأحس بها وهي تلامس كأسه بكأسها.

«إنه مشــروبنا الذي اعتدنا عليه عندما نأتي إلى هنا»، قالت له. «كامپاري وغوردن مع الثلج».

«يسرني أنك لست فتاة تقول: على الصخور».

«لا، لن أقول هذه العبارة قط»، قالت له. «يكفينا أننا كنا على الصخور»[٦٤].

«عندما بقينا وحدنا نواجه الصعاب التي ما برحت تلازمنا»، قال متذكرا. «أتذكرين متى حرمنا تلك العبارات؟».

«حدث هذا حين اصطدت أسدي. ألم يكن أسدا رائعا؟ لا أستطيع الانتظار حتى نراه».

«وأنا كذلك»، قال لها.

«أنا آسفة».

«أتذكرين متى حرمنا تلك العبارة؟».

«كدت أقولها ثانية».

«أنت تعلمين أننا محظوظون جدا لأننا جئنا إلى هنا»، قال لها. «إني أتذكرها جيدا إلى درجة تكاد تكون ملموسة. هذه كلمة جديدة وسنحرمها قريبا. لكنها رائعة حقا. عندما أسمع المطر أستطيع أن أراه على الصخور والقناة والبحيرة، وأعرف كيف تنحني الأشجار، وكيف تغرق الكنيسة وبرجها في النور. بالنسبة إلي، ما كان في إمكاننا أن نأتي إلى مكان أفضل من هذا. إنه مكان رائع حقا. لدينا جهاز راديو جيد وجهاز تسجيل رائع، وسأتمكن من الكتابة بشكل أفضل مما مضى. لو صبرت على جهاز التسجيل لتمكنت من معرفة الكلمات بدقة. يمكنني أن أعمل ببطء، ويمكنني أن أرى الكلمات عندما أقولها. فإن قيلت

(٦٤) هنا يتلاعب همنغواي بالمعنى المجازي المزدوج لعبارة on the rocks (حرفيا «على الصخور») حيث إن الأول يعني «على مكعبات جليدية» (إذ تشبه المكعبات الجليدية التي تضاف إلى المشروب بالصخور) والثاني «على شفير الهاوية» [المترجم].

بصورة خاطئة فإني أسمعها بصورة خاطئة، فأتمكن من قولها من جديد وأظل أشتغل فيها إلى أن تصبح صحيحة. فيا حبيبتي، ما كان في الإمكان أفضل مما كان».

«أوه، يا فيليب».

«اللعنة، إن الظلام هو الظلام»، قال لها. «لا يشبه هذا الظلام الحقيقي في شيء. يمكنني الآن أن أرى جيدا في الداخل ورأسي أفضل مما كان، ويمكنني أن أتذكر وأن أعوض. انتظري وسترين. ألم أتذكر اليوم بشكل أفضل؟».

«إن ذاكرتك تتحسن باستمرار، وأنت تستعيد قوتك».

«أنا قوي»، قال لها. «لكن لو...».

«لو ماذا؟».

«لو ابتعدت قليلا واسترحت من كل هذا».

«ألا تريدني معك؟».

«طبعا أريدك معي، يا عزيزتي».

«إذن، فلماذا تتحدث عن ضرورة ابتعادي؟ أنا أعلم أنني لست بارعة في الاعتناء بك لكنني أستطيع أن أقوم بأشياء لا يستطيع أن يقوم بها غيري ونحن يحب أحدنا الآخر. أنت تحبني وأنت تعرف ذلك، وأنا وأنت نعرف أشياء لا يعرفها غيرنا».

«إننا نقوم بأشياء رائعة في الظلام»، قال لها.

«وقمنا بأشياء رائعة في وضح النهار أيضا».

«أنت تعلمين أنني أفضل الظلام. وهذا تحسن إلى حد ما».

«لا تفرط في الكذب»، قالت له. «لا حاجة إلى أن تكون نبيلا إلى درجة مريعة».

«أنصتي إلى صوت المطر»، قال لها. «كيف المد الآن؟».

«لقد تراجع كثيرا، وجــاءت الريح لتدفع الماء إلى الوراء أكثر من ذلك. يمكنك أن تذهب سيرا على الأقدام إلى بيورانو»[٦٥].

«باستثناء مكان واحد»، قال لها. «هل هناك طيور كثيرة؟».

«أغلبها طيور النورس والخرشــنة. إنها تقبع في المنخفضات وعندما تطير تتلقفها الريح».

«ألا يوجد أي من طيور الشطآن؟».

«هناك عدد قليل مما يخــرج عادة في مثل هذه الريح والمد، وهي تقتات على طرف المنخفضات».

«أتظنين أن الربيع قادم؟».

«لا أعرف»، قالت له. «لا يبدو الأمر كذلك إطلاقا».

«هل شربت كل مشروبك؟».

«تقريبا. لماذا لا تشرب أنت؟».

«أردت أن أحتفظ به».

«بل اشــربه»، قالت له. «ألم يكن مريعا عندما كنت غير قادر على الشرب؟».

«لا»، قــال لها. «فــي الحقيقة، ما خطر ببالــي عندما نزلت إلى الأســفل هو أنه في إمكانــك أن تذهبي إلى باريس ثم لندن لتلتقي بالناس وتســتمتعي، وبعدها تعودين ويكون الربيع قد حل وتخبرينني عن كل شيء».

«لا»، قالت له.

---

(٦٥) بيورانو: جزيرة صغيرة تبعد ٧ كيلومترات شمال مدينة البندقية الإيطالية، وتعد اليوم أكبر مدينة خالية من السيارات في العالم [المترجم].

«أعتقد أن ذهابك فكرة ذكية»، قال لها. «أنت تعلمين أن هذا الأمر مسألة طويلة وغبية، وعلينا أن نتعلم كيف نباعد خطواتنا. ولا أريد أن أرهقك. أنت تعلمين...».

«ليتك لا تفرط في قول أنت تعلمين».

«هل رأيت؟ هـذا واحد من الأمور. يمكنني أن أتعلم الحديث بطريقة لا تزعجك. وقد تهيمين بي عندما تعودين».

«وماذا ستفعل ليلا؟».

«الليل أمره سهل».

«لا شـك عندي في أنه كذلك. وأظن أنـك تعلمت كيف تنام أيضا».

«سـأتعلم»، قـال لها ثم شـرب نصف كأسـه. «هـذا جزء مـن الخطة. أنـت تعلمين أنه هكذا سـتنجح الخطة. إن رحلت واستمتعت، فسيرتاح ضميري. وعندما يرتاح ضميري ولأول مرة في حياتي فسأتمكن من النوم تلقائيا. سأتناول وسادة فأحسبها ضميري المرتـاح وأطوقها بذراعي ثم أخلـد للنوم. وإن صادف أن اسـتيقظت فكل ما هنالك أنني سأفكر أفكارا جميلة سعيدة قذرة. أو أفكر في حلول رائعة جميلة. أو أتذكر. أنت تعلمين أنني أريدك أن تستمتعي...».

«أرجوك، لا تقل أنت تعلمين».

«سأفعل ما في وسعي كي لا أقولها. إنها عبارة ممنوعة لكنني أنسى فأرفع لها الموانع. على أي حال، لا أريدك أن تكوني مجرد عين مبصرة»[٦٦].

---

(٦٦) العين المبصرة: تعبير مجازي عن الكلب الذي يسـتخدمه العميان ليدلهم على الطريق في مسيرهم [المترجم].

«أنا لست كذلك. وبالمناسبة، لقد أخطأت القول»[٦٧].

«أعرف ذلك»، قال لها. «تعالي واجلسي هنا، إن لم يكن لديك مانع كبير».

جاءت وجلست إلى جانبه على السرير وسمعا المطر يقرع زجاج النافذة وحاول ألا يتحسس رأسها ووجهها الجميل كعادة العميان، ولم تكن هناك طريقة أخرى يستطيع أن يتحسس وجهها. ضمها إليه وقبل أعلى رأسها. خطر له هذا الخاطر: عليَّ أن أجرب الأمر في يوم آخر. يجب ألا أكون غبيا في هذا. إنها رائعة الملمس وأنا أحبها كثيرا، ولقد آذيتها كثيرا وعليَّ أن أتعلم كيف أرعاها جيدا بكل ما يمكن. لو فكرت فيها دون سواها، لسارت الأمور على ما يرام.

«لن أقول أنت تعلمين بعد الآن إطلاقا»، قال لها. «يمكننا أن نبدأ بهذا».

هزت رأسها وأحس بها ترتجف.

«قلها كما يحلو لك»، قالت له وهي تقبله.

«أرجوك، لا تبكي يا حبيبتي»، قال لها.

«لا أريدك أن تنام مع أي وسادة قذرة»، قالت له.

«لا، لن أنام مع أي وسادة قذرة».

كفى، قال لنفسه. كفاك الآن.

«اسمعي يا صغيرتي»، قال لها. «سننزل الآن ونتناول الغداء في ذلك المكان القديم الرائع بجانب الموقد، وسأخبرك كم أنت قطة رائعة وكم نحن قطتان رائعتان».

---

(٦٧) الخطأ المشار إليه هنا هو خطأ نحوي لا يمكن ترجمته، إذ يقول فيليب a seeing-eyed dog بينما الأصح في رأيها أن يقول: a seeing-eye dog [المترجم].

«في الحقيقة نحن كذلك».

«سنسوي جميع أمورنا».

«لا أريدك أن تبعدني عنك».

«لن يبعدك أحد عني».

لكنـــه عندمـــا هبط الـــدرج، متحسســـا كل درجة ويمســـك بالدرابزيـــن، راح يفكر: عليَّ أن أبعدها وفي أقرب فرصة ممكنة من دون أن أجرح مشـــاعرها. فأنا لا أجيد هذا العمل، وأنا منه براء. لكن ما العمل؟ لا شـــيء. لا شيء. لكنك قد تتقنه مع مرور الزمن.

حكيم زمانه
[١٩٥٧]

كان الكفيــف يميز أصــوات مختلف الآلات فــي الصــالون. لا أعرف كم اســتغرق منه تعلم هــذه الأصوات لكنه وقت طويل حتمــا لأنه لم يكن يتردد على صالونين في آن واحد. كان يجوب مدينتين مبتدئا من بلــدة فلاتس بعد حلول الظلام قاصدا بلدة جيســپ. كان يتوقف بجانب الطريق وعندما يسمع سيارة قادمة تلتقطــه بأنوارهــا، فإما تتوقف وتحمله أو تتابع مســيرها على الطريق المتجمد. كان هذا يعتمد على حمولة السيارة أو إن كانت هناك نســاء لأن الكفيف كانت تفوح منه رائحة قوية، وخصوصا في الشتاء. لكنه كان دائما يجد من يقله لأنه كفيف.

كان الجميــع يعرفونه وكانوا يلقبونــه «بلايندي»[٦٨]، وهذا اســم مناســب لرجل أعمى في تلك البقعة مــن البلاد، وكان يتردد على صالون اسمه پايلوت. وهناك صالون آخر ملاصق له اسمه إندكس، وفيه أيضا صالة للقمار ومطعم. سمي هذان الصالونان على اســمي جبلين، وكان كلاهما جيدا، وكان لعب الورق في هذا الصالون لا يختلف عنه في الآخر، بيد أن الأكل في الپايلوت، باســتثناء الشــرائح المشــوية، قد يكون أفضل. أضف إلى ذلك أن الإندكس يفتح طوال الليل ويستقبل الزبائن فــي الصباح الباكــر، وكان يقدم المشــروبات مجانا من طلوع الفجر حتى العاشــرة صباحا. لم يكن في جيســپ صالونات

---

(٦٨) «بلايـنـدي»: تصغير كلمة «بلايند» (أعمى)، وهي أيضا تعبير ملطف فيه مزيج من الدعابة والتحبب [المترجم].

غيرهمـــا ولم يكـــن لزاما عليهما أن يقوما بهذا الشـــيء، لكن هكذا كانت تجري الأمور.

مـــن الأرجح أن بلايندي كان يفضل الپايلوت لأن الآلات كانت بمحـــاذاة الجدار الأيســـر عندما تدخل وكانت مقابل المشـــرب، ممـــا يجعله أقدر علـــى التحكم فيها مما لـــو كان في الإندكس حيث تتبعثر الآلات هنا وهناك بســـبب اتساع مساحة الصالون. في هذه الليلـــة كان الطقس باردا في الخارج، وعندما دخل كان الجليد يتدلى من شـــاربيه وكتل صغيـــرة من القذى المتجمد من عينيه، ولم يكن منظره فـــي الحقيقة على ما يرام. حتى رائحته كانـــت متجمدة، وإن لم يطل هذا الأمر حيث راحت رائحته تفوح منه حالما أغلق الباب. في الماضي كان يصعب عليَّ أن أنظر إليه، لكنني اليوم أمعنت النظر فيه لأنني كنت أعلم أنه دائما يجد من يقله بســـيارته، لذلك لم أفهم كيف يمكن له أن يتجمد على هذه الشاكلة السيئة. وأخيرا سألته:

«من أين جئت ماشيا، يا بلايندي؟».

«أنزلني ولي ســـوير من ســـيارته عنـــد جسر سكـة الحديد. لم تكن هناك سيارات قادمة، فمشيت».

«ولماذا أنزلك؟». سأل أحدهم.

«يقول إن رائحتي لا تطاق».

شـــد أحدهـــم مقبض إحـــدى الآلات وراح بلايندي يســـتمع لهديرها. كانت النتيجة صفـــرا. «هل هناك خواجات يلعبون؟». سألني(٦٩).

---

(٦٩) اخترت كلمة «خواجات»، برغم أعجميتها، مكافئا لكلمة dudes لما في هاتين الكلمتين من دلالات توحي بحسد الفقير للأغنياء من أبناء الطبقة الراقية [المترجم].

«ألا تسمع؟».

«ليس بعد».

«لا يوجد خواجات، يا بلايندي، والليلة ليلة أربعاء».

«أنا أعلم ما هي الليلة. لا تقل لي ما هي الليلة».

اتجه بلايندي نحو صف الآلات وراح يتحسسها واحدة واحدة لعل أحدهم ترك شيئا في الكؤوس سهوا. بالطبع، لم يكن هناك شـــيء، لكن هذه هي رميته الأولى. عاد حيث كنا نجلس، فدعاه آل تشيني إلى تناول كأس.

«لا»، قال بلايندي. «عليَّ أن أتخذ الحذر على تلك الطرقات».

«ماذا تقصد بتلك الطرقات؟». ســـأله أحدهم. «أنت لا تسير إلا على طريق واحدة. من هنا إلى فلاتس».

«لقد سرت على دروب كثيرة»، قال بلايندي. «وقد يتحتم عليَّ في أي وقت أن أنطلق في دروب أخرى».

رمـــى أحدهم قطعته في إحـــدى الآلات لكنها لم تكن ضربة موفقة. لكـــن بلايندي قصدها برغم ذلك. كانـــت آلة ربعية[٧٠]، فأعطاه الشـــاب الـــذي كان يلعب بها ربـــع دولار على مضض. تحسس بلايندي ربع الدولار قبل أن يضعه في جيبه.

«شكرا لك»، قال له. «لن تخسره».

«تســـرني معرفة ذلك»، قال له الشاب، ثم وضع ربعا آخر في الآلة وسحب ثانية.

رمـــى قطعة أخرى في الآلـــة فحالفه الحظ هذه المرة وغرف الأرباع ثم أعطى بلايندي واحدا منها.

---

(٧٠) الآلة الربعية هي آلة ورق يضع فيها اللاعب ربع دولار ثم يشـــد مقبضا نحو الأســـفل، فإما يربح كل الأرباع الموضوعة فيها أو يخسر الربع الذي لعب به [المترجم].

«شكرا»، قال له بلايندي. «إن الحظ يحالفك».

«الليلة ليلتي»، قال الشاب الذي كان يلعب.

«وليلتك هي ليلتي»، قال بلايندي، وتابع الشاب لعبه لكن الحظ لم يعد حليفه، وظل بلايندي ملازما له وبدا بأسوأ حال، وأخيرا ترك الشاب اللعب. كان بلايندي قد ضايقه من دون أن يدري لأن الشاب لم يقل شيئا، وهكذا راح بلايندي يفتش الآلات مرة أخرى بيده وظل ينتظر من يأتي ويلعب.

لم يكن أحد يلعب بالعجلة أو لعبة الكرابس[٧١]، بل كان هناك مقامرون يلعبون البوكر وكل منهم يهم بقطع الآخر. كانت أمسية هادئة من أيام الأسبوع في البلدة، لا إثارة فيها. ولولا البار لما جنى الصالون فلسا واحدا. كان الجو بهيجا والصالون رائعا إلى أن جاء بلايندي. وهكذا راح الجميع يفكرون في الانتقال إلى صالون الإندكس المجاور أو الذهاب إلى بيوتهم.

«ماذا تود أن تشرب يا توم؟». سألني فرانك. «على حساب المحل».

«كنت أفكر في الرحيل».

«إذن، تناول مشروبا قبل ذلك».

«ناولني مشروبي المعتاد»، قلت له. سأل فرانك الشاب ماذا سيشرب، فطلب المشروب ذاته، وكان الشاب يرتدي معطفا صوفيا ثقيلا وقبعة سوداء، وكان حليقا وقد أحرق الثلج وجهه. كان المشروب من نوع أولد فورستر.

---

(٧١) الكرابس: نوع من ألعاب الورق تلعب بحجري نرد، فإذا كان مجموع نقاط الرمية الأولى للاعب سبعا أو إحدى عشرة فهو الرابح، أما إذا كان المجموع نقطتين أو ثلاثا أو اثنتي عشرة فهو الخاسر [المترجم].

أومأت له برأسي ورفعت قدحي وراح كلانا يرتشف مشروبه. كان بلايندي عند الطـرف البعيد لآلات اللعب. وأظن أنه أدرك أنه لن يدخل أحـد الصالون إن رآه عند الباب. هذا لا يعني أنه خجول.

«كيف فقد ذلك الرجل بصره؟». سألني الشاب.

«في عراك»، قال له فرانك.

«لا أعرف»، قلت له.

«هذا يعارك؟». سأل الغريب وهو يهز رأسه.

«نعم»، قال فرانك. «وقد أصبح صوته مرتفعا من جراء المعركة نفسها. قل له، يا توم».

«لم أسمع بذلك قط».

«طبعا، لم تسمع به»، قال فرانك. «لم تكن هنا، على ما أظن. حدث الأمر يا سيدي في ليلة باردة مثل هذه. وربما أشد برودة. وكان عراكا سـريعا أيضا. لم أشاهد كيف ابتدأ. خرجا من باب الإندكـس وهما يتعاركان. كان بلاكي، الذي أصبح بلايندي فيما بعد، وفتى آخر اسمه ولي سوير يتلاكمان بالأيدي والركب، وكل منهما يهم بعضّ الآخر أو قلع عينه، ثم رأيت إحدى عيني بلاكي تتدلى على خده. كانا يتعاركان على الطريق المتجمد حيث يتراكم الثلج، والنور يسـطع من هذا الباب وباب الإندكس، وكان هولس ساندز يقف خلف ولي سوير مباشـرة الذي كان يحاول اقتلاع عـين بلاكي، وكان هولس يصرخ، «عضها! عضها كما تعض حبة عنـب!» وكان بلاكي يعض على وجه ولي سـوير، وقد تمكن منه بعضة جيدة لكن ولي سوير أفلت منها، ثم تمكن منه بعضة جيدة

أخرى، ثم وقعا على الجليد، وراح ولي سـوير يشـد عين بلاكي لعله يتخلص منه، وبعدها صرخ بلاكي صرخة لم أسمع مثلها من قبل. كانت أبشع من صرخة خنزير ينحر».

في هذه الأثناء كان بلايندي قد أصبح مقابلنا وشممنا رائحته واسـتدار قائلا: «عضها كما تعض حبة عنب»، قال ذلك بصوته المرتفـع النبرة، ونظر إلينا، وهو يرفع رأسـه ويخفضه. «هذا ما حدث للعين اليسـرى. أما الأخرى فقد قلعها من دون أن يشـير عليه أحد بذلك. ثم ضربني بأخمص قدمه عندما فقدت بصري. وكان ذلك أسوأ شيء». ثم ربت على نفسه.

«كنت أجيد القتال حينها، لكنه اقتلع عيني قبل أن أدرك ماذا يجري. لقد حالفه الحظ فـي اقتلاعها»، قال بلايندي من غير حقد. «وكانت هذه خاتمة أيام العراك».

«قدم لبلاكي مشروبا»، قلت لفرانك.

«اسـمي بلايندي، يا توم. لقد اكتسبت هذا الاسم. لقد رأيتني أكتسبه. كان ذلك الشخص نفسه الذي أنزلني في منتصف الطريق هذه الليلة. الشخص نفسه الذي اقتلع عيني. لم نتصاف قط».

«ماذا فعلت به؟». سأله الغريب.

«سـتراه في هذه النواحـي»، قال بلايندي. «وسـتعرفه متى رأيته. سأترك لك ذلك مفاجأة».

«لا حاجة لك برؤيته»، قلت للغريب.

«أنـت تعلم أن هذا أحد الأسـباب التي تجعلني أتمنى الرؤية أحيانـا»، قال بلايندي. «أتمنى لو أسـتطيع أن ألقي عليه نظرة واحدة فقط».

«أنت تعلم تماما كيف هو منظره»، قال له فرانك. «لقد ذهبت إليه ذات مرة وتحسست وجهه بيديك».

«لقد فعلت ذلك ثانية الليلة»، قال بلايندي مغتبطا. «ولهذا أنزلني من السيارة. إنه لا يعرف المزاح أبدا. قلت له إن عليه في مثل هذه الليلة الباردة أن ينكمش على نفسه كي لا يتعرض وجهه للبرد. لم يجد فيما قلت ما يدعو إلى الضحك. أنت تعلم أن ولي سوير لن يكون أبدا حكيم زمانه».

«تناول كأسا على حساب المحل، يا بلاكي»، قال له فرانك. «لا أستطيع أن أوصلك إلى بيتك بسيارتي لأنني أسكن على مقربة من هنا. لكن في إمكانك أن تنام في الجزء الخلفي من المحل».

«هذا كرم عظيم منك يا فرانك. لكن أرجوك، لا تنادني بلاكي. لم أعد بلاكي. إن اسمي هو بلايندي».

«تفضل مشروبك، يا بلايندي».

«أجل، يا سيدي»، قال بلايندي. امتدت يده نحو الكأس وعندما وجدها رفعها بشكل صحيح لنا نحن الثلاثة.

«من الأرجح أن ولي سوير هذا يقبع في بيته وحيدا»، قال بلايندي. «إن ولي سوير هذا لا يعرف قط كيف يمتع نفسه».

قصة أفريقية
[١٩٧٢]

كان ينتظــر طلوع القمر، فأحس بشــعر كيبو يرتفع تحت يده عندما مسده ليسكته، ثم راحا يراقبان وينصتان بينما كان القمر يرتفع ويجعل لكل منهما ظلا. ولما طوق رقبة الكلب بذراعه، شعر بــه وهو يرتجف. توقفت جميع أصوات الليل. لم يســمعا صوت الفيل، ولم يره ديڤد إلى أن أدار الكلب رأسه وبدا كأنه يستقر في حجر ديڤد. عندها أسدل عليهما الفيل ظله وتخطاهما من دون ضجة، فشما رائحته التي حملها إليهما النسيم القادم من الجبل. كانت رائحته قوية، لكنها معتقة وحامضة، وعندما تجاوزهما رأى ديڤد أن نابه الأيسر طويل جدا يكاد يلامس الأرض.

ظلا ينتظــران مقدم الفيلة الأخرى، لكنهــا لم تأت، فانطلق ديڤد والكلــب يجريان في ضوء القمــر. كان الكلب يلازم ديڤد إلــى درجة أنه عندما يتوقــف كان الكلب يدس خطمه في باطن ركبته.

كان على ديڤد أن يرى الفيل مرة أخرى، فلحقا به عند حافة الغابــة. كان يرتحل نحو الجبل، يشــق طريقه ببطء في نســيم الليــل المطرد. اقترب منه ديڤد إلى درجــة جعلت الفيل يحجب عنــه القمر ثانية ومكنته من شــم رائحته المعتقة الحامضة لكنه لم يســتطع رؤية نابه الأيمن. كان يخشــى من التعامل مع الفيل والكلب يلازمه على هذه الشــاكلة، فأعاده مع اتجاه هبوب الريح وأقعده عند جذع شجرة وحاول أن يفهمه. ظن أن الكلب سيبقى

في مكانه ففعـــل، لكن عندما اقترب ديڤد من كتلة الفيل الهائلة مرة أخرى أحس بخطم الكلب الندي يلامس باطن ركبته.

تبع الاثنان الفيل حتى أتى فســـحة بين الأشجار، فوقف فيها وهو يحرك أذنيه الهائلتين. كان جســـمه يحتجب في الظل بينما رأسه في ضوء القمر. مد ديڤد يده وراءه فأطبق على فكي الكلب برفق ثم سار بهدوء على يمين الفيل حابسا أنفاسه، ونسيم الليل يداعب خده، يداري الكلب لئلا يحول بينه وبين جســـم الفيل إلى أن تمكـــن من رؤية رأس الفيل وأذنيـــه الهائلتين تتحركان ببطء. كان ناب الفيل الأيمن يثخن فخذه هو، وكان ينحني نحو الأسفل حتى يكاد يلامس الأرض.

عاد هو والكلب أدراجهما، وكانت الريح تهب على رقبته الآن، خارجـــين من الغابة نحو المرج الفســـيح. راح الكلب يجري أمامه فتوقف حيث ترك ديڤد رمحي الصيد بمحاذاة الدرب عندما كانا يلاحقان الفيل. قذفهما فوق كتفه مع سيرهما وقرابهما الجلدي، ثم أمسك برمحه الأثير لديه الذي لا يفارقه أبدا، وراحا يسيران علـــى الدرب باتجاه الشـــامبا(٧٢)، كان القمر قد أصبح عاليا في هذه الأثناء وراح يتساءل لماذا لم يسمع قرع الطبول من الشامبا. أمر غريب أن يكون أبوه هناك ولا طبول تقرع.

شعر ديڤد بالإرهاق حالما وجدوا الدرب ثانية.

منذ زمن طويل وهو يشعر بأنه أفضل حالا من هذين الرجلين، وقـــد ضاق ذرعا بتباطئهم وبتوقف والده المتكرر. كان في إمكانه أن يسير في المقدمة على نحو أسرع مما يسير جمعة وأبوه، لكن

---

(٧٢) «شـــامبا»: لفظة سواحلية وتعني الحقل أو الأرض المحروثة حيث تزرع فيها مزروعات تسد حاجة الأسرة [المترجم].

عندما أدركه التعب تساوى معهما، وعند الظهيرة أخذوا كعادتهم خمس دقائق من الراحة، ولاحظ أن جمعة راح يباعد خطواته قليلا. ربما لم يكن كذلك. ربما بدت خطواته أسرع، لكن روث الفيل أصبح أكثر طراوة الآن وإن لم يعد دافئ الملمس. بعد أن مروا بآخر كومة من الروث، أعطاه جمعة البندقية ليحملها لكنه بعد ساعة نظر إليه وأخذها منه. كانوا يتسلقون باطراد سفح جبل، لكن الدرب الآن راح يهبط فرأى من فجوة في الغابة ريفا وعرا يمتد أمامه. «من هنا يبدأ الجزء الأصعب، يا ديفي»، قال له أبوه.

لقد أدرك عندئذ أنه كان يجب عليه أن يعود إلى الشامبا حالما أوصلهما إلى الدرب. كان جمعة على معرفة مسبقة بهذا الدرب، وهاقد عرفها أبوه الآن، ولم يعد في اليد حيلة. كانت غلطة أخرى من غلطاته ولم يعد أمامه من خيار سوى المجازفة.

نظر ديفد إلى أثر قدم الفيل المسطحة الدائرية الكبيرة فرأى كيف وطئت أوراق السرخس وكسرت ساق عشبة. التقط جمعة ساق العشبة ونظر إلى الشمس. ناول جمعة العشبة المكسورة إلى أبي ديفد، فلفها هذا بين أصابعه. لاحظ ديفد كيف كانت الأزهار البيضاء تذوي وتموت. لكنها لم تجف تحت أشعة الشمس ولا انسلخت تويجاتها.

«سيكون الأمر عسيرا»، قال له أبوه. «هيا بنا».

ظلوا يتتبعون الأثر عبر الريف الوعر حتى وقت متأخر من العصر. وظل يغالب النعاس وقتا طويلا، وبينما كان يراقب الرجلين أدرك أن النعاس هو عدوه الحقيقي، فاقتفى أثرهما وحاول أن

يتخلص من النعاس الذي أثقل خطاه. كان الرجلان يتناوبان على السير في المقدمة كل ساعة، فكان الذي يحل في الموقع الثاني يلتفت خلفه بانتظام ليتأكد أنه لا يزال معهما. وعندما نصبوا مخيما بسيطا في الغابة عند المساء نام حالما جلس، ثم استيقظ ليجد جمعة يمسك بحذائه ويتحسس قدميه الحافيتين بحثا عن التقرحات. كان أبوه قد غطاه بمعطفه وجلس بجانبه ومعه قطعة باردة من اللحم المطبوخ وقطعتان من البسكويت. قدم له زجاجة من الماء والشاي البارد.

«عليه أن يتعشى، يا ديفي»، قال أبوه[٧٣]، «قدماك على ما يرام، مثل قدمي جمعة تماما. كل هذه على مهل واشرب الشاي ثم عد إلى النوم. ليست لدينا أي مشكلة».

«أنا آسف إن كنت ناعسا».

«لقد كنت أنت وكيبو تصطادان وتسيران طوال ليلة البارحة، فلم لا تنعس؟ كل قليلا من اللحم إن شئت».

«لست جائعا».

«حسن. لا خوف علينا لثلاثة أيام. سنجد ماء مرة أخرى غدا. هناك كثير من الينابيع التي تنحدر من الجبل».

«إلى أين يتجه؟»[٧٤].

«يعتقد جمعة أنه يعلم وجهته».

«أليس هذا بالأمر السيئ؟».

«ليس إلى ذلك الحد، يا ديفي».

«سأعود للنوم»، قال ديفد. «لست في حاجة إلى معطفك».

---

(٧٣) الإشارة هنا إلى الفيل الذي يتتبعون أثره [المترجم].

(٧٤) مرة أخرى الإشارة هنا إلى الفيل [المترجم].

«أنا وجمعة لا بأس علينا»، قال أبوه. «أنا دائما أنام دافئا كما تعلم».

نام ديفد حتى قبل أن يتمنى له أبوه ليلة سعيدة. ثم استيقظ مرة وضوء القمر يسطع على وجهه، فخطر في باله الفيل وتخيله واقفا في الغابة يحرك أذنيه الهائلتين، مطأطئ الرأس بفعل ثقل نابيه. ظن ديفد حينها أن الخواء الذي أحس به وهو يتذكر الفيل كان بسبب الجوع الذي أيقظه من نومه. لكنه لم يكن كذلك، إذ اكتشف ذلك في الأيام الثلاثة التالية.

كان اليوم التالي سيئا جدا لأنه أدرك وقبل انتصاف النهار بكثير أن الحاجة إلى النوم ليست وحدها ما يفرق بين الصبيان والرجال. في الساعات الثلاث الأولى كان أكثر نشاطا منهما، فطلب من جمعة أن يعطيه البندقية ليحملها لكن جمعة هز رأسه. لم يبتسم مع أنه كان دائما صديق ديفد المفضل وهو الذي علمه الصيد. قال ديفد في سره، لقد أعطاني إياها البارحة مع أن حالي اليوم أفضل مما كنت حينها. وكذلك حاله هو، لكنه بحلول الساعة العاشرة أدرك أن هذا اليوم سيكون سيئا، بل سيكون أسوأ مما قبله.

كان من السخف أن يظن أن في إمكانه أن يتتبع الأثر مع أبيه أو يقاتل معه(٧٥)، لقد أدرك أيضا أن الأمر لا علاقة له بكونهما رجلين. لقد كانا صيادين محترفين، فعرف الآن لماذا رفض جمعة أن يضيع عليه ابتسامة. كانا يعرفان كل ما يقوم

---

(٧٥) تحتمل عبارة fight with him في الأصل معنى آخر، وهو «يتقاتل معه»، وسياق القصة يحتمل هذين المعنيين. فربما قصد همنغواي أن ديفد جاء مع أبيه ليقاتل الفيل، أو أنه الآن تولدت لديه رغبة مفاجئة لمقاتلة أبيه بدلا من الفيل كما يتضح لاحقا في القصة [المترجم].

به الفيل، ويشـيران إلى آثاره فيما بينهما من دون كلام، وعندما أصبح تتبع أثره عسـيرا سـلم والده الأمر إلـى جمعة. وعندما توقفـوا عند أحد الجـداول للتزود بالماء، قال لـه أبوه: «كل ما عليـك هو أن تصمد حتى ينقضي هذا اليوم، يا ديفي». وبعد أن تجاوزوا الريف الوعر وراحـوا يصعدون باتجاه الغابة، انحرفت آثار الفيل نحو اليمين على درب قديم تسـلكه الفيلة. رأى والده وجمعـة يتحدثان وعندما لحق بهما راح جمعة يجيل ناظريه بين الطريق التي خلفوها وراءهم وبين مجموعة من التلال الصخرية البعيدة في الريف اليابس، وبدا كأنه يتخذ من هذه نقطة ارتكاز بالمغايرة مع ثلاث قمم لتلال زرقاء بعيدة تلوح في الأفق.

«جمعة يعرف الآن إلى أين يتجه»، قال له أبوه شـارحا. «كان يظن من قبل أنه يعرف لكنه أوصلنا إلى هذا الذي نحن فيه». ثم التفت إلى الـوراء نحو الريف الذي عبروه طوال اليوم. «لا بأس علينا من الوجهة التي يتخذها الآن، لكن علينا أن نتسلق».

وظلوا يتسـلقون حتى حلول الظـلام، وبعدها نصبوا مخيما بسـيطا. وقبيل غروب الشمس قتل ديفد طائري دراج بمقلاعه من سـرب صغير عبـر الدرب الذي كانوا يسـيرون عليه. كانت الطيور قد أتـت درب الفيل القديم لتتمرغ فـي التراب، وكانت تتبختر بتأنق، ممتلئة الجسم. قصمت الحصاة ظهر أحدها فراح يقفز وينقلـب وجناحاه يخفقان فتقدم إليـه طائر آخر لينقره، وعندهـا وضع ديفد حصـاة أخرى في مقلاعـه وأطلقها نحو الطائـر الثاني فأصابت أضلاعه. ولما ركض ليمسـك به طارت الطيور الأخـرى محلقة. التفت جمعة نحو الوراء وابتسـم هذه

المـــرة، والتقط ديفد الطائرين، وكانا دافئين، ســـمينين، وناعمي الريش، فخبط رأسيهما على نصل سكين الصيد التي يحملها.

وبعدما نصبـــوا مخيمهم للمبيت، قال أبوه: «لم أر في حياتي هـــذا النوع من الدراج على هذا الارتفاع. لقد أبليت بلاء حســـنا في إصابة طائرين بحجر واحد».

شك جمعة عودا في الطائرين وشواهما على جمر نار خفيفة. تنـــاول أبوه جرعة من المشـــروب والماء من غطاء جرته بينما كانا يســـتلقيان وراح يراقب جمعة وهو يشوي الطائرين. ناول جمعة كلا منهما الصدر والقلب واحتفظ لنفســـه بالرقبتين والظهرين والأرجل.

«لقد اختلفت الأمور كثيرا، يا ديفي»، قال له أبوه. «لقد وفرت الآن علينا شيئا من مؤونتنا».

«كم نبعد عنه؟».

«إننا علـــى مقربة منه»، قال أبوه. «الأمـــر يعتمد على ما إذا كان ســـيتابع مسيره بعد طلوع القمر. وهذا سيتأخر ساعة الليلة وساعتين عما وجدته».

«لماذا يعتقد جمعة أنه يعلم وجهته؟».

«لأن جمعة جرحه وقتل «عسكريه» على مقربة من هنا»[٧٦].

«متى؟».

«قبل خمس سنوات، كما يقول. وهذا قد يعني أي مدة زمنية. عندما كنت لا تزال «توتو» كما يقول»[٧٧].

---

(٧٦) «عسكري»: لفظة سواحلية ذات أصل عربي وتعني «حارس» أو «رفيق» [المترجم].
(٧٧) «توتو»: كلمة سواحلية وتعني «طفل» أو «حيوان صغير» [المترجم].

«وهل ظل الفيل وحيدا منذ ذلك الحين؟».

«هذا ما يقوله. لم يره، لكنه سمع عنه».

«كم يبلغ حجمه، على حد قوله؟».

«نحو المائتين(٧٨)، أكبر من أي شيء رأيته في حياتي. يقول إنه لم يوجد في الماضي إلا فيل واحد أكبر منه وهو من هذه النواحي أيضا».

«يجدر بي أن أنام، وآمل أن أكون غدا في حال أفضل»، قال ديفد.

«لقد كنت رائعا اليوم»، قال له أبوه. «أنا فخور بك، وكذلك جمعة».

وعندما استيقظ ليلا بعد طلوع القمر أيقن أنهما لم يكونا فخورين به إلا لمهارته في قتل الطائرين. كان قد عثر على الفيل ليلا ثم تبعه ليتأكد من وجود كلا نابيه، فعاد ليبحث عن الرجلين ويدلهما على آثاره. كان ديفد يعلم أنهما فخوران بصنيعه هذا. لكن ما إن بدأت عملية اقتفاء الأثر المميتة حتى أصبح عديم النفع، بل خطرا على نجاحهما، تماما كما كان كيبو خطرا عليه عندما اقترب من الفيل في تلك الليلة، وكان يعلم أنهما ندما لأنهما لم يرجعاه عندما كان ذلك ممكنا. كان كل من نابي الفيل يزن مائتي رطل. ومنذ أن تجاوز ناباه حجمهما الطبيعي صار الفيل مطلوبا للصيادين، والآن سيقتله الثلاثة من أجلهما.

---

(٧٨) من الواضح أن والد ديفد لم يجب عن سؤال ابنه عن حجم الفيل، لكن بسبب اهتمامه بالعاج فقد أعطى ابنه الوزن التقريبي لكل ناب من نابي الفيل كما يتضح من الأسطر التالية [المترجم].

لقــد أيقن ديڤد الآن أنهم ســيقتلونه لأنــه، أي ديڤد، صمد طوال النهار حتى بعد أن هده المســير بحلول الظهيرة. إذن، من الأرجح أنهما فخوران به من أجل هذا. لكنه لم يأت بشيء يفيد عملية الصيد، ولا شك في أن غيابه خير من وجوده معهما. لقد تمنــى عدة مرات أثناء النهار لو أنه لــم يغدر بالفيل، وتذكر أنه بحلول العصر تمنى لو لم يره قط. لكنه الآن، وهو مستيقظ على ضوء القمر، يعرف أن هذا غير صحيح.

فــي صباح اليــوم التالي راحوا يتتبعون أثــر الفيل على درب قديم ضيق بال تســلكه الفيلة عبر الغابة. بدا الدرب كأن الفيلة سلكته منذ أن بردت الحمم البركانية المنحدرة من الجبل وبدأت الأشجار تتطاول وتتكاثف.

كان جمعة واثقا جدا وكانوا يســيرون بســرعة. كان هو وأبوه شــديدي الثقة بنفسيهما، وكان الســير على درب الفيلة شديد الســهولة إلى درجة أن جمعــة أعطاه البندقيــة ليحملها بينما كانوا يشــقون طريقهم عبر ضوء الغابة المتقطع. بعد ذلك ضلوا الطريــق بين أكوام من الروث الطــري يهب منها دخان وبين آثار مستديرة مسطحة لقطيع من الفيلة انضمت إلى درب الفيلة من الغابة الكثيفة على يســار الطريق. أخذ جمعة البندقية من ديڤد غاضبــا. لم يلحقوا بالقطيع أو يحيطوا به إلا عند العصر، حيث بدت لهم كتله الرمادية من خلال الأشجار وراقبوا آذانها الهائلة تتحرك وخراطيمها الباحثة تلتف ثم تنحل، ولا يسمعون إلا تكسر الأغصان والأشــجار، ورعد بطون الفيلة المفرقعة وارتطام روثها بالأرض.

وأخيرا وجدوا أثــر الفيل العجوز ينعطف نحو درب أصغر للفيلــة، عندها نظــر جمعة إلى والد ديفد وكشــر عن أنياب كالمبرد، فأومأ أبوه برأســه. بدا كأن بينهما سرا قذرا، تماما كما وجدهما في تلك الليلة عند الشامبا.

وســرعان ما اقتربوا من السر. كان السر يكمن على يمين الدرب في الغابة وكانت آثار الفيل العجوز تؤدي إليه. كان السر جمجمة يبلغ ارتفاعها إلى صدر ديفد وقد ابيضت من الشمس والمطر. كان في جبين الجمجمة غور عميق، وكان جســر يمتد من بين محجــري عينيها البيضاوين ثم يتســع تدريجيا حتى ينتهي إلى حفرتين فارغتين مهشمتين نتيجة انتزاع نابيه.

أشــار جمعة إلى المكان الذي يقف فيــه الفيل الذي كانوا يتتبعونــه، وكان هــذا يرنو إلى الجمجمة التــي أزاحها قليلا بخرطومه عن مكانها، وكان نابان يلامســان الأرض بجانبها. بــين لديفد أثر الطلقــة الوحيدة في الغــور الكبير في عظم الجمجمــة الأبيض ثم الثقوب الأربعة التي تتراص في العظم المحيط بالأذن. ابتســم لديفد وأبيه ثــم تناول طلقة مصمتة مــن جيبه ثم حشــر رصاصتها في الثقــب الكائن في عظم الجمجمة.

«هنــا جرح جمعة الفيل الكبير»، قــال أبوه. «وقد كان هذا عســكريه. بل صديقه في الواقع لأنــه كان أيضا فيلا كبيرا. هجم على جمعة فأرداه قتيلا بطلقة في أذنه».

راح جمعة يشــير إلى العظام المتناثرة وإلى آثار الفيل الذي كان يتجول بينها. سر جمعة وأبو ديفد بما وجدا.

«في رأيك، كم أمضى هو وصديقه من العمر معا؟». سأل ديفد أباه.

«ليس لديَّ أدنى فكرة»، رد أبوه. «اسأل جمعة».

«اسأله أنت من فضلك».

تحدث أبوه مع جمعة، فنظر جمعة إلى ديفد وضحك.

«ربما أربعة أو خمسة أضعاف عمرك وفق قوله»، قال أبوه. «إنه لا يعرف أو في الحقيقة لا يهمه الأمر».

ولكنه يهمني أنا، قال ديفد في سره. لقد رأيته في ضوء القمر وكان وحيدا، لكن كيبو كان معي. وكنت مع كيبو. لم يكن الفيل يسبب أي أذى، وهاقد طاردناه إلى حيث جاء ليرى صديقه الميت وهانحن مقدمون على قتله. أنا السبب. لقد غدرت به.

في هذه الأثناء كان جمعة قد حل لغز الأثر، فأومأ إلى والده وانطلقوا.

إن أبي لا يحتاج إلى قتل الفيلة لكي يعيش، قال ديفد في سره. وما كان لجمعة أن يجده لو لم أره. لقد ظفر به ذات مرة وكل ما استطاعه هو أن يجرحه ويقتل صديقه. لقد وجدته أنا وكيبو وما كان علي أن أخبرهما عنه بل كان يجب أن أحتفظ بأمره سرا كي يبقى لي دائما، وأن أتركهما ثملين. لقد كان جمعة ثملا جدا إلى درجة أننا لم نستطع إيقاظه. من الآن فصاعدا سأحتفظ بكل شيء سرا. لن أخبرهما شيئا قط. إن قتلاه فإن جمعة سيلهو بثمن حصته من العاج أو يكتفي بشراء زوجة ملعونة أخرى. لماذا لم تساعد الفيل عند المقدرة؟ كان كل ما عليك هو ألا تستمر في اليوم الثاني. لا، فما كان لهذا أن يوقفهما.

كان جمعة سيتابع البحث. ما كان عليك أن تخبرهما. أبدا، أبدا، أبدا. حاول ألا تنسى هذا. لا تقل شيئا لأي كان. لا تخبر أيا كان أي شيء مرة أخرى.

كان أبـــوه ينتظر أن يلحق بهما، فقال له برفق: «إنه يســـتريح هنا. لم يعد يرتحل كما كان. سنظفر به قريبا».

«اللعنة على صيد الفيلة»، قال ديڤد بهدوء شديد.

«ماذا قلت؟».

«اللعنة على صيد الفيلة»، قال ديڤد بصوت خفيض.

«إياك أن تفســـد صيدنا»، قال له أبـــوه وهو ينظر إليه نظرة خالية من أي تعبير.

لقـــد عرفت الآن أمرا واحدا، قال ديڤد في نفســـه. إنه ليس غبيـــا. إنه يعلم الآن ما يدور في خاطري، ولن يثق بي بعد اليوم. لا بـــأس. فأنا لا أريده أن يثق بي لأنني بعـــد اليوم لن أخبره أو أخبر غيره أي شيء. أي شيء إطلاقا. أبدا، أبدا، أبدا، أبدا.

في الصباح كان على سفح الجبل البعيد مرة أخرى. لم يعد الفيل يرتحل كما كان، بل كان يســـير على غير هدى، أو يقتات بين الحين والآخر، وكان ديڤد قد أدرك من قبل أنهم كانوا يقتربون منه.

حـــاول أن يتذكر كيف كان يشـــعر. لم تربطـــه بالفيل رابطة المحبة بعد. عليه أن يتذكر هذا. لقد انتابه شـــعور بالأسى ناجم عن الإرهاق، وهذا ولَّد لديه إدراكا لمعنى الهرم. فنظرا إلى صغر سنه، أدرك ماذا يعني الهرم.

لقد اشـــتاق لكيبـــو، وعندما فكـــر كيف قتـــل جمعة صديق الفيل انقلـــب ضده.وصار الفيل أخاه. لقـــد أدرك عندئذ معنى

أن يـــرى الفيــل في ضوء القمر أو يتبعـــه أو يقترب منه في تلك الفسحة ويشـــاهد نابيه العظيمين. لكنه لم يدرك أنه لن يطيب له شيء بعد ذلك أبدا. لقد أدرك الآن أنهما سيقتلان الفيل ولن يستطيع منعهما من ذلك. لقد غدر بالفيل حين عاد إلى الشامبا ليخبرهمـــا. خطر له خاطر أنهما لن يترددا في قتله أو قتل كيبو لو كان فيهما عاج، لكنه كان يعرف أن هذا غير صحيح.

ربما يتجه الفيل الآن إلى مســـقط رأســـه وسيقتلانه هناك. وإن تم لهما ذلك، فســـيكون صنيعهما لا شائبة عليه. إن بودهما أن يقتلاه حيث قتلا صديقه، فهذا ســـيكون مصدر بهجة عظيما لهما. أجل، إن هذا سيسر قاتلي الأصدقاء اللعينين.

لقـــد بلغوا الآن حافة الغطاء الكثيف وكان الفيل أمامهم على مســـافة قريبة. صـــار في إمكان ديفد أن يشـــتم رائحته، وكانوا جميعا يسمعون طقطقة الأغصان التي كان ينتزعها من الأشجار. وضع أبو ديفد يده على كتفـــه ليرجعه إلى الوراء ويجعله ينتظر فـــي الخارج ثم أخرج من جيبه قبضـــة كبيرة من الرماد وقذفها فـــي الهواء. وبصعوبة مال الرماد باتجاههم وهو يســـقط فأومأ أبوه إلى جمعة برأسه ثم انحنى ليتبعه تحت الغطاء الكثيف. راح ديفـــد يراقب ظهريهما ومؤخرتيهما وهي تلـــوح أمام ناظريه ثم تتوارى. لم يكن في استطاعته أن يسمعهما يتحركان.

تســـمر ديفد في مكانه وراح ينصت للفيل وهو يرعى. كان في إمكانـــه أن يشـــم رائحته القوية تماما كما شـــمها في تلك الليلة المقمـــرة عندما اقترب منـــه كثيرا ورأى نابيـــه الرائعين. وبينما هو متسمر في مكانه ســـاد السكون ولم يعد في إمكانه أن يشم

رائحة الفيل. ثم انطلق صراخ حاد وفرقعة تلاهما إطلاق نار من البندقية ذات العيار ٣٠٣، أعقبه دوي مزلزل من بندقية أبيه ذات العيـــار ٤٥٠، ثم توالت الفرقعة وأصوات الارتطام يتردد صداها من بعيد، فالتجـــأ إلى الأجمة الكثيفة فوجد جمعة يرتعد والدم يجلل وجهه، بينما كان والده ممتقع الوجه، غاضبا.

«لقد هجم على جمعـــة وأرداه أرضا»، قال أبوه. «لقد أصابه جمعة في رأسه».

«وأين أصبته أنت؟».

«حيث استطعت»، قال أبوه. «اتبع أثر الدم».

كان الـــدم في كل مـــكان. تدفق من الفيل دمـــان: واحد عال بارتفاع رأس ديڤد رشـــق الجذوع والأوراق والكرمة بسائل قان، وآخر أخفض منه بكثير وكان داكن اللون، كريه الرائحة من جوف الفيل.

«لقد أصيب في رئته وجوفه»، قال أبوه. «سنجده في الأسفل أو ثابتا في مكانه، أي وحق الجحيم».

لقد وجدوه مســـتقرا في مكانـــه وقد بلغ منه العذاب واليأس مبلغا أقعده عن الحركة. لقد شـــق طريقه بين الأشجار الكثيفة حيـــث كان يرعى ثم عبر دربا في فســـحة في الغابة، فراح ديڤد وأبوه يركضان بمحاذاة الطريق المرشوش بالدم الغزير. ثم غاص الفيل بين غابة من الأشجار الكثيفة، فرآه ديڤد أمامهما مثل كتلة رمادية هائلة، يســـتند إلى جذع شجرة. لم يستطع ديڤد أن يرى ســـوى مؤخرته، فتقدم أبوه وســـار هو وراءه حتى صارا بمحاذاة الفيل كأنهما يطوفان بسفينة، فرأى ديڤد الدم يسح من خاصرتيه

علـــى جنبيه، ومن ثم رفع أبوه بندقيتـــه وأطلق النار فالتوى عنق الفيل وتهاوى ناباه بتثاقل بطيء وهو يرمقهما، وعندما أطلق أبوه ثانية راح الفيل يتهاوى كشـــجرة مفلوقة ترتمي بسرعة نحوهما. لكنه لم يمت بعد. لقد كان راسيا، والآن صار طريحا في الأرض مكســـور الكتف. لم يأت بحركة، لكن عينه كانت نابضة بالحياة وتنظـــر إلى ديفد. كانت له أهداب طويلة جدا، وكانت عينه أكثر شيء ينبض بالحياة رآه ديفد في حياته.

«أطلق عليه النار في دهليـــز أذنه بالبندقية عيار ٣٠٣»، قال أبوه. «هيا».

«أطلق عليه بنفسك»، قال له ديفد.

جاء جمعة مجللا بدمه وكان يعرج، وجلد جبينه مسلوخ يتدلى فوق عينه اليســـرى، وقد كشـــط الجلد عن عظم أنفه، ومزقت إحدى أذنيه. انتزع البندقيـــة من ديفد من دون أن ينطق بكلمة، ثم أقحم فوهة السبطانة تقريبا في دهليز الأذن، وأطلق طلقتين، وكان يزلـــج الرتـــاج إلى الأمام بحركة عصبية غاضبة. اتســـعت عين الفيل مع إطلاق الطلقة الأولى، فداهمتها غشاوة الموت في الحال، وراح الدم يسح من أذنيه وينهمر في تيارين ناصعين على إهابـــه الرمادي المتجعد. كان دمـــا مختلفا لونه وخطر لديفد أن يتذكـــر هذا ففعل، لكنه لم يفده في شـــيء قط. لقد جرد الفيل الآن من هيبته وجلاله وجماله وأصبح جثة هامدة متجعدة.

«حســـن، يا ديفي، لقد نلنا منه الآن والفضل لجهودك أنت»، قال له أبوه. «أما الآن فعلينا أن نشعل نارا كي أعالج جمعة. تعال إلى هنا أيها القصير. لن يفسد ذانك النابان».

جاءه جمعة مكشرا عن أسنانه وقد جلب معه ذيل الفيل الذي كان بلا شعر إطلاقا. فعل الرجلان مزحة قذرة بالذيل ثم راح أبوه يتكلم سريعا بالسواحلية. كم نبعد عن الماء؟ إلى أين ستذهب لتأتي بأناس يخرجون هذين النابين من هنا؟ كيف حالك، أيها العجوز الرذيل؟ ماذا كسرت؟

ولما كان أبوه يعرف الأجوبة، فقد قال له: «سنعود أنا وأنت لنأتي بالصرر من حيث تركناها. يستطيع جمعة أن يجمع الحطب ويشعل النار. العدة الطبية موجودة في صرتي. علينا أن نجلب الصرر قبل حلول الظلام. لن تتلوث جروحه. فهي ليست جروح مخالب. هيا بنا».

وبينما كانوا يجلسون بقرب النار في ذلك المساء نظر ديفد إلى جمعة ووجهه المدروز بالقطب وأضلاعه المكسورة، فتساءل إن كان الفيل قد عرفه حين حاول قتله. وتمنى أن يكون قد فعل. لقد صار الفيل الآن بطلا في نظره تماما كما كان أبوه بطلا لوقت طويل، فخطر له أنه لم يكن يعتقد أن الفيل قادر على فعل شيء نظرا إلى هرمه وإرهاقه. لكنه كاد يقتل جمعة. لم يبد لي أنه يريد قتلي. بل كان حزينا كحزني. لقد زار صديقه يوم مصرعه.

تذكر ديفد كيف فقد الفيل كل هيبته حالما داهمت عينه غشاوة الموت وكيف عندما عاد مع أبيه يحملان الصرر وجدا الفيل متورما برغم برودة المساء. لم يعد هناك فيل حقيقي، بل جثة متورمة رمادية مخددة ونابان مرقشان بالبني والأصفر كانا سبب هلاكه. كان النابان ملطخين بدم جاف فقشر شيئا منه

بظفر إبهامه كما يكشط قطعة يابسة من الشمع ووضعه في جيب قميصه. كان هذا كل ما أخذه من الفيل، إضافة إلى معرفة أولية لمعنى الوحدة.

وبعد المجزرة حاول أبوه أن يحدثه في تلك الليلة بقرب النار، فقال: «إنه مجرم كما تعلم يا ديفي. يقول جمعة لا أحد يعرف عدد الناس الذين قتلهم».

«كانوا جميعا يحاولون قتله، أليس كذلك؟».

«هذا أمر طبيعي نظرا إلى النابين اللذين لديه»، قال أبوه.

«إذن، كيف يكون مجرما؟».

«كما تشاء»، قال أبوه. «يؤسفني أنه اختلطت عليك الأمور بشأنه».

«ليته قتل جمعة»، قال ديفد.

«أعتقد أنك تتطرف قليلا»، قال أبوه. «إن جمعة صديقك، كما تعلم».

«لم يعد كذلك».

«لا داعي لأن تخبره بهذا».

«إنه يعلم»، قال ديفد.

«أعتقد أنك تسيء الظن به»، قال أبوه، وتوقفا عند ذلك الحد.

وأخيرا عادوا سالمين مع النابين بعد كل ما جرى. أُسند النابان على جدار البيت الطيني حيث كان طرفاهما المدببان يتلامسان، وقد كان النابان طويلين وغليظين إلى درجة أن الناس لم يصدقوا حتى عندما لمسوهما، ولم يستطع أحد، حتى أبوه، أن يصل إلى

أعلى المنحنــى حيث يلتقي طرفاهما المدببــان. وهنا أصبح هو وأبــوه وجمعة أبطــالا، وكيبو كلبا بطلا، والرجــال الذين حملوا النابين صاروا أبطالا ينتشــون بالمشروب وسينتشون أكثر، فقال له أبوه، «ألا تريد الصلح، يا ديڤي؟».

«لا بــأس»، قال لأبيه لأنه كان يــدرك أن هذه بداية الصمت الذي كان قد قرره سلفا.

«يسرني هذا كثيرا»، قال أبوه. «فهذا أفضل وأكثر بساطة».

ثم جلسوا على كراسي للشيوخ تحت ظل شجرة التين ينظرون إلى النابين المسندين إلى جدار الكوخ، ويشربون الشراب بكؤوس من يقطين جاءت بها فتاة وأخوها الأصغر، خادم الأبطال، الذي جلس على التراب بجانب كلب بطل صاحبه، بطل يمســك بديك عجوز رُقي إلى مرتبة صفي الأبطال من الديوك. ظلوا يجلسون هناك ويشــربون الشراب بينما بدأ قرع على الطبل الكبير وأخذ النِّغوما يتصاعد نحو الذروة(٧٩).

---

(٧٩) «نغوما»: لفظة سواحلية، محرفة على الأرجح عن كلمة «نغم» العربية، لكنها تعني إما «طبل» أو «رقص» [المترجم].

رحلة قطار (٨٠)
[١٩٨٧]

لمسني أبي فاستيقظت. كان يقف إلى جانب السرير في الظلام. أحسست بيده تلامسني فاستيقظ رأسي، ورأيت أشياء وشعرت بها لكن جسمي ظل نائما.

«جمي، هل أنت مستيقظ؟». سألني.

«نعم».

«البس ملابسك، إذن».

«حسن».

ظل واقفا، وأردت أن أتحرك لكنني في الحقيقة كنت نائما.

«البس ملابسك، يا جمي».

«حسن»، قلت له لكنني بقيت بلا حراك. لكن النوم غادرني فغادرت السرير.

«أحسنت، يا بني»، قال لي أبي. وقفت على السجادة وبحثت عن ملابسي عند قدم السرير.

«إنها على الكرسي»، قال أبي. «البس حذاءك وجواربك أيضا». ثم خرج من الغرفة. كان الجو باردا، مما عقد عملية اللبس، إذ إنني لم ألبس حذائي أو جواربي طوال الصيف، ولم أكن مسرورا بلبسهما. عاد أبي إلى الغرفة ثم جلس على السرير.

«هل يوجعك الحذاء؟».

---

(٨٠) تمثل قصة «رحلة قطار» الفصول الأربعة الأولى من رواية لم يكملها همنغواي ولم يضع لها عنوانا، وقد نشرت لأول مرة العام ١٩٨٧، أي بعد ستة وعشرين عاما على وفاة المؤلف [الناشر].

«بل يقرصني».

«إذا كان الحذاء يقرصك، فالبسه».

«هذا ما أفعله».

«سنشتري حذاء آخر»، قال له. «لم يكن ما قلته مجرد مبدأ، يا جمي. إنه مثل»[٨١].

«لقد فهمت».

«إنه مثل قولنا: اثنان ضد واحد متعة للزنجي. فهذا مثل أيضا».

«إنه يعجبني أكثر من ذلك المثل عن الحذاء»، قلت له.

«لقد أعجبك لأنه غير صحيح»، قال لي. «إن الأمثال الممتعة ليست صحيحة». كان الجو باردا، فربطت فردة حذائي الأخرى وانتهيت من اللبس.

«هل تريد حذاء بأزرار؟». سألني أبي.

«لا يهمني».

«لك هذا إن شئت»، قال لي. «فلكل إنسان أن يشتري حذاء بأزرار إن شاء ذلك».

«أنا جاهز تماما».

«إلى أين سنذهب؟».

«إلى مكان بعيد».

«إلى أين؟».

«إلى كندا».

---

(٨١) في الواقع، ما قاله أبو جمي هو خلط بين مثلين: الأول، «إذا كان الحذاء يناسبك، فالبسه»، والثاني، «اعرف أين يقرصك الحذاء». وهذا الأخير يعني أن على المرء أن يتعلم صعاب الأمور من تجاربه هو [المترجم].

«وسنذهب إلى هناك أيضا»، قال لي. ذهبنا إلى المطبخ. كانت جميع مصاريع النوافذ مغلقة وكان هناك مصباح على الطاولة. في وسط الغرفة كانت هناك حقيبة ملابس، وحقيبة من نسيج الدفل(٨٢)، وحقيبتا ظهر. «اجلس إلى الطاولة»، قال لي أبي. جلب المقلاة وركوة القهوة من الموقد وجلس بجانبي ثم أكلنا شرائح من اللحم وشربنا قهوة مضافا إليها قشدة مركزة.

«كل ما تستطيع».

«لقد شبعت».

«كل تلك البيضة أيضا». حمل البيضة المتبقية في المقلاة بملقط الفطائر ووضعها على طبقي. كانت أطراف البيضة مقرمشة من دهن اللحم. أكلتها ثم أجلت ناظري في المطبخ. فما دمت سأرتحل فقد أردت أن أتذكره وأودعه. كان الموقد الموجود في الزاوية صدئا، وكان نصف غطاء خزان الماء الساخن منزوعا. وفوق الموقد كانت هناك ممسحة صحون ذات مقبض خشبي عالقة في حرف أحد روافد السقف الخشبية. كان أبي قد قذف بها خفاشا ذات مساء. ثم تركها بعد ذلك في مكانها كي تذكره بشراء واحدة أخرى، ثم بعد ذلك لتذكره، وفق ظني، بالخفاش. أمسكت بالخفاش بوساطة شبكة لصيد الأسماك ثم وضعته في صندوق وغطيته بقطعة من المنخل لبعض الوقت. كانت عيناه صغيرتين وأسنانه صغيرة، وظل ملتفا على نفسه في الصندوق. أخذناه إلى شاطئ البحيرة في الظلام وأطلقنا سراحه، فطار فوق البحيرة، وكان طيرانه بطيئا ومتعثرا، ثم انحدر نحو الماء

---

(٨٢) الدفل: نسيج صوفي غليظ الزئبر [المترجم].

ثم حلق مرتفعا، وقفل راجعا فوقنا وعاد إلى الأشــجار المظلمة. كان في المطبخ طاولتان: واحدة للأكل، والثانية لغسل الصحون. وكانت كلتاهما مغطاة بقماش زيتي. كان هناك سطل من صفيح نحمل به الماء من البحيرة ونملأ به الخزان، وسطل من الغرانيت لماء البئر. وهناك مناشــف دوارة معلقة علــى باب غرفة المؤونة ومناشف للصحون معلقة على حمالة فوق الموقد. وكانت المكنسة تنتصــب في الزاوية. كان صنــدوق الحطب نصف مملوء وكانت جميع القدور معلقة على الجدار.

أجلــت ناظري في كل أنحاء المطبخ لأتذكره، فإذا بي أهيم به أيما هيام.

«حسن، هل تعتقد أنك ستتذكره؟». سألني أبي.

«أعتقد ذلك».

«وماذا ستتذكر؟».

«كل المتع التي نلناها».

«إذن ليس فقط ملء الصندوق بالحطب وانتشال الماء؟».

«لم يكن ذلك عسيرا».

«هذا صحيح، لم يكن عســيرا»، قال أبي. «ألا تشعر بالأسى لرحيلنا؟».

«ليس إذا كنا سنذهب إلى كندا».

«لكننا لن نبقى هناك».

«ألن نبقى هناك بعض الوقت؟».

«ليس لوقت طويل».

«إلى أين سنذهب إذن؟».

«سنرى».

«لا يهمني أين نذهب»، قلت له.

«حاول أن تظل دوما هكذا»، قال أبي. أشعل سيجارة ثم قدم لي العلبة. «ألا تدخن؟».

«لا».

«أحسنت»، قال لي. «والآن اخرج واصعد السلم وضع السطل على المدخنة، بينما أنا أقفل الأبواب».

خرجت، وكان الظلام لا يزال يخيم لكن الجو بدأ يتكشف عند طرف التلال. كان السلم يستند إلى السطح، ووجدت سطل التوت القديم بجانب مستودع الحطب، ثم تسلقت السلم. شعرت وأنا أصعد درجات السلم بأن نعل حذائي يتقلقل تحتي وينزلق. وضعت السطل على نهاية أنبوب الموقد لمنع المطر والسناجب وسواها من النزول فيه. تطلعت من أعلى السطح إلى البحيرة من خلال الأشجار. ثم تطلعت من جهة السطح الأخرى، فرأيت سطح مستودع الحطب، والسياج، والتلال. أصبح الجو الآن أكثر تكشفا من قبل عندما صعدت السلم، وكان الطقس باردا والصباح في أوله. تطلعت إلى الأشجار والبحيرة مرة أخرى لأتذكرها، ثم أجلت ناظري في كل الاتجاهات: إلى التلال في الخلف، والغابات من جهة المنزل الأخرى، ثم مرة أخرى إلى سطح مستودع الحطب، فأحببتها جميعا، مستودع الحطب والسياج والتلال والغابات، وتمنيت لو أننا كنا ذاهبين في رحلة لصيد السمك لا مرتحلين. سمعت الباب يغلق وأبي يخرج كل الحقائب ويضعها على الأرض.

ثم أغلق الباب. نزلت السلم.

«جمي»، ناداني أبي.

«نعم».

«كيف هي الأمور عندك؟».

«إني نازل».

«بل اصعد. أريد أن أصعد للحظة»، قال لي ثم صعد ببطء وحذر شديدين. أجال ناظريه تماما كما فعلت. «وأنا لا أريد أن نذهب»، قال لي.

«لماذا علينا أن نذهب؟».

«لا أعلم، لكنه واجب علينا»، قال لي.

نزلنا السلم ثم وضعه أبي في مستودع الحطب. حملنا أغراضنا إلى رصيف القوارب. كان القارب الآلي راسيا بجانب الرصيف. كان الندى على الغطاء المصنوع من القماش الزيتي، وعلى المحرك، والمقاعد. نزعت الغطاء وجففت المقاعد بخرقة بالية. أنزل أبي الحقائب من الرصيف إلى مؤخرة القارب. حللت حبلي المقدمة والمؤخرة، وعدت إلى القارب وأمسكت بالرصيف. ملأ أبي المحرك بوساطة صنبور صغير، وهز المقود مرتين لكي يصل الوقود إلى الأسطوانة، ثم أدار ذراع عجلة التشغيل، فاشتغل المحرك. ظللت أشد القارب إلى الرصيف بوساطة أنشوطة في الحبل الملفوف حول إحدى الركائز. راحت مروحة الدفع تضرب الماء بعنف، فابتعد القارب عن الرصيف، مخلفا وراءه دوامات من الماء بين الركائز.

«حرره يا جمي»، قال أبي، فقذفت الحبل وانطلقنا مبتعدين

عن الرصيف. رأيت الكوخ ونوافذه الموصدة من خلال الأشجار. كنا نتجه في خط يتعامد مع الرصيف، فصار الرصيف يضيق بينما الشريط الساحلي يتسع.

«تول القيادة»، قال لي أبي، فأخذت المقود وأدرت القارب باتجاه الرأس البحري. التفتُّ إلى الوراء ورأيت الشاطئ والرصيف وبيت القوارب وأجمة من أشجار بلسم جلعاد[٨٣]، ولما تجاوزنا الفسحة الخالية من الأشجار شاهدنا الممر الضيق والجدول الصغير الذي يصب في البحيرة، ثم الضفة العالية التي تحفها أشجار الشمروخ، ثم ساحل الرأس البحري المحاط بالغابات، فكان علي أن أتيقظ للحاجز الرملي الذي سيأتي بعد الرأس البحري بكثير. كان الماء عميقا حتى طرف الحاجز الرملي، لذلك سرت بمحاذاة حافة القناة ثم استدرت عند نهايتها لما رأيت ضفة القناة تغوص تحت الماء والأعشاب المائية النامية تحت الماء تجذبها مروحة الدفع نحونا. تجاوزنا الرأس البحري، وعندما التفت إلى الوراء وجدت أن الرصيف وبيت القوارب قد اختفيا عن الأنظار، ولم أر سوى الرأس البحري وثلاثة غربان تمشي على الرمال وزند خشبي عتيق نصفه مغطى بالرمال، والبحيرة الفسيحة أمامنا.

سمعت القطار ثم رأيته قادما. في البداية قدم على شكل منحنى طويل، وبدا متناهي الصغر، سريعا، ومجزأ إلى أقسام مترابطة، يسير مع التلال والتلال تسير مع الأشجار خلفه. رأيت نفثة بيضاء تنطلق من المحرك ثم سمعت صفارة تبعتها

(٨٣) بلسم جلعاد: أشجار من الفصيلة البخورية، عطرة الأوراق، والتسمية توراتية فيما يبدو، إذ إن «بلسان جلعاد» ورد ذكره في سفر إرميا مرتين (٨:٢٢، ١١:٤٦). وجلعاد منطقة تلال تقع اليوم غرب جبال عجلون في الأردن [المترجم].

نفثــة أخرى ثــم صفارة أخــرى. كان الوقت لا يــزال باكرا في الصبــاح، وكان القطــار قادما من الجهة الأخــرى لغابة طمراق مســتقعية(٨٤)، كانت المياه الجارية تحيط بسكة الحديد من كلا جانبيها، وكانت هذه المياه مياه نبع صاف ذات قعر مستقعي بني اللون، وكان الســديم يخيم على وسط المستقع. وكانت الأشجار التي أتــت عليها نيران الغابات تبدو رماديــة، رفيعة، وميتة في الســديم الذي لم يكن ضبابيا. كان الجو في هذا الصباح الباكر باردا. صار القطار الآن على السكة بخط مستقيم، فيقترب أكثر فأكثــر، ويصبح أكبر فأكبر. تراجعت عن الســكة ونظرت ورائي إلى البحيرة ودكاني الخضار وبيوت القوارب والأرصفة الطويلة الممتــدة في الماء، ثم إلى الرقعــة المرصوفة بالحصى حول البئر الارتوازيــة القريبة من المحطة حيث كان المــاء يتدفق في ضوء الشــمس من أنبوب بني تغطيه طبقة رقيقة مــن الماء. كان الماء يندفــق صاخبا في حوض البحيرة، وفــي الخلف كانت البحيرة التي يداعبها نســيم هب لتوه، وكان الشــاطئ تحف به الغابات، وكان القارب الذي جئنا به مربوطا إلى الرصيف.

توقــف القطار، فترجل الجابي وعامــل المكابح، بينما ودع أبي فرد كتبيرت الذي ســيضع قاربنا في بيت القوارب عنده ويعتني به.

«متى ستعود؟».

«لا أعــرف، يا فــرد»، قال لــه أبي. «أعطه وجــه طلاء في الربيع».

---

(٨٤) الطمراق: شجرة أمريكية من الفصيلة الصنوبرية [المترجم].

«وداعا، يا جمي»، قال فرد. «اعتن بنفسك».

«وداعا، يا فرد».

صافحنا فرد ثم ركبنا القطار. ركب الجابي في العربة التي أمامنا، ثم التقط عامل المكابح الصندوق الصغير الذي صعدنا عليه، وقفز إلى القطار عندما انطلق. ظل فرد واقفا على رصيف المحطة، وظللت أنا أراقب المحطة وفرد يقف عندها ثم يبتعد، والماء يتدفق من الأنبوب، ثم القضبان الرابطة للسكة، والمستنقع، والمحطة المتضائل حجمها، والبحيرة التي راح شكلها يختلف الآن من هذه الزاوية الجديدة، ثم توارينا عن الأنظار، وعبرنا نهر الدب، ودخلنا في شعب، ولم يعد هناك سوى قضبان الربط وسكة الحديد تتلاشى إلى الخلف وما ينمو من أعشاب النار(٨٥) النامية بجانب السكة، ولم يعد هناك ما أنظر إليه لأتذكره. لقد بدا كل شيء جديدا الآن وأنا أنظر إليه من رصيف المحطة، وبدت الغابات لي بحلة جديدة كأني لم أعرفها من قبل. إنها مجرد بحيرة جديدة ولا تشبه بحيرة عشت على شاطئها.

«ستجد كل أنواع الرماد في هذه النواحي»، قال لي أبي.

«أظن أنه يجدر بنا أن ندخل»، قلت له. انتابني شعور غريب وأنا في هذه البلاد الجديدة. أظن أنها في الواقع لا تختلف عن البلاد التي عشنا فيها لكنها لم تولّد فيّ ذات الإحساس. أظن أن كل رقعة حراجية مصفرة أوراقها تبدو متشابهة، لكن منظر غابة زان من القطار لا يدخل السرور إلى قلبك، بل يجعلك تشتاق إلى الغابات في موطنك. لكنني لم أكن أعرف ذلك حينها. كنت

---

(٨٥) أعشاب النار: كل ما ينمو من أعشاب بعد الحرائق [المترجم].

أظـــن أنها لن تختلف عما ألفناه في موطننا إلا من حيث الكثرة، وأنها ســـتولد فيَّ ذات المشـــاعر، لكنها لم تكن كذلك. لم تربطنا بها أي رابطة. كانت التلال أسوأ من الغابات. قد تبدو كل التلال في مشـــيغن متشـــابهة لكنني كنت أنظر من نافذة عربتنا فأرى غابات ومستنقعات، ثم نعبر جدولا رائعا جدا، ثم نمر بتلال فيها بيت ريفي وغابات خلفها، وكانت التلال هي التلال نفســـها لكنها مختلفة، وكان كل شـــيء مختلفا قليلا. أظن، بطبيعة الحال، أن التلال التي تمر بها ســـكة قطار لا يمكن أن تكون متشابهة. لكن هـــذا لم يكن مما خطر في بالي. علـــى أي حال، كان يوما رائعا من أيام الخريف الأولى. وكان الهواء الداخل من النافذة المفتوحة منعشا، وشـــعرت بالجوع بعد قليل. لقد اســـتيقظنا قبل الفجر والآن تجاوزت الســـاعة الثامنة والنصف. عـــاد أبي إلى مقعدنا في العربة.

«كيف حالك، يا جمي؟».

«جائع».

ناولني قالبا من الشوكولاتة وتفاحة من جيبه.

«هيـــا بنا إلى عربة التدخين»، قال لي، فتبعته عبر العربة إلى التي أمامنا. جلسنا على أحد المقاعد، وكان أبي من جهة الداخل بقـــرب النافذة. كانـــت عربة التدخين قـــذرة، وكان جلد المقاعد الأسود محروقا من الجمر.

«انظر إلـــى المقاعد التي تواجهنا»، قال لـــي أبي من غير أن ينظر هو إليها. كان يجلس في مواجهتنا رجلان جنبا إلى جنب. كان الرجل الذي يجلس من جهة الداخل ينظر من النافذة، وكان

معصمه الأيمن مقيدا إلى المعصم الأيسر للرجل الذي يجلس إلى جانبـــه. وكان يجلس في المقعد الـــذي أمامهم رجلان. لم أتمكن إلا من رؤية ظهريهما لكنهما كانا يجلسان بالطريقة نفسها. كان الرجلان اللذان يجلسان من جهة الممر يتحدثان.

«هكذا في وضح النهار»، قال الرجل الذي يجلس في مواجهتنا. تحدث الرجل الذي يجلس قبالته من غير أن يلتفت.

«قل لي لماذا لم نأخذ قطار الليل؟».

«هل كنت تريد أن تنام مع هذه الأصفاد؟».

«بالتأكيد. لم لا؟».

«بل هكذا أفضل».

«إذا كانت الجحيم أفضل».

نظـــر إلينا الرجل الذي كان يتطلع من النافذة وغمز لنا. كان رجلا صغيرا ويلبس طاقية. كان هناك ضماد يطوق رأسه تحت الطاقية. وكان الرجل المقيد إليه يلبس طاقية، لكن رقبته غليظة، ويرتدي بذلة زرقاء، ويلبس طاقية كأنها لبست للسفر فقط.

كان الرجـــلان اللـــذان في المقعد الذي يليـــه من ذات الحجم والقوام تقريبا، لكن رقبة الرجل الجالس من جهة الممر أغلظ.

«ما رأيك في ســـيجارة، يا جاك؟»[٨٦]، وجّه الرجل الذي غمز لنا حديثه لأبي من فوق كتف الرجل الذي كان مقيدا إليه. التفت الرجـــل ذو الرقبة الغليظة ورمقني وأبي بنظرة. ابتســـم الرجل الذي غمز لنا. أخرج أبي علبة سجائر.

---

(٨٦) «جاك» نداء لا تكلف فيه، يخاطب به الأمريكيون من لا يعرفون اسمه، لذلك فهو هنا ليس اسم والد جمي [المترجم].

«تريد أن تعطيه سـيجارة؟». سأل الحارس. ناوله أبي العلبة عبر الممر.

«أنا سـأعطيها له»، قال الحارس. أخذ العلبة بيده الطليقة، ضغط عليها، ثم وضعها في يده المقيدة، وسـحب سـيجارة بيده الطليقـة وأعطاها للرجـل الجالس بجانبه. ابتسـم لنا الرجل الجالس بجانب النافذة، وأشعل له الحارس السيجارة.

«إنك تغمرني بلطفك»، قال للحارس.

أعاد الحارس علبة السجائر عبر الممر إلينا.

«خذ واحدة»، قال له أبي.

«أشكرك، لكنني أتسلى بمضغة تبغ».

«رحلتك طويلة؟».

«شيكاغو».

«إنها وجهتنا أيضا».

«إنهـا مدينة جميلة»، قـال الرجل الصغيـر الجالس بقرب النافذة. «لقد زرتها ذات مرة».

«أي نعم، لقد زرتها»، قال له الحارس. «نعم، لقد زرتها».

انتقلنا من مقعدنا وجلسنا في المقعد المقابل لهم. التفت الحارس الذي في الأمام حوله. أطرق الرجل الذي معه في الأرض.

«ما الأمر؟». سأل أبي.

«هذان السيدان مطلوبان في قضية قتل».

غمز لي الرجل الجالس بقرب النافذة.

«دعك من هذه القذارة، فنحن هنا سـادة محترمون جميعا»، رد قائلا.

«من القتيل؟». سأل أبي.

«إيطالي»، قال الحارس.

«من؟». سأل الرجل الصغير بابتسامة متألقة.

«إيطالي»، كرر الحارس قوله لأبي.

«من قتله؟». سأل الرجل الصغير وهو ينظر إلى الرقيب ويحدق فيه على اتساع عينيه.

«أنت مضحك جدا»، قال له الحارس.

«لا، يا سيدي»، رد عليه الرجل الصغير. «بل سألتك، أيها الرقيب، عمن قتل هذا الإيطالي».

«هو الذي قتل هذا الإيطالي»، قال السجين الجالس في المقعد الأمامي وهو يسدد نظراته إلى رجل المباحث. «هو الذي قتل هذا الإيطالي بقوسه ونشابه».

«كفى، كفى»، قال رجل المباحث.

«أيها الرقيب»، قال الرجل الصغير. «أنا لم أقتل هذا الإيطالي. أنا لست راغبا في قتل إيطالي. أنا لا أعرف أي إيطالي».

«سجل أقواله واستخدمها ضده»، قال السجين الذي في المقعد الأمامي. «كل ما يقوله سيستخدم ضده. هو لم يقتل هذا الإيطالي».

«أيها الرقيب»، قال الرجل الصغير. «من قتل هذا الإيطالي؟».

«أنت قتلته»، قال له رجل المباحث.

«هذا افتراء، أيها الرقيب»، قال الرجل الصغير. «أنا لم أقتل هذا الإيطالي. وأنا أرفض أن أكرر أقوالي. أنا لم أقتل هذا الإيطالي».

«كل ما يقوله يجب أن يستخدم ضده»، قال السجين الآخر. «أيها الرقيب، لماذا قتلت هذا الإيطالي؟».

«لقد كان خطأ، أيها الرقيب»، قال السجين الصغير. «لقد كان خطأ فظيعا. ما كان عليك أن تقتل هذا الإيطالي أبدا».

«أو ذلك الإيطالي»، قال السجين الآخر.

«اخرسا كلاكما»، قال الرقيب. «إنهما مدمنا مخدرات»، قال لأبي. «إنهما مخبلان مثل الحشرات».

«حشرات؟». قال الرجل الصغير بنبرة مرتفعة. «ليس في أي حشرات، أيها الرقيب».

«إنه ينحدر من سلالة إنجليزية أرستقراطية عريقة»، قال السجين الآخر. «اسأل السيناتور الجالس هناك»، قال وهو يومئ نحو أبي.

«اسأل الرجل الصغير هناك»، قال السجين الأول. «إنه في عمر جورج واشنطن[٨٧]، لا يمكنه أن يكذب».

«تكلم، أيها الغلام»، قال السجين الكبير وهو يحدق فيَّ.

«كفى، كفى»، قال له الحارس.

«أجل، أيها الرقيب»، قال له السجين الصغير. «دعه يكف عن هرائه. ثم إنه لا يحق له أن يقحم الصبي الصغير في هذا الأمر».

«وأنا كنت صبيا في يوم من الأيام»، قال السجين الكبير.

«أغلق فمك اللعين»، قال له الحارس.

«لا فض فوك، أيها الرقيب»، قال له السجين الصغير.

---

(٨٧) جورج واشنطن (١٧٣٢ - ١٧٩٩): أول رئيس للولايات المتحدة [المترجم].

«أغلق أنت فمك اللعين»، قال له السجين الصغير وغمز لي.

«لعلـــه من الأفضل لنا أن نعود إلى عربتنا»، قال لي أبي. «إلى اللقاء»، قال أبي لرجلي المباحث.

«لا بأس، نراك على الغداء». هز رجل المباحث الآخر رأســـه. غمز لنا الســـجين الصغير، وراقبنا ونحن نســـير في الممر. كان الســـجين الآخر ينظر من النافذة. عدنـــا من عربة التدخين إلى مقاعدنا في العربة الأخرى.

«حسن، يا جمي، ماذا فهمت مما رأيت؟».

«لا أعرف».

«ولا أنا»، قال أبي.

عنـــد الغداء في بلـــدة كاديلاك كنا نجلس إلـــى منضدة قبل أن يدخلوا ويجلســـوا إلى طاولة بعضهم مقابل بعض. كان غداء جيدا. أكلنا فطيرة من لحم الدجاج وشـــربت كأســـا من الحليب وأكلـــت قطعة من فطيـــرة التوت مع الآيس كـــريم. كانت غرفة الطعـــام مكتظـــة. كان بإمكانك أن ترى القطـــار إذا نظرت عبر الباب المفتوح. جلســـت على كرسي على منضدة الغداء وراقبتهم الأربعة يأكلون. أكل السجينان، كل بيده اليسرى، ورجلا المباحث، كل بيـــده اليمنى. وعندما أراد رجل المباحث أن يقطع اللحم كان يستخدم الشوكة باليد اليسرى، وهذا يشد يمين السجين نحوه. كانت كلتا اليدين المقيدتين فوق الطاولة. راقبت السجين الصغير وهو يـــأكل، وكان يضايق الرقيب أيما مضايقـــة من دون قـــصد فيما يبدو. كانت يده ترتجـــف فجأة، من غير وعي فيـــما يـــبدو، ثم يمســـكها بحيث تظل يد الرقيـــب اليسرى مشـــدودة تـــماما.

أما الآخران فقد كانا يأكلان بلا مضايقة. على أي حال، لم يكن في مراقبتهما ما يثير الاهتمام.

«لماذا لا تنزع هذه الأغلال ونحن نأكل؟». قال الرجل الصغير للرقيب. لم يرد عليه الرقيب بشيء. كان يمد يده ليتناول فنجان قهوته، وعندما تناوله نتر الرجل الصغير يده فجأة، فسفح الرقيب قهوته. نتر الرقيب ذراعه من دون أن ينظر نحو الرجل الصغير، فنترت أصفاد الفولاذ رسغه ثم لكمه الرقيب برسغه على وجهه.

«ابن العاهرة»، قال الرجل الصغير. جرحت شفته، فلعقها.

«من؟». سأله الرقيب.

«لا أقصدك»، قال له الرجل الصغير. «كيف أقصدك وأنا مقيد إليك؟ مستحيل».

أنزل الرقيب رسغه تحت الطاولة وتطلع في وجه الرجل الصغير.

«ماذا تقول؟».

«لا شيء»، قال الرجل الصغير. تطلع الرقيب في وجهه ثم مد يده المقيدة ثانية ليتناول فنجان قهوته. كانت يمين الرجل الصغير ممدودة على الطاولة بينما كان الرقيب يمد يده. رفع الرقيب فنجان القهوة، ولما رفعه ليشربه نتر من يده فسفحت القهوة على كل شيء. صفع الرقيب الرجل الصغير بالأصفاد على وجهه مرتين من دون أن ينظر إليه. راح وجه الرجل الصغير ينزف ثم لعق شفته وراح ينظر إلى الطاولة مطرقا.

«هل اكتفيت؟».

«أجل»، قال الرجل الصغير. «لقد شبعت».

«هل ارتحت الآن؟».

«جدا»، قال الرجل الصغير. «وأنت، ما شعورك؟».

«امسح وجهك»، قال الرقيب. «فمك مليء بالدم».

رأيناهم يصعدون إلى القطار اثنين اثنين، وصعدنا نحن أيضا، وتوجهنا إلى مقاعدنا. رجل المباحث الآخر، ليس المدعو بالرقيب بل المقيد إلى السجين الكبير، لم ينتبه إلى ما جرى على الطاولة. كان يراقب ما يجري، لكنه لم يبد أنه شاهد شيئا. لم يقل السجين الكبير شيئا، لكنه راقب كل شيء.

كان زئبر مقعدنا في القطار مليئا بالرماد، فنفضه أبي بجريدة. انطلق القطار وتطلعت من النافذة المفتوحة وحاولت رؤية كاديلاك، لكنني لم أتمكن إلا من رؤية البحيرة، والمعامل، وطريق رائع أملس بمحاذاة السكة. وكان شاطئ البحيرة محفوفا بأكوام من نشارة الخشب.

«لا تخرج رأسك من النافذة، يا جمي»، قال أبي. جلست. على أي حال، لم يكن هناك ما تجدر رؤيته.

«هذه هي المدينة التي تحدر منها آل موغاست»، قال أبي[٨٨].

«أوه»، قلت له.

«هل رأيت ما جرى على الطاولة؟». سألني أبي.

«نعم».

«هل رأيت كل شيء؟».

«لا أعرف».

---

(٨٨) آل موغاست: شخصية روائية ليست حقيقية[المترجم].

«فـي رأيـك، لمـاذا اختلق ذلـك الرجـل الصغيـر كل تلك المشكلة؟».

«أظن أنه أراد أن يضايقهما كي ينزعا عنهما الأغلال».

«هل رأيت شيئا غير ذلك؟».

«رأيته يُصّفَع ثلاث مرات على وجهه».

«أين كنت تركز نظرك عندما صفعه؟».

«على وجهه. راقبت الرقيب وهو يصفعه».

«حسن»، قال أبي. «بينما كان الرقيب يصفعه على وجهه ويده اليمنى مغلولة، تناول بيساره سكينا فولاذية من الطاولة ووضعها في جيبه».

«لم أر ذلك».

«نعـم، لم تره»، قال أبي. «لكل إنسـان يـدان، يا جمي. على الأقـل، في البداية. وعليك أن تراقـب كليهما إذا أردت أن ترى الأمور كاملة».

«وماذا فعل الآخران؟». سألت أبي، فضحك.

«لم أراقبهما»، قال لي.

جلسنا في القطار بعد الغداء ورحت أتطلع من النافذة وأراقب الريف. لم يعد يهمني كثيرا لأنني كنت مشـغولا بأشـياء كثيرة أخـرى تجري من حولي، ثم إنني اكتفيت من رؤية الريف، لكنني لم أشـأ أن أقترح على أبي أن نذهب إلـى عربة التدخين ما لم يفعل هو. كان يقرأ وكان تململي يضايقه.

«ألا تقرأ أبدا يا جمي؟».

«ليس كثيرا»، قلت له. «ليس لدي الوقت».

«ماذا تفعل الآن؟».

«أنتظر».

«هل تريد الذهاب إلى هناك؟».

«نعم».

«هل تعتقد أن من واجبنا إخبار الرقيب؟».

«لا»، قلت له.

«إنها مسألة أخلاقية»، قال ثم أغلق الكتاب.

«هل تريد أن تخبره؟». سألته.

«لا»، قال أبي. «أضف إلى ذلك أن كل إنسان بريء حتى تثبت إدانته. قد لا يكون قد قتل ذلك الإيطالي».

«هل هما من متعاطي الممنوعات؟».

«لا أعرف إن كانا يتعاطيان الممنوعات أم لا»، قال أبي. «كثير من الناس يتعاطونها. لكن تعاطي الممنوعات لا يجعل الناس يتحدثون كما تحدثا».

«ما هو إذن؟».

«لا أعرف»، قال أبي. «ما الذي يجعل أي إنسان يتحدث كما تحدثا؟».

«هيا بنا إلى هناك»، قلت لأبي. أنزل أبي حقيبة الملابس، ففتحها، ثم وضع فيها الكتاب وشيئا آخر من جيبه. قفل الحقيبة ثم توجهنا إلى عربة التدخين. وبينما كنا نسير في ممر عربة المدخنين، رأيت رجلي المباحث والسجينين يجلسون صامتين. جلسنا في مواجهتهم.

كانت قبعة الرجل الصغير مسدلة على الضماد الذي يحيط

برأسه وكانت شفتاه متورمتين. كان يقظا ويتطلع من النافذة. كان الرقيب يغالب النعاس، فتارة يغمض عينيه وتارة يفتحهما. بدا وجهه مكدرا، ناعسا. كان الآخران في المقعد الأمامي يغطان في النوم. كان السجين يميل نحو جهة النافذة، بينما كان رجل المباحث يميل نحو الممر. لم يكونا مرتاحين في تلك الوضعية، لذلك كلما استغرقا في النوم مال كل منهما نحو الآخر.

نظر الرجل الصغير إلى الرقيب ثم إلينا. لم يبد أنه عرفنا، فراح ينظر إلى آخر العربة. كان فيما يبدو يتطلع إلى كل الرجال في عربة التدخين. لم يكن هناك كثير من المسافرين. ثم نظر إلى الرقيب ثانية. أخرج أبي كتابا آخر، وراح يقرأ.

«أيها الرقيب»، قال الرجل الصغير. ظل الرقيب يتطلع إلى السجين دون أن ترف عيناه.

«أريد أن أذهب إلى المرحاض»، قال الرجل الصغير.

«ليس الآن»، قال الرقيب وأغمض عينيه.

«اسمع، أيها الرقيب»، قال الرجل الصغير. «ألم تحتج قط إلى المرحاض؟».

«ليس الآن»، قال الرقيب. لم يكن يرغب في مفارقة تلك الحال التي تتأرجح بين النعاس واليقظة. كان يجر أنفاسه ببطء وتثاقل، لكنه عندما يفتح عينيه كانت أنفاسه تتوقف. نظر الرجل الصغير إلينا لكنه لم يبد ما يدل على أنه عرفنا.

«أيها الرقيب»، قال للرقيب الذي لم يجبه. مرر الرجل الصغير لسانه على شفتيه. «اسمع، أيها الرقيب، أنا في حاجة للذهاب إلى المرحاض».

«لا بــأس»، قال له الرقيب. نهض فنهض معه الرجل الصغير وســارا إلى آخر الممــر. نظرت إلى أبي، فقال لــي، «اتبعهما إن شئت». تبعتهما حتى آخر الممر.

كانا يقفان عند الباب.

«أريد الدخول بمفردي»، قال السجين.

«ممنوع».

«هيا، دعني أدخل بمفردي».

«لا».

«لم لا؟ يمكنك أن تغلق الباب».

«لن أنزعهما عنك».

«هيا، أيها الرقيب، دعني أدخل بمفردي».

«دعنا نلق نظرة»، قــال الرقيب. دخلا فأغلق الرقيب الباب. كنت أجلس علــى المقعد المقابل لباب المرحاض. تطلعت إلى أبي في آخر الممر. كنت أسمعهما يتحدثان في الداخل لكن لا أعرف ماذا يقولان. أدار أحدهما مقبض الباب ليفتحه، فســمعت شيئا يســقط عليه ثم يرتطم به مرتين. بعدئذ سقط على الأرض. ثم سمعت صوتا مثل ذلك الصوت الذي تسمعه عندما تمسك أرنبا من قائمتيه الخلفيتين وتخبط رأســه على جذع شــجرة لتقتله. كنت أنظر إلى أبي وأومئ له. ســمعت ذلك الصوت ثلاث مرات، ثم رأيت شيئا يتسرب من تحت الباب. كان دما وكان يجري ببطء وسلاســة. عدوت إلى أبي في آخر الممــر. «هناك دم يخرج من تحت الباب».

«اجلس هناك»، قال أبي، ثم نهض. عبر الممر وربت على كتف

رجل المباحث. تطلع إليه الرجل.

«لقد ذهب شريكك إلى المرحاض»، قال له أبي.

«طبيعي»، قال رجل المباحث. «ولم لا؟».

«ذهب ابني إلى هناك ويقول إنه رأى دما يتسرب من تحت الباب».

قفز رجل المباحث ونتر السجين الآخر من فوق المقعد. نظر السجين الآخر إلى أبي.

«هيا»، قال له رجل المباحث. ظل السجين جالسا في مكانه. «هيا»، قال له رجل المباحث لكن السجين لم يتزحزح. «هيا وإلا حطمت رأسك برصاصة».

«ما الأمر، يا صاحب الفخامة؟».

«هيا بنا، أيها القذر»، قال له رجل المباحث.

«أرجوك، لا داعي لذلك»، قال له السجين.

سارا في الممر، وكان رجل المباحث في المقدمة يحمل مسدسا بيمينه والسجين المقيد إليه يتلكأ وراءه. وقف الركاب ليستطلعوا الأمر. «الزموا أماكنكم»، قال لهم أبي. ثم أمسك بي من ذراعي.

شاهد رجل المباحث الدم تحت الباب. التفت وراءه ونظر إلى السجين. رآه السجين ينظر إليه، فوقف مكانه. «لا»، قال له. بينما كان رجل المباحث يمسك المسدس بيمينه، نتر يده اليسرى بعنف إلى الأسفل فانكب السجين على ركبتيه. «لا»، قال له. راح رجل المباحث يراقب الباب والسجين، فتحايل حتى أمسك المسدس، وغافل السجين بضربة على جانب رأسه. زل السجين

عن موضعه، فخبط الأرض برأسه ويديه. «لا»، قال وهو يهز رأسه على الأرض. «لا، لا، لا».

ضربه رجل المباحث ثانية وثانية حتى هدأ. انكب على وجهه على الأرض، وكان رأسه ينحني على صدره. وبينما هو يراقب الباب، وضع رجل المباحث المسدس على الأرض، ثم فتح قفل الأغلال من معصم السجين. ثم التقط المسدس ونهض. أمسك المسدس بيمينه وشد الحبل بيساره ليوقف القطار. ثم مد يده نحو مقبض الباب.

راح القطار يتباطأ.

«ابتعدوا عن الباب»، سمعنا شخصا يقول من خلف الباب.

«افتح الباب»، قال له رجل المباحث وتراجع إلى الوراء.

«آل»، نادى الصوت من الداخل. «آل، هل أنت بخير؟».

انتحى رجل المباحث إلى أحد جانبي الباب. صار سير القطار بطيئا.

«آل»، نادى الصوت ثانية. «آل، أجبني إن كنت بخير».

لم يجب أحد. توقف القطار. فتح عامل المكابح الباب، وقال، «ماذا يجري؟». نظر إلى الرجل المنبطح على الأرض، ثم إلى الدم ورجل المباحث الذي يحمل مسدسا بيده. قدم جابي التذاكر من الطرف الآخر للعربة.

«يوجد هنا شخص قتل رجلا»، قال رجل المباحث.

«أي، وحق الجحيم. وقد هرب من النافذة»، قال عامل المكابح.

«راقبوا هذا الرجل»، قال رجل المباحث. فتح الباب المؤدي

إلــى الرصيف. ذهبت إلى الطرف الآخــر من الممر ونظرت من النافذة. كانت الســكة مسيجة بسياج. وكان وراء السياج غابات. نظرت إلى السكة صعودا ونزولا. رأيت رجل المباحث يعدو ويمر مــن أمامي، ثــم يعود. لم يكن هناك أحد علــى مد البصر. عاد رجــل المباحث إلى العربة ثم فتحوا باب المرحاض. لم يكن الباب ينفتح على مصراعه لأن الرقيب كان يستلقي على الأرض خلفه. كانت النافذة مفتوحة حتى منتصفها تقريبا. كان الرقيب لا يزال يتنفس. انتشلوه وحملوه إلى العربة، ثم حملوا السجين وأجلسوه علــى أحد المقاعد. أدخل رجل المباحث القيد في مقبض حقيبة ملابس كبيرة. احتار الناس فيما يفعلون: هل يعتنون بالرقيب أم يحاولون إيجاد الرجل الصغير أم ماذا؟ خرج الجميع من القطار وفتشــوا الســكة وفي أطراف الغابة. كان عامل المكابح قد رأى الرجل الصغير يعبر السكة إلى الغابة. دخل رجل المباحث الغابة مرتين ثم خرج منها. كان السجين قد سلب من الرقيب مسدسه، فلــم يبد أحــد رغبة في الإيغــال في الغابة بحثــا عنه. أخيرا، ســيروا القطار كــي يصلوا إلى محطة يمكنهــم منها أن يتصلوا بقيادة الشــرطة في الولاية ويعمموا أوصــاف الرجل الصغير. ساعدهم أبي في العناية بالرقيب. إذ غسل الجرح الذي كان بين عظم الترقوة والرقبة، وأرســلني لأجلب له الورق والمناشــف من المرحاض، ثم طواها وجعل منها سدادة للجرح ثم ربطها بإحكام بردن قميص الرقيب. مددوه بأقصى ما اســتطاعوا من التأني، وغســل أبي له وجهه. لقد تعرض رأســه للضــرب على أرضية المرحاض، وكان لا يزال غائبا عن الوعي، لكن أبي قال إن الجرح

ليس خطرا. عندما توقفنا في المحطة أنزلوه، بينما أنزل رجل المباحث السجين الآخر. كان وجه هذا السجين شاحبا، وكانت على جانب رأسه كدمة متورمة. كان منظره مثيرا للاستهزاء عندما أنزلوه وبدا متلهفا لفعل كل ما يؤمر به. عاد أبي إلى العربة بعد أن ساعدهم في أمر الرقيب. كانوا قد وضعوه في شاحنة كانت في المحطة وينوون الانطلاق به إلى أحد المستشفيات. كان رجل المباحث منهمكا في إرسال البرقيات. كنا نقف على الرصيف، فانطلق القطار ورأيت السجين واقفا، يسند ظهره على جدار المحطة ويبكي.

استأت أيما استياء من كل ما جرى، ودخلنا عربة المدخنين. جاء عامل المكابح بسطل وكومة من نفاية القطن وراح يفرك الدم ويغسل الأرض.

«كيف حاله، يا دكتور؟». سأل (عامل المكابح) أبي.

«لست طبيبا»، قال له أبي. «لكنني أعتقد أنه سيكون بخير».

«تصور: شرطيان كل منهما بحجم الثور ولم يقدرا على حشرة ضئيلة»، قال عامل المكابح.

«هل رأيته يهرب من النافذة؟».

«طبعا»، قال عامل المكابح. «أو لنقل إنني رأيته عندما حط على السكة».

«هل تعرفت عليه؟».

«لا. ليس عندما رأيته في البداية. في رأيك، يا دكتور، كيف تمكن من طعنه؟».

«لا بد أنه غافله من الخلف»، قال أبي.

«ترى، من أين حصل على السكين؟».

«لا أدري»، قال أبي.

«أما ذلك المغفل المسكين الآخر، فلم يحاول حتى أن يتفلت»، قال عامل المكابح.

«لا».

«مع أن رجل المباحث أعطاه مستحقه. هل رأيت ذلك يا دكتور؟».

«نعم».

«يا له من مغفل مسكين»، قال عامل المكابح. صار المكان الذي غسله نظيفا ورطبا. عدنا إلى مقاعدنا في العربة الأخرى. جلس أبي صامتا، فرحت أتساءل فيم يفكر.

وبعد لحظة سألني، «حسن، يا جمي، ماذا تستنتج الآن من كل ما جرى؟».

«لا أدري».

«ولا أنا»، قال أبي. «هل تشعر بالاستياء؟».

«نعم».

«وكذلك أنا. هل كنت خائفا؟».

«عندما رأيت الدم»، قلت له. «وعندما ضرب السجين».

«هذا شعور سليم».

«هل خفت أنت؟».

«لا»، قال أبي. «كيف كان الدم؟».

فكرت دقيقة.

«كان كثيفا وسلسا».

«الدم أشد كثافة من الماء»[٨٩] قال أبي. «هذا أول مثل تصطدم به عندما تعيش عيشة حافلة بالنشاط».

«ليس هذا ما يعنيه المثل»، قلت له. «إنه عن الأسرة».

«لا»، قـــال أبـــي. «إنه لا يعني أكثر مما قلته لـــك، لكنه دائما يفاجئك. لا زلت أذكر أول مرة اكتشفت فيها ذلك».

«متى كان ذلك؟».

«عندما امتلأ حذائي به. كان دافئا جدا وكثيفا. كان مثل الماء تماما عندما يملأ حذاءك المطاطي وأنت تصطاد البط، لكنه كان دافئا وأشد كثافة وسلاسة».

«متى كان ذلك؟».

«أوه، لقد كان ذلك منذ وقت طويل»، قال أبي.

(٨٩) المقصـــود بهذا المثل هو أن رابطة الدم أقوى مـــن كل الروابط الأخرى، ويقابله في العربية قولنا «الدم لا يصير ماء» [المترجم].

خادم المترفين[٩٠]
[١٩٨٧]

عندما ذهبنا للنوم اقترح علي أبي أن أنام في السرير الأدنى لأنني سأريد أن أتطلع من النافذة في الصباح الباكر. قال إنه لا يمانع أن ينام في السرير الأعلى وإنه سيأوي إلى فراشه بعد فترة. خلعت ملابسي ووضعتها في الأرجوحة الشبكية ولبست ثياب النوم وأويت إلى فراشي. أطفأت المصباح ورفعت ستارة النافذة، لكن الطقس كان باردا لو أردت أن أعتدل في فراشي لأنظر، وإن استلقيت فلا أرى شيئا. أخرج أبي حقيبة ملابس من تحت سريري، ثم فتحها على السرير، وأخرج ثياب نومه، وألقى بها على السرير الأعلى، ثم أخرج كتابا بالإضافة إلى الزجاجة التي ملأ منها قارورته.

«أشعل المصباح»، قلت له.

«لا، لا أحتاجه»، قال لي. «هل نعست، يا جمي؟».

«أظن ذلك».

«اهنأ بنومك»، قال لي، ثم أغلق الحقيبة وأعادها إلى مكانها تحت السرير.

«هل وضعت حذاءك في الخارج؟».

«لا»، قلت له. كان حذائي في الأرجوحة، فنهضت لأخرجه، لكن أبي وجده فوضعه في الممر. ثم أسدل الستارة.

«ألن تأوي إلى فراشك، يا سيدي؟». سأله الخادم.

(٩٠) تمثل هذه القصة، كسابقتها، مشهدا من ذات الرواية التي لم يكملها همنغواي ولم يضع لها عنوانا [المترجم].

«لا»، قال له أبي. «سأقرأ قليلا في الحمام».

«أجل، يا سـيدي»، قال الخادم. اسـتمتعت بالاسـتلقاء بين الأغطية البيضاء وأنا ألتحف بالبطانية والظلام، وأتدثر بالريف المظلم في الخارج. كانت هناك سـتارة منخلية تمتد على عرض النصف الأسـفل من النافذة المفتوحة وكان الهـواء الداخل من خلالها باردا. زرت أزرار الستارة الخضراء بإحكام، وكانت العربة تتمايل، لكنها كانت ثابتة وتسير بسرعة، وكنت بين الحين والآخر أسمع الصفارة. نمت ولما صحوت نظرت إلى الخارج، فرأيت أننا نسير ببطء وكنا نعبر نهرا كبيرا[٩١]. كانت هناك أنوار تسطع على الماء وعلى الإطار الحديدي لأحد الجسـور، وكان أبي يأوي إلى فراشه في السرير الأعلى.

«هل أنت مستيقظ، يا جمي؟».

«نعم. أين نحن؟».

«إننـا الآن نعبر الحدود إلـى كندا، لكننا سـنخرج منها في الصباح»، قال أبي[٩٢].

تطلعت من النافذة لأرى كندا، لكن لم أر سوى سكك الحديد وعربات الشحن. توقفنا وجاء رجلان يحملان مصابيح، ثم توقفا وضربا العجلات بمطارق. لم أستطع أن أرى سوى هذين الرجلين الجاثيين بجانب العجلات وعربات الشحن في مواجهتنا، فتسللت عائدا إلى فراشي.

«في أي جزء من كندا نحن الآن؟».

---

(٩١) النهر الكبير هنا هو نهر دترويت [المترجم].

(٩٢) هذا يعني أن القطار، بعد عبوره نهر دترويت، سـيظل سائرا عبر الأراضي الكندية إلى أن يبلغ شلالات نياغرا، حيث يعاود مسيره عبر الأراضي الأمريكية [المترجم].

«وندزر»، قال أبي[٩٣]. «تصبح على خير، يا جم».

عندما استيقظت في الصباح، كنا نسير عبر ريف جميل يشبه مشـيغن لولا أن تلاله أعلى وأشـجاره تصفـر أوراقها. ارتديت كل ملابسـي ما عدا الحـذاء الذي تناولته من تحت السـتارة. وجدته ملمعا، فلبسته، وحللت أزرار الستارة وخرجت إلى الممر. كانـت جميع السـتائر من أول الممـر إلى آخره مغلقـة الأزرار، وكان الجميـع نياما فيما يبدو. توجهت إلى الحمام، ونظرت في داخله. كان الخادم الزنجي نائما في إحدى زوايا المقعد الجلدي. كانت قبعته مسـدلة على عينيه، وكانت قدماه ترتفعان فوق أحد الكراسـي. كان فمه فاغرا، ورأسه يميل إلى الوراء، وكانت يداه مطويتين على حضنه. تابعت مسيري حتى نهاية العربة، ونظرت إلى الخارج لكن الهـواء كان قويا ومليئا بالرماد، ولم أجد مكانا أجلس فيه. عدت إلى الحمام ودخلته بحذر شـديد كي لا أوقظ الخادم، فجلست بجانب النافذة. كانت رائحة الحمام في الصباح الباكر مثل رائحة المباصق النحاسية[٩٤]. كنت جائعا وتطلعت من النافذة إلى الريف الخريفي وراقبت الخادم وهو يغط في نومه. بدا الريف صالحا للصيد. كانت هناك أجمات كثيرة على التلال، وغابات متناثرة، ومزارع رائعة المنظر، وطرقات جيدة. لكنه ريف يختلف في مظهره عن ريف مشـيغن. فهنا يبدو الريف مترابطا بعضـه مع بعض، أما في مشـيغن فلا رابط بـين أجزائه. ليس فيه مسـتنقعات ولم تأكل الحرائق أيا منـه. بدا الريف كله كما

---

(٩٣) تقع مدينة وندزر في مقاطعة أونتاريو مقابل مدينة دترويت الأمريكية [المترجم].

(٩٤) المباصق (ج. مبصقة): أوعية مصنوعة من النحاس الأصفر كانت شائعة في الولايات المتحدة منذ بداية القرن العشرين إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، يستخدمها ماضغو التبغ [المترجم].

لو كان ملكا لشـــخص واحد، لكنه كان رائع المنظر، وقد اصفرت أوراق الزان والقيقب، وكان هناك الكثير من شجيرات السنديان ذات الأوراق الرائعـــة الألوان أيضا، وحيث وجدت الأجمات وجد بكثرة الســـماق ذو اللون الأحمر القاني. بدا هذا الريف صالحا للأرانب، فحاولت أن أرى بعض الطرائد لكن القطار كان يســـير بســـرعة كبيرة تجعل التركيز عســـيرا، والطيـــور الوحيدة التي تمكنت مـــن رؤيتها كانت تحلق في الجـــو. رأيت صقرا يصطاد هـــو ورفيقته فوق أحد الحقول. ورأيت طيـــور النقار تحلق فوق حافـــة الغابة، وأيقنت أنها تتجه جنوبـــا. ثم رأيت طيور الزرياب مرتين، لكن القطار لا يصلح لمشـــاهدة الطيور. كان ينســـاب في الريف من جنب إلى جنب فلا يمكنك أن تنظر إلى أي شيء نظرة مســـتقيمة، مما يضطرك دائما لتركه، والنظر إلى الأمام قليلا. مررنا بمزرعة ذات مرج طويل، فرأيت ســـربا من طيور الزقزاق ترعى. طارت ثلاثة منها لدى مرور القطار، ثم حلقت فوق الغابة لكن البقية ظلت ترعى. انعطفنـــا انعطافا كبيرا فصار بإمكاني أن أرى بقيـــة العربات تنعطف أمامنا، وكانت عجلات القيادة في القاطرة تسير بسرعة كبيرة، ورأيت واديا نهريا تحتنا، ولما التفت وجدت الخادم مستيقظا وينظر إلي.

«ماذا ترى؟». سألني.

«ليس كثيرا».

«إنك تنظر إليه بلا شك».

لم أقل شـــيئا لكنني فرحت باســـتيقاظه. ظلـــت قدماه على الكرسي لكنه تناول قبعته ووضعها على رأسه بشكل مستقيم.

«هل الذي ظل يقرأ هنا والدك؟».

«نعم».

«إنه شارب مشروب لا يشق له غبار».

«إنه شارب عظيم».

«إنه بلا شك شارب عظيم. أجل، شارب عظيم».

لم أقل شيئا.

«تناولت معه كأسين»، قال الخادم. «وقد أثر في، المشروب كثيرا، أما هو فقد سهر نصف الليل ولم يبد عليه شيء».

«لا يبدو عليه شيء أبدا»، قلت له.

«لا يا سيدي. لكن إن ظل على هذه الحال، فسيتلف أحشاءه».

لم أقل شيئا.

«أنت جائع، أيها الفتى؟».

«نعم، أنا جائع جدا»، قلت له.

«لدينا عربة مطعم الآن. هيا بنا إلى الخلف وسنأكل قليلا».

سرنا عبر عربتين أخريين، وكانت جميع الستائر مغلقة من بداية الممر إلى آخره، ثم توجهنا إلى المطبخ في عربة المطعم، نسير بين الطاولات.

«رحب بصديق بعثه إلي حظي السعيد»، قال الخادم لكبير الطباخين.

«هذا أنت، أيها العم جورج»، قال كبير الطباخين. كان هناك أربعة زنوج آخرين يلعبون الورق على إحدى الطاولات.

«ما قولك في أن تأتي لنا بطعام لي وللشاب المحترم؟».

«لا يا سيدي»، قال كبير الطباخين. «ليس قبل أن أعده».

«هل لك أن تشرب؟». سأل جورج.

«لا يا سيدي»، قال كبير الطباخين.

«تفضل، ها هــو»، قال جورج. ثم أخــرج زجاجة صغيرة من جيبه. «مع تحيات والد الشاب المحترم».

«هذا لطف منه»، قال كبير الطباخين. ثم لعق شفتيه.

«إن والد الشاب المحترم بطل العالم».

«في ماذا؟».

«في الشرب».

«هــذا لطف كبير منه»، قال كبير الطباخين. «كيف أكلت ليلة أمس؟».

«مع تلك الشلة من الصبيان الصفر»[٩٥].

«هل ما زالوا جميعا سوية؟».

«بين شــيكاغو ودترويت. نحن نسميهم الآن سكان الإسكيمو البيض».

«حسن، لكل مقام مقال»، قال كبير الطباخين، ثم كسر بيضتين على حرف مقلاة. «شرائح لحم وبيض لابن البطل؟».

«نعم، شكرا»، قلت له.

«ما رأيك بقليل من ذلك اللطف؟»[٩٦].

«أجل يا سيدي».

---

(٩٥) «الصبي الأصفر» تعبير أمريكي عامي ويعني المولد أو الخلاسي، أي الذي يكون أحد أبويه أبيض والآخر أسود [المترجم].

(٩٦) هنا يطلب كبير الطباخين من جورج أن يعطيه شيئا من المشروب الذي أعطاه له والد الفتى لطفا وكرما [المترجم].

«جعل الله النصر حليف والدك دائما»، قال لي كبير الطباخين. ثم لعق شفتيه. «وهل يشرب الشاب المحترم أيضا؟».

«لا يا سيدي»، قال جورج. «إني وصي عليه».

وضع كبير الطباخين شرائح اللحم والبيض على طبقين.

«تفضلا بالجلوس، أيها السيدان».

جلسنا أنا وجورج، فأحضر لنا فنجانين من القهوة وجلس قبالتنا.

«هل لديك استعداد لأن تفارق مثالا آخر من ذلك اللطف؟».

«من أجل ما هو أفضل»، قال جورج. «علينا أن نعود إلى العربة. كيف يسير شغل السكك؟».

«السكك متينة»، قال كبير الطباخين. «كيف وول ستريت؟».

«الدببة تعود إلى النطاح ثانية»، قال جورج. «لم تعد أنثى الدب تأمن على نفسها هذه الأيام»(٩٧).

«راهن على الدياسم»(٩٨)، قال كبير الطباخين. «إن العمالقة أكبر من الاتحاد»(٩٩).

ضحك جورج، وضحك كبير الطباخين.

«أنت شخص لطيف جدا»، قال جورج. «ما أغرب أن ألتقيك هنا».

«هيا، اخرج من هنا»، قال كبير الطباخين. «لاكاوانيوس تناديك».

---

(٩٧) من الواضح أن جورج وكبير الطباخين يستخدمان لغة مشفرة هنا، وهذه عادة يلجأ إليها الزنوج الأمريكيون في حضور البيض [المترجم].

(٩٨) الدياسم (ج. ديسم، أي جرو الدب) فريق شيكاغو لكرة البيسبول [المترجم].

(٩٩) العمالقة فريق آخر للبيسبول. والاتحاد المشار إليه هنا هو الاتحاد الأمريكي لفرق البيسبول [المترجم].

«إني مغرم بتلك الفتاة»، قال جورج. «ومن يلمس شعرة ـــــ»

«هيا، اخرج من هنا»، قال كبير الطباخين. «وإلا فسينال منك أولئك الفتية الصفر».

«هذا من دواعي سروري، يا سيدي»، قال جورج. «من دواعي سروري حقا».

«هيا، اخرج من هنا».

«إليك بفعل كياسة ولطف آخر».

مسح كبير الطباخين شفتيه وقال، «وفق الله الضيف المفارق».

«سأعود للإفطار»، قال جورج.

«خذ ما جنيته بلا تعب»، قال كبير الطباخين، فوضع جورج الزجاجة في جيبه.

«وداعا، أيتها النفس الزكية»، قال له.

«اذهب من هنا»، قال أحد الزنوج الذين كانوا يلعبون الورق.

«وداعا، أيها السادة»، قال جورج.

«طابت ليلتك، يا سيدي»، قال كبير الطباخين، فخرجنا.

عدنا إلى عربتنا، فنظر جورج إلى لوحة الأرقام. كان هناك رقم اثنا عشر وخمسة. سحب جورج شيئا صغيرا للأسفل، فاختفى الرقمان.

«يجدر بك أن تجلس هنا وترتاح»، قال لي.

جلست في الحمام وانتظرت، بينما مضى هو إلى آخر الممر. عاد بعد مدة قصيرة.

«الكل سعداء الآن»، قال لي. «ما رأيك في العمل في القطارات، يا جمي؟».

«كيف عرفت اسمي؟».

«هذا ما يناديك به أبوك، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد».

«إذن؟».

«لا بأس به»، قلت له. هل «تتكلم أنت وكبير الطباخين على هذه الشاكلة دائما؟».

«لا، يا جيمس»، قال لي. «نحن لا نتحدث هكذا إلا عندما تدب فينا الحماسة».

«بل فقط عندما تشربان»، قلت له.

«ليس هذا وحده. بل عندما تدب فينا الحماسة لأي سبب كان. أنا وكبير الطباخين روحان مؤتلفتان».

«ما هي الأرواح المؤتلفة؟».

«أناس يشتركون في رؤيتهم للحياة».

لم أقل شيئا، فرن الجرس. خرج جورج وسحب الشيء الصغير في الصندوق، ثم عاد إلى الغرفة.

«هل رأيت بحياتك رجلا يجرح بموسى حلاقة؟».

«لا».

«هل تحب أن أشرح لك ذلك؟».

«نعم».

رن الجرس مرة أخرى. «علي أن أذهب»، قال جورج وخرج.

عاد وجلس بجانبي. «إن استخدام الموسى فن لا يعرفه أصحاب مهنة الحلاقة وحدهم»، قال وهو ينظر إلي. «لا تفتح عينيك هكذا»، قال لي. «أنا أشرح لك فقط».

«لست خائفا».

«آمل ذلك»، قال لي. «فأنت هنا مع أعظم صديق لك».

«بالتأكيد»، قلت له. حسبت أنه ثمل جدا.

«هــل لــدى والدك المزيــد من هذا؟». ســألني وهــو يخرج الزجاجة.

«لا أدري».

«إن أبــاك مثال على نبل الرجل المســيحي المحترم». ثم أخذ جرعة.

لم أتفوه بكلمة.

«نعــود إلى موضوع الموســى»، قال جورج. مــد يده في جيب معطفه الداخلي وأخرج موســى حلاقــة. ثم وضعها وهي مغلقة في راحة يده اليسرى.

كانت راحة يده وردية اللون.

«تمعن في هذه الموسى»، قال جورج. «إنها لا تشقى، ولا تدور كالمغزل»(١٠٠).

بســطها على راحة يده. كان لها مقبض عظمي أسود. فتحها وأمسكها بيده اليمنى وشفرتها إلى الأمام بشكل مستقيم.

«هل عندك شعرة من رأسك؟».

«ماذا تقصد؟».

«اسحب واحدة. فشعري أنا متين جدا».

ســحبت له واحدة، فتناولها جورج. أمســكها بيده اليســرى وتمعن فيها، ثم بحركة خاطفة من شــفرته قطعها إلى قطعتين.

---

(١٠٠) هذا اقتباس من تعريف الكاتب الأمريكي الساخر أمبروز بيرس للكلب في كتابه «قاموس الشيطان» (١٩٠٦) [المترجم].

ثم قال، «مضـاء الحد». وبينما هو ينظر إلـى الطرف الصغير الذي تبقى من الشـعرة، أدار الشـفرة في يـده بحركة خاطفة في الاتجاه المعاكس. قطعت الشـفرة الشـعرة قريبا من إصبعه وإبهامه. «بسـاطة الفعل»، قال جورج. «تانك خصلتان جديرتان بالإعجاب».

رن الجرس، فطوى الموسى وناولني إياها.

«احرس الموسـى»، قال لي ثم خـرج. نظرت إليها، ثم فتحتها وأغلقتها. كانت موسى حلاقة عادية. عاد جورج وجلس بجانبي. تناول جرعـة، ففرغت الزجاجة من المشـروب. نظـر إليها ثم أعادها إلى جيبه.

«الموسى من فضلك»، قال لي. ناولته إياها، فوضعها في راحة يده اليسرى.

«لقد شـاهدت مضاء الحد وبساطة الفعل»، قال لي. «أما ما هو أعظم من هاتين فهو تدابير الوقاية أثناء الاستخدام».

أخذ الموسـى في يده اليمنى، فنقرها نقرة خفيفة، فانفتحت الشـفرة على آخرها، وحدها يتعامد على براجم أصابعه. أراني يده، كان مقبض الموسى في قبضته، والشفرة تتعامد على براجم أصابعـه، حيث كان يثبتهـا في مكانها بسـبابته وإبهامه. كانت الشفرة لا تتزحزح من قبضته، وحدها نحو الخارج.

«هـل رأيت؟». قال جـورج. «والآن إلى تلك المهـارة العظيمة اللازمة في الاستخدام».

نهض ومس الشفرة بيده اليمنى، وقبضته مغلقة، مسا خفيفا وهـي تتعامد مفتوحة على براجم أصابعه. التمعت الموسـى في

الشـــمس الآتية عبر النافذة. حنى جورج رأسه بسرعة، ثم طعن الهواء بالشـــفرة ثلاث مرات. خطا خطوة نحو الوراء، ثم شطب الهـــواء مرتين. وبينما هو يخفض رأســـه ويطـــوق رقبته بذراعه اليســـرى، راح يكر ويفر بالشفرة التي في قبضته. شطب الهواء مرة، ومرتين، فثلاثا، فأربعا، فخمســـا، فســـتا. ثم اعتدل. كان وجهه يتصبب عرقا، فطوى الموسى ووضعها في جيبه.

«تلك مهارة الاستخدام»، قال لي. «ومن الأفضل أن تكون في اليد اليسرى وسادة».

جلس ومسح وجهه. خلع قبعته ثم مسح الشريط الجلدي من الداخل. ثم ذهب ليتناول جرعة من الماء.

«إن الموســـى وهم»، قال لي. «إنهـــا لا تصلح للدفاع. إذ يمكن لأي شـــخص أن يجرحك بالموسى. وإن كنت قريبا منه بما يكفي لجرحه، فلا بد أنه ســـيجرحك. أما إذا كانت في يدك اليسرى وسادة، فلا خوف عليك. لكن من أين لك بالوسادة عندما تحتاج إلى الموســـى؟ فمن ذا الذي ستجرحه وهو في سريره؟ إن الموسى وهم، يا جمي. إنها سلاح الزنوج. سلاحهم المعهود. لكنك تعرف كيف يســـتخدمونها. والتطوير الوحيد الـــذي أدخله الزنوج على اســـتخدام هذا الســـلاح يكمن في ثنيهم للشفرة إلى الوراء فوق اليـــد. والزنجـــي الوحيد الذي عرف كيف يدافع عن نفســـه هو جاك جونســـن، فوضعوه فـــي لفنويرث[101]. ومـــا الذي يمكنني

(١٠١) جاك جونسن (١٨٧٨ - ١٩٤٦): أول أمريكي أسود يفوز ببطولة العالم للملاكمة (١٩٠٨)، إلا أنه اضطر إلى الهرب من الولايات المتحدة عام ١٩١٣ بسبب تهم لفقت ضده (نقل المومسات البيضـــاوات مـــن ولاية إلى أخـــرى)، وعندما عاد إلى بلاده عام ١٩٢٠ اعتقل ووضع في ســـجن لفنويرث في ولاية كانزس [المترجم].

أن أفعله من أجل جاك جونسن بموسى حلاقة؟ إنها لا تجدي نفعا، يا جمي. فكل ما تملكه في هذه الدنيا هو وجهة نظر. والناس أمثالي وأمثال كبير الطباخين لديهم وجهة نظر. ويحسن بالمرء أن تكون لديه وجهة نظر حتى لو كانت خاطئة. الزنجي تنتابه الأوهام، كما انتابت العجوز جاك وماركوس غارفي، ولهذا وضعوهما في السجن(١٠٢). انظر إلى أين ستودي بي أوهامي عن موسى الحلاقة. لا شيء له قيمة، يا جمي. إن المشروب يجعلك تشعر بما سأشعر به بعد ساعة. أنا وأنت لا تربطنا حتى رابطة الصداقة».

«بل نحن صديقان».

«عزيزي الطيب جمي»، قال لي. «انظر إلى تلك الصفقة التي أعطوها لهذا المسكين تايغر فلاورز. لو كان من البيض لكسب مليون دولار»(١٠٣).

«من يكون هذا؟».

«كان ملاكما. ملاكما بارعا».

«ماذا فعلوا به؟».

«لقد غرروا به بطريقة أو بأخرى، وباستمرار».

«هذا أمر مخز»، قلت له.

«لا خير في الأمر كله، يا جمي. النساء ينتهبنك حتى لا يتركن

---

(١٠٢) ماركوس غارفي (١٨٨٧ - ١٩٤٠): زعيم أمريكي أسود أصله من جامايكا، ومؤسس «حركة العودة إلى أفريقيا» التي كانت تدعو إلى رفض الاندماج في مجتمع البيض وتشجع السود على العودة إلى أوطانهم في إفريقيا. سجن العام ١٩٢٥ بتهمة النصب والاحتيال، ثم رحل إلى جامايكا عام ١٩٢٧ [المترجم].

(١٠٣) تايغر فلاورز (١٨٩٥ - ١٩٢٧)، واسمه الحقيقي ثيودور فلاورز، هو أول أمريكي أسود بعد جاك جونسن يفوز ببطولة العالم في الملاكمة، حيث فاز بالبطولة ثلاث مرات في ذات العام (١٩٢٦) [المترجم].

فيـك رمقا، وإن تزوجت فزوجتك لا مسـتقر لها في البيت. وإن كنت تعمل في قطار، فأنـت بعيد عن البيت في الليالي. والفتاة التي تريدها هي الفتاة التي ستخونك لأنها لا تستطيع أن تتمالك نفسها. أنت تريدها لأنها لا تستطيع أن تتمالك نفسها وتفقدها لأنها لا تسـتطيع أن تتمالك نفسـها، وقدرة الرجل على الإمتاع والاسـتمتاع ليست مطلقة، وأي خير في المشروب إن كان يحيلك من سيئ إلى أسوأ».

«ألا تشعر بأنك على ما يرام؟».

«لا. بل أشـعر بالسوء. فلو لم أشعر بالسوء، لما تحدثت بهذه الطريقة».

«أحيانا يشعر أبي بالسوء في الصباح».

«حقا؟».

«بالتأكيد».

«وماذا يفعل؟».

«يؤدي التمارين الرياضية».

«حسن، لدي أربعة وعشـرون سريرا تحتاج إلى ترتيب. ربما الحل في ذلك».

استطال اليوم كثيرا في القطار بفعل المطر. جعل المطر نوافذ القطـار مبللة بحيث لم يعد بإمكانك أن ترى ما وراءها بشـكل واضح كما أنه جعل كل الأشياء تبدو متشابهة. مررنا بعدة بلدات ومـدن، لكن المطر كان يهطـل فيها جميعا وعندمـا عبرنا نهر هدسـن كان المطر ينزل بغزارة. وقفـت في مدخل العربة، ففتح

جـورج لي الباب كي أتمكن من النظر خارجا لكني لم أر ســوى الجســر الحديدي المبلل والمطر النازل فــي النهر والقطار الذي يغتسل بماء المطر. كانت تهب علينا من الخارج رائحة زكية. كان مطرا خريفيا وكان الهواء الداخل من الباب المفتوح عليلا يشــبه رائحة الخشــب والحديد المبللــين، وكان الجو في أعلى البحيرة يشــي بحلــول الخريف. كان فــي العربة أناس كثيــرون غيرنا، لكنــي لم أجد أيا منهم مثيرا للاهتمام. طلبت مني امرأة مليحة المنظر أن أجلس إلى جانبها ففعلت، فإذا عندها صبي في سني تماما وكان ذاهبا إلى مكان في نيويورك كي يصير مشــرفا على المــدارس هناك. تمنيت لو أنني عــدت مع جورج إلى المطبخ في عربة المطعم واستمعت إليه وهو يتحدث مع كبير الطباخين. بيد أن جورج كان في ســاعات النهــار العادية يتحدث كالآخرين، بل أقل منهم، وبأدب جم، لكنني لاحظت أنه يشــرب الكثير من الماء المثلج.

توقف المطر في الخارج لكن الغيوم الكثيفة ظلت تجلل الجبال. كنا نســير بمحاذاة النهر، وكان الريف جميلا جدا لم أر مثله من قبــل إلا في صور في كتاب في منزل الســيدة كنــوود الذي كنا نذهب إليــه عند أعلى البحيرة أيام الأحد لتناول العشــاء. كان كتابا كبيــرا، وكنت دائما أجده على طاولــة الردهة وكنت أقلبه بينما أنتظر العشاء. كانت النقوش تشبه هذا الريف الآن بعد أن هطل عليه المطر حيــث النهر والجبال تصعد منه ومن الصخور الرمادية. في بعض الأحيان كان هناك قطار على الضفة الأخرى للنهر. كانت أوراق الأشــجار قد اصفرت بفعل الخريف، وأحيانا

كان بإمكانك أن تـرى النهر من بين الأغصان وإن لم يبد قديما كما هو في الصــور، بل بدا مكانا يصلح للعيش حيث يمكنك أن تصطاد السمك وتتناول غداءك وتشاهد القطار يمر من أمامك. لكنــه كان في أغلب الأحيان داكنـا، غير حقيقي، حزينا، غريبا، تقليديـا كما هو في الصـور. قد يكون مرد ذلك إلى المطر الذي توقف للتو والشــمس التي لم تطلع بعد. عندما تهب الريح على الأشــجار فينزع أوراقها، تدخل هــذه البهجة إلى قلبك وتغريك بالمشــي فيها، بيد أن الأشجار كانت هي ذاتها وإن كانت جرداء. لكن عندما تسقط الأوراق بفعل المطر، فهي ميتة ومبللة وتستوي على الأرض والأشجار تتغير وتتبلل فتصبح متوحشة. كان المسير بمحاذاة نهر هدســن جميلا جدا، لكننــي كنت أجهل هذا النوع مــن التجارب، مما جعلني أتمنى لو أننا بقينا عند البحيرة. لقد ولدت في هذه التجربة ذات الشعور الذي ولدته في تلك النقوش في الكتاب، فتداخل هذا الشعور مع الغرفة التي كنت دوما أقلب الكتاب فيها، ولا سيما أنني في بيت شخص آخر أنتظر العشاء، ومع الأشجار المبللة بعد المطر، ومع كوننا في الشمال حيث انتهى الخريف وحلت الرطوبة والبرد واختفت الطيور ولم تعد الغابات تغري بالمسير فيها، وليس هناك إلا الأمطار فتتمنى أن تظل في الداخل قــرب مدفأة. لا أظن أنني فكرت في كل تلك الأشــياء لأننــي لم أفكر كثيــرا قط، ولم تكتس أفــكاري بلبوس الكلمات قــط، لكن الريف الذي بمحاذاة نهر هدســن هــو الذي ولد فيَّ الإحســاس بكل هذه الأشياء. إن المطر يجعل كل الأماكن غريبة، حتى الأماكن التي تسكنها.

حمار أسود على مفترق الطرق[١٠٤]
[١٩٨٧]

بلغنا مفترق الطرق قبل الظهر وأطلقنا النار على مدني فرنسي بطريق الخطأ. كان قد جاء راكضا عبر الحقل على يميننا من خلف البيت الريفي عندما رأى أول سيارة جيب تلوح في الأفق. أمره كلود بأن يتوقف، ولما ظل يواصل ركضه عبر الحقل أطلق رد النار عليه. كان ذلك أول رجل يقتله في ذلك اليوم، فسر سرورا عظيما.

ظننا جميعا أنه ألماني يرتدي زيا مدنيا مسروقا، فإذا به فرنسي. على أي حال، كانت لديه أوراق فرنسية تقول إنه من سواسون[١٠٥].

«لا بد أنه كان عميلا»، قال كلود.

«لقد كان يركض، أليس كذلك؟». سأل رد. «لقد أمره كلود أن يتوقف بلسان فرنسي فصيح».

«ضعه في دفتر الصيد بصفة عميل»، قلت له. «أعد أوراقه إلى جيبه».

«ما الذي كان يفعله هنا ما دام من سواسون؟». سأل رد. «إن سواسون بعيدة بعد الجحيم وراءنا».

«لقد هرب من أمام قواتنا لأنه عميل»، قال كلود من باب الإيضاح.

---

(١٠٤) كتبت هذه القصة ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية و١٩٦١ [الناشر].
(١٠٥) سواسون: مدينة تقع إلى الشمال الشرقي من باريس [المترجم].

«إن له وجها خسيسا»، قال رد وهو يرنو إليه.

«لقد أفسدت الأمر قليلا»، قلت له. «اسمعني، يا كلود. أعد أوراقه إلى جيبه واترك نقوده».

«سيأخذها غيرنا».

«لن تأخذها أنت»، قلت له. «ستجد مالا كثيرا عند الكراوتس»(١٠٦).

بعد ذلك أخبرتهم أين يضعون المركبتين وأين يتمركزون، وأرسلت أونيزيم إلى الجهة الأخرى من الحقل ليعبر الطريقين فيدخل المقهى المغلق المصاريع ليتبين ماذا جرى على طريق النجاة.

وما مر على طريق النجاة على يمين الطريق ليس بالقليل. كنت أعلم أن المزيد من ذلك سيمر عليه، فقست المسافتين من الطريق إلى المصيدتين اللتين نصبناهما. كنا نستخدم أسلحة الكراوتس كي لا يتنبهوا إلى الجلبة إن سمعوها قادمة من مفترق الطرق. نصبنا المصيدتين بعيدا عن مفترق الطرق لكيلا نلوث الطريق ونحيلها إلى مسلخ. كنا نريدهم أن يصادفوا مفترق الطرق فجأة ليتوالى مجيئهم.

«إنه كمين رائع»، قال كلود، فسألني رد عن معنى ذلك(١٠٧). قلت له إنه مصيدة كالعادة. قال رد إنه يجب أن يتذكر هذه الكلمة. راح الآن يتحدث عن فكرته عن الفرنسية لنصف الوقت

---

(١٠٦) كراوت (جمعها كراوتس): كلمة ألمانية وتعني حرفيا الكرنب أو الملفوف، لكنها في الإنجليزية تعبير قدح وذم للرجل الألماني، وقد شاع هذا التعبير خلال الحرب العالمية الثانية، وأصل الشتيمة يعود إلى كون الكرنب أو الملفوف المخلل أكلة شعبية عند الألمان. بمعنى آخر، تعني هذه الشتيمة «أهل الملفوف» [المترجم].

(١٠٧) يبدو أن رد لا يفهم الفرنسية جيدا، لهذا يسأل الراوي أن يترجم له كلمة guet-apens (كمين) [المترجم].

تقريبا، ولو أعطي أمرا لربما أجاب فيما كان يظن أنه الفرنسية في النصف الثاني. كان الأمر مضحكا، فأعجبني.

كان يوما جميلا مـــن أيام أواخر الصيف الذي لم يتبق من أيامـــه الجميلـــة إلا القليل جدا. ربضنا حيـــث نصبنا كمائننا وكانـــت المركبتان توفران لنا الحماية مـــن خلف كومة الروث. كانت الكومة كبيرة وافرة وصلبة جدا، وكنا نربض في العشب خلف الخنـــدق، وكانت رائحة العشـــب كرائحة كل الأصياف، وكانت الشـــجرتان تظللان كلتا المصيدتـــين. قد أكون نصبت الكمينين على مسافة قريبة جدا، لكن هذا غير ممكن إن كانت لديك القدرة النارية والصيد فسيأتي سريعا. إن مسافة مائة ياردة مســـافة معقولة. أما خمسون ياردة فهي مسافة مثالية. لكننا كنا أقرب من ذلك. بالطبع، في هذه الأحوال يبدو الأمر دائما أقرب.

لا شـــك أن بعض الناس ســـيعترضون على هذا الكمين. لكنه كان علينا أن نحسب حساب الانسحاب والتراجع والمحافظة على نظافـــة الطريق إلى أبعد حد ممكـــن. لم يكن في اليد حيلة إزاء المركبتـــين، أما المركبات الأخـــرى القادمة فمن الطبيعي أن تظن أنهـــا دمرت من قبل الطيران. بيد أنـــه في هذا اليوم بالذات لم يكـــن هناك طيران. لكـــن القادمين لن يعرفوا هـــذا. وأي واحد يهرب بنفسه على طريق نجاة كهذا لا بد أنه يرى الأمور بمنظار آخر كذلك.

«ســـيدي النقيب»، قال لي رد. «إن وصلت طلائع الجنود، ألن يطلقوا النار علينا عندما يسمعون أسلحة الكراوتس هذه؟».

«لقد وضعنا من يراقب الطريق حيث ستمر طلائع الجنود من عند المركبتين، سيرفعون لهم راية التعارف، لا تقلق».

«لست قلقا»، قال رد. «لقد أطلقت النار على عميل لا غبار على عمالته. وهو الشيء الوحيد الذي قتلناه اليوم، وسنقتل الكثير من الكراوتس في هذه المصيدة. أليس كذلك يا أوني؟».

«اللعنة»، قال أونيزيم، وفي تلك اللحظة بالذات سمعنا سيارة قادمة بسرعة. رأيتها قادمة على الطريق الذي تحفه أشجار الزان. كانت سيارة فولكس فاغن رمادية تميل إلى الاخضرار، وكانت مموهة ومحملة أكثر من طاقتها، تغص بأناس يلبسون خوذات فولاذية ويبدون كما لو كانوا يتسابقون للحاق بقطار. كنا قد وضعنا حجرتي تسديد على جانب الطريق، وقد انتزعتهما من جدار قريب من المزرعة، ولما عبرت الفولكس فاغن عقدة مفترق الطرق واتجهت نحونا على طريق النجاة الجيد المستقيم الذي يمر من أمامنا ويؤدي إلى هضبة، قلت لرد، «اقتل السائق عند الحجرة الأولى». أما أونيزيم فأمرته، «ارشقهم على ارتفاع أجسادهم».

لم يعد سائق الفولكس فاغن يتحكم في مركبته بعد أن أطلق رد عليه النار. منعتني خوذته من رؤية تعبيرات وجهه. ارتخت يداه. لا هما تشنجتا ولا هما أمسكتا بالمقود. راح المدفع الرشاش يطلق نيرانه قبل أن ترتخي يدا السائق، فاندفعت السيارة نحو الخندق وقذفت ركابها بحركة بطيئة. انكفأ بعضهم على الطريق، فأمطرتهم المجموعة الثانية بوابل صغير من النيران ادخرته لهم خصيصا. تدحرج أحدهم وراح آخر يزحف، وبينما أنا أراقب أطلق كلود عليهما النار فأصاب كليهما.

«أعتقد أنني أصبت ذلك السائق في رأسه»، قال رد.

«لا تدع الخيال يجنح بك بعيدا».

«إنها تطلق إلى الأعلى قليلا من هذه المسافة»، قال رد. «لذلك سددت على أسفل جزء رأيته منه».

«برترانـــد، أزيحوهم أنت وجماعتك عن الطريق من فضلك»، ناديـــت على المجموعة الثانية. أحضر إلي كل ســـجلات الرواتب واحتفظ بالمال من أجل تقاســـمه. أزيحوهم بسرعة. هيا، اذهب يا رد وساعدهم. ألقوا بهم في الخندق».

أثنـــاء عملية الإخـــلاء كنت أراقب الطريق مـــن الغرب خلف المقهـــى. أنا لـــم أراقب عملية إخـــلاء قط ما لم أشـــارك فيها شـــخصيا. إذ إن مراقبتها أمر سيئ. طبعا، ليست مراقبتها أقل سوءا على غيري، لكنني أنا القائد.

«كم أصبت منهم يا أوني؟».

«أظن كل الثمانية. أقصد، ضربتهم».

«من هذه المسافة ______»

«لـــم يكن الأمر نزهة. لكن الفضل يعود في نهاية المطاف إلى رشاشهم».

«علينا أن نستعد سريعا مرة أخرى».

«لا أعتقد أن المركبة أصيبت بأضرار بالغة».

«سنتفحصها لاحقا».

«اســـتمع»، قال لي رد. اســـتمعت إليه ثم أطلقت صفارتي مرتين وانكفأ الجميع، بينما كان رد يسحب آخر كراوت من رجله وكان رأسه يرتجف، ثم نصبنا المصيدة من جديد. لكن أحدا لم يأت، فقلقت.

لقد نصبنا مصيدتنا من أجل عملية قتل بسيطة على جانبي طريق للنجاة. من الناحية الفنية، لم نكن على جانبي الطريق لأنه لم يكن لدينا ما يكفي من الرجال لنصب المصيدة على جانبي الطريق، كما أننا، من الناحية الفنية أيضا، لم نكن مستعدين للتعامل مع المركبات المدرعة. لكن كان عندنا في كل مصيدة مدفعان ألمانيان مضادان للدبابات. كانت هذه المدافع أكثر فعالية وبساطة من البازوكا(١٠٨) الأمريكية العادية، إذ إن لها رأسا حربيا أكبر، ويمكنك أن تتخلص من أنبوبة الإطلاق، بيد أن كثيرا مما وجدناه مؤخرا من مخلفات الانسحاب الألماني كان إما مفخخا وإما مخربا. لذلك لم نستخدم إلا أحدث ما هو موجود في السوق، وكنا دائما نطلب من أحد الأسرى الألمان أن يجرب بعض العينات المنتقاة عشوائيا.

كان الأسرى الألمان الذين أسرتهم القوات غير النظامية في أغلب الأحيان متعاونين كأنهم من كبار الندل أو الدبلوماسيين الصغار. وبصورة عامة كنا ننظر إلى الألمان كما لو كانوا كشافة منحرفين. هذا يعني أنهم كانوا جنودا رائعين. أما نحن فلم نكن كذلك. نحن متخصصون في مهنة قذرة. في الفرنسية كنا نقول، «آن متيير تري سال» [مهنة قذرة جدا].

كنا نعلم، من تحقيقاتنا المتكررة، أن كل الألمان الذين يسلكون طريق النجاة هذه كانوا يقصدون آخن(١٠٩)، وكنت أدرك أن ما نقتله منهم الآن لن نضطر لمقاتلتهم في آخن ولا خلف الجدار

(١٠٨) البازوكا: سلاح خفيف مضاد للمدرعات يحمل على الكتف [المترجم].
(١٠٩) آخن: مدينة ألمانية قريبة من المثلث الحدودي الألماني - البلجيكي - الهولندي [المترجم].

الغربي. هكذا هو الأمر ببساطة، وأنا أكون سعيدا عندما تكون الأمور بهذه البساطة.

جاء الألمان الذين رأيناهم الآن على دراجات هوائية. كانوا أربعة، وكانوا مستعجلين، لكنهم كانوا في غاية الإعياء. لم يكونوا جنودا على دراجات نظامية. بل مجرد ألمان يركبون دراجات مسروقة. رأى أولهم الدم الجديد على الطريق، فأدار رأسه ورأى المركبة، ثم وضع كل ثقل جسمه على دواس الدراجة الأيمن بفردة حذائه اليمنى، ففتحنا النار عليه وعلى الآخرين. إن رؤية إنسان تطلق عليه النار فترديه من على ظهر دراجته مدعاة للحزن بلا شك، بيد أنها لا تساوي رؤية حصان يتردى برصاصة وعلى ظهره رجل، أو رؤية بقرة حلوب تصاب في أحشائها وهي تعبر ميدانا تتراشقه النيران. لكن هناك شيئا من المتعة في إرداء رجل عن دراجته من مسافة قريبة. كان هؤلاء أربعة رجال وأربع دراجات. كان الأمر في غاية المتعة، إذ كان بإمكانك أن تسمع تلك الجلبة المأسوية الحادة التي أحدثتها الدراجات وهي تتقلب على الطريق، وذلك الصوت الثقيل للرجال وهم يسقطون، وفرقعة عتادهم.

«أزيحوهم عن الطريق بسرعة»، قلت لهم. «وخبئوا الدراجات الأربع».

وعندما التفت لأراقب الطريق، انفتح أحد أبواب المقهى، وخرج منه مدنيان يرتدي كل منهما قبعة وثياب عمل، وبيد كل منهما زجاجتان. جاءا يتمايلان من الجهة الأخرى لمفترق الطرق، ثم انعطفا ليأتيا في الحقل من خلف الكمين.

كان كلاهما يرتدي كنزة، ومعطفا عتيقا، وبنطلون كوردروي(١١٠)، وحذاء ريفيا.

«أمن لهما الحماية، يــا رد»، قلت له. كانا يتقدمان بخطوات ثابتة، ثم رفعا الزجاجات عاليا فوق رأسيهما، كل واحدة بيد.

«انبطحـــا، بحق المســيح»، ناديــت عليهمــا، فانبطحا وجاءا يزحفان بين الحشائش، وقد وضعا الزجاجات تحت آباطهم.

«نحن أصحابكم»، قال أحدهما بصوت عميق ينز منه المشروب.

«تقدمــا، يا أصحابنا اللاهين، وعرفا بنفســيكما»، نادى عليهما كلود.

«ها نحن نتقدم».

«ما الذي تفعلانه هنا في هذا المطر؟». سألهما أونيزيم.

«جلبنا لكما هدايا صغيرة».

«ولماذا لم تعطياني هذه الهدايا الصغيرة عندما كنت هناك؟». سألهما كلود.

«آه، لقد تغيرت الأمور، يا رفيق».

«نحو الأفضل؟».

«تقريبا»، قــال الرفيق الأول الثمل. أما الآخــر، الذي ناولنا إحـــدى زجــاجتيـه وهو منـبطح، فـقد ســأل بصوت مجــروح، «ألا ترحبون بالرفاق الجدد؟».

«مرحبا بكما»، قلت له. «هل تريد أن تقاتل؟».

«إن دعت الحاجة إلى ذلك. لكننا جئنا لنسأل إن كان بإمكاننا أن نأخذ الدراجات».

---

(١١٠) الكوردروي: قماش قطني متين مضلع مخملي الزغب [المترجم].

«بعد المعركة»، قلت له. «هل أديتما الخدمة العسكرية؟».

«طبعا».

«لا بأس. ليأخذ كل منكما بندقية ألمانية وعلبتي ذخيرة، واذهبا على مسافة مائتي ياردة إلى أعلى الطريق وإلى يمينكما. اقتلا أي ألماني يمر من أمامنا».

«ألا يمكننا أن نبقى معكما؟».

«نحن متخصصون»، قال لهما كلود. «نفذا ما يقوله لكما النقيب».

«هيا انهضا وانتقيا مكانا جيدا ولا تسددا نيرانكما إلى هذه الجهة».

«ضعا هذه الشرائط على ذراعيكما»، قال لهما كلود. كان جيبه مملوءا بهذه الشرائط. «أنتما الآن فران تيرور»[١١١] ولم يكمل البقية[١١٢].

«وبعد ذلك يمكننا أن نأخذ الدراجات؟».

«لكل منكما واحدة إن لم تقاتلا، واثنتان إن قاتلتما».

«وماذا بشأن النقود؟». سألني كلود. «إنهما يستخدمان بنادقنا».

«دعهما يحتفظا بالنقود».

«لكنهما لا يستحقانها».

---

(١١١) فران تيرور (Franc-tireurs): مصطلح فرنسي يعني حرفيا «قناصة أحرار» وهذا المصطلح يطلق على القوات غير النظامية التي تشارك في العمليات القتالية طوعا [المترجم].

(١١٢) الذي يقصده الراوي هنا هو أن كلود أخفى عن هذين الرجلين حقيقة ما سيترتب على هذه الصفة شبه العسكرية التي اكتسباها لفورهما، أي أنهما، بموجب الأعراف العسكرية السارية في تلك الفترة، لن يتمتعا بوضع «أسرى حرب» إن أسرا. وفي الحروب الألمانية - الفرنسية السابقة شواهد على الوحشية التي تعامل بها الألمان مع أمثال هؤلاء المتطوعين الأحرار [المترجم].

«جئني بأي نقود وخذ حصتك منها. هيا بسرعة. استعجل».

«هذان فاقدان للوعي متعفنان»، قال كلود.

«كان فاقدو الوعي موجودين أيام ناپليون أيضا».

«هذا محتمل».

«بل إنه أكيد»، قلت له. «لا تحمل الأمر أكثر مما يجب».

ظللنا ننبطح بين الحشائش التي تهب علينا منها رائحة الصيف الحقيقية، وراح الذباب، العادي والأزرق الكبير، يتقاطر على الموتى في الخندق، وكانت هناك فراشات تحوم على أطراف برك الدم المراق على الطريق الأسود سطحه. كانت هناك فراشات صفراء وفراشات بيضاء حول الدم والخطوط التي خلفتها الجثث وهي تسحب.

«لم أكن أعلم أن الفراشات تأكل الدم».

«ولا أنا».

«طبعا، عندما نذهب للصيد يكون الطقس باردا بحيث تختفي معه الفراشات».

«عندما نذهب للصيد في وايومنغ، تكون السناجب وكلاب المروج قد أوت إلى جحورها. هذا في الخامس عشر من سبتمبر».

«سأراقب لأرى إن كانت ستأكله حقا»، قال رد.

«هل تريد أن تأخذ نظارتي؟».

ظل يراقبها لبعض الوقت، ثم قال، «علي اللعنة إن عرفت أمر هذه الفراشات مع الدم. لكن الشيء الأكيد هو أنه يجتذبها».

ثم التفت إلى أونيزيم وقال، «اللعنة على الكراوتس المساكين،

يا أوني. لا مسدس ولا منظار. اللعنة على كل شيء».

«لدينا ما يكفي من النقود»، قال له أونيزيم. «من ناحية النقود لا خوف علينا».

«ولا مكان لعينا ننفقها فيه».

«إن غدا لناظره قريب».

«ولكنني أريد أن أنفقها الآن»، قال رد.

فتح كلود إحدى الزجاجتين بمفتاح الزجاجات الذي في سكين الكشافة الألمانية التي لديه. شمها ثم ناولني إياها.

«إنه مشروب».

كانت المجموعة الأخرى تتقاسم حصتها. كانت هذه المجموعة من أفضل أصدقائنا، لكنا ما إن افترقنا حتى بدوا كالآخرين، وبدت المركبات كالطابور الخلفي. إنكم تفترقون بسهولة، قلت في نفسي. وأنت تريد أن تراقب ذلك. هذا شيء آخر يمكنك أن تراقبه.

أخذت جرعة من الزجاجة. كان مشروبا قويا جافا، ليس فيه سوى حدة لاذعة. أرجعت الزجاجة إلى كلود، فأعطاها إلى رد الذي اغرورقت عيناه بالدموع عندما أخذ رشفة منها.

«مم يصنعون هذا المشروب في هذه النواحي، يا أوني؟».

«من البطاطا، على ما أظن، ومن قشارة حوافر الخيل التي يحصلون عليها من دكان الحداد».

ترجمت هذا الكلام لرد، فقال، «لا أحس إلا بطعم البطاطا».

«إنهم يعتقونه في براميل المسامير الصدئة ويضعون فيه بضعة مسامير عتيقة لإعطائه هذه النكهة اللاذعة».

«يجدر بي أن آخذ رشفة أخرى لأغسل بها فمي من طعم هذا المشروب»، قال رد. «سيدي النقيب، هل سنموت معا؟».

«صباح الخير، يا عالم»، قلت له. كانت هذه نكتة قديمة نتداولها عن جزائري سئل، قبيل إعدامه بالمقصلة على الرصيف خارج السانتيه، إن كان لديه ما يقوله، فرد بتلك العبارة.

«بصحة الفراشات»، قال أونيزيم وهو يشرب.

«بصحة براميل المسامير»، رد كلود وهو يرفع زجاجته.

«استمعوا»، قال رد، ثم ناولني الزجاجة. سمعنا جميعا صوت مركبة مجنزرة.

«هذه هي جائزتنا الكبرى اللعينة»، قال رد. «في سبيل الوطن، إما جائزة كبرى لعينة، وإما الموت»(١١٣). راح يغني بصوت خفيض، إذ لم يعد ينفعه عصير برميل المسامير. أخذت جرعة أخرى كبيرة من مشروب العصير، بينما كنا نكمن ونراقب كل شيء إلى أعلى الطريق على يسارنا. ثم لاحت للعيان. كانت عربة نصف مجنزرة كراوتية، لا مكان فيها إلا لمن يقف لشدة ما حشرت بالرجال.

عندما تنصب كمينا على طريق نجاة، يكون عندك أربعة أو - إن توافرت - خمسة ألغام من نوع تلر ذات الأذرع مزروعة على الجانب الأقصى للطريق. وهذه تشبه طاولات الشطرنج المستديرة وهي أكبر من أطباق الشوربة والضفدع المقرفص

---

(١١٣) هذه ترجمة ظنية، إذ إن رد يمزج في هذه الجملة بين الإنجليزية والألمانية والفرنسية المهشمة التي لا يتقنها. فهو يقول بالفرنسية le more، ويبدو أنه يقصد le mort (أي الموت)، حيث تتشابه الكلمتان إلى حد ما في اللفظ. ولا شك أن همنغواي يريد هنا أيضا أن يعلق على لفظ بعض الأمريكيين للغة الفرنسية بلكنة أمريكية، مما يوقع السامع (أو القارئ في هذه الحال) في شيء من الالتباس [المترجم].

في سـماكتها الميتة. تزرع هذه الألغام على شكل نصف دائرة، ثم تغطى بالعشـب المقصوص وتربط فيما بينها بوسـاطة سلك ثقيل مطلي بالقطران يمكن شـراؤه من أي شـماع للسفن. يشد أحد طرفي هذا السـلك إلى معلم كيلومتري، يسـمى الحد، أو بعشـر المعلم الكيلومتري، أو أي جسم صلب آخر، ثم يمرر على نحو مرتخ فـوق الطريق، ثم يلف عند الجزء الأول أو الثاني من الكمين.

كانت العربـة القادمة الفائضة الحمولة من النوع الذي ينظر سـائقها من فتحات صغيرة، وكان واضحا أن رشاشاتها موجهة الآن في وضعية مضادة للطيران. كنا جميعا نراقبها وهي تقترب منا، وتغص بما حملت. كانت محملة بقوات الإس إس المقاتلة(١١٤)، وصـار بإمكاننـا الآن أن نرى ياقاتهم، ثم بـرزت وجوههم أكثر فأكثر.

«شد السلك»، ناديت على المجموعة الثانية، وبينما كان السلك ينشـد خرجت الألغام من شبه الدائرة التي كانت فيها ثم عبرت الطريق، وبدت في ناظري ليس أكثر من ألغام تلر المغطاة بالعشب الأخضر.

سيصير بإمكان السائق الآن أن يراها فيتوقف، أو يتابع مسيره فيصطدم بها. عليك ألا تهاجم عربة مدرعة وهي تتحرك، لكنه إن توقف فيمكنني أن أضربه بالبازوكا الألمانية ذات الرأس الكبير.

جاءت نصف المجنزرة مسـرعة جدا، فصار بإمكاننا أن نرى الوجـوه جليا. كانـوا جميعا ينظرون إلى الطريـق أمامهم الذي

(١١٤) قوات الإس إس هم أفراد الفرقة الثانية عشـرة في الجيش الألماني، وكانت تعرف أيضا باسم «شبيبة هتلر» نظرا إلى صغر سن أفرادها، وأغلبهم من المتطوعين [المترجم].

ستسلكه طلائع الجنود. كان كلود وأوني شاحبي اللون، وكان رد يعاني من اختلاج في وجنته. أما أنا فشعرت بالخواء كعادتي. عندئذ لاحظ أحدهم في نصف المجنزرة الدم وعربة الفولكس فاغن والجثث في الخندق. راحوا يتصايحون بالألمانية، ولا بد أن السائق والضابط الذي معه لاحظا الألغام التي تعترض طريقهم، إذ توقفا وقوفا مفاجئا كادت أن تنقلب معه العربة، ثم راحا يتراجعان عندما أصابت البازوكا عربتهم. أصيبت عربتهم بينما كانت المجموعتان تطلقان النار عليها من المصيدتين. كان لدى ركاب نصف المجنزرة ألغام أيضا، فكانوا يهرعون لينصبوا متراسا على الطريق لكي يؤمنوا الحماية لمن مر منهم لأنه عندما أصابت البازوكا الكراوتية العربة وقذفتها إلى الأعلى، أخفضنا رؤوسنا، وأمطرتنا بوابل غزير من الحديد وأشياء أخرى. تفقدت كلود وأوني ورد، وكانوا جميعا يطلقون النار. أنا أيضا كنت أطلق النار من رشاش شمايزر على فتحات العربة، وكان ظهري مبللا ورقبتي معفرة، لكنني رأيت ما أمطرنا به. لم أفهم لماذا لم تنفجر العربة بشكل عرضاني أو تنقلب. لكنها انفجرت وهي ترتفع في الهواء. كان الخمسينيون(١١٥) من العربة يطلقون النار، وكان الضجيج يصم الآذان. لم يظهر أحد من نصف المجنزرة، فظننت أن الأمر انتهى وهممت أن أومئ للخمسينيين بأن يكفوا عن الإطلاق، لكن واحدا قذف قنبلة مسمارية من داخل نصف المجنزرة فانفجرت بعيد حافة الطريق.

(١١٥) يتضح هنا أن همنغواي يلجأ إلى أسلوب المجاز المرسل، إذ يكني عن العربات المدرعة (بل أحيانا حتى عن الرجال العاملين عليها) بأرقام طرازاتها [المترجم].

«إنهـم يقتلون موتاهم»، قال كلود. «هل يمكنني أن أصعد إلى عربتهم وألقي فيها قنبلتين؟».

«يمكنني أن أرميها بقذيفة أخرى».

«لا. فقذيفة واحدة تكفي. لقد أصبح ظهري كله موشوما».

«لا بأس. عليك بها».

راح يتقدم زاحفا كالثعبان بين الحشائش وتحت نيران الخمسينيين، فنزع مسمار الأمان من القنبلة وأمسكها بيده وهي تطلق دخانا رماديا، ثم ألقاها على جانب نصف المجنزرة. انفجرت مطلقة فرقعة مرعبة، وكان بإمكانك أن تسمع الشظايا ترتطم بدرع التصفيح.

«هيا، اخرجوا»، قال كلود بالألمانية. راح مسدس رشاس يطلق النار من فتحة العربة اليمنى. أصاب رد هذه الفتحة بطلقتين. أطلق المسدس مرة أخرى. كان واضحا أنه يطلق من غير تسديد.

«هيا، اخرجوا»، قال كلود. أطلق المسدس مرة أخرى، مصدرا صوتا يشبه صوت خبط الأولاد لسياج من الأوتاد بعصا. رددت عليه بنار من سلاحي الذي أصدر ذات الصوت السخيف.

«هيا، عد يا كلود»، قلت له. «سدد على إحدى الفتحتين، يا رد، وأنت على الأخرى، يا أوني».

عندما عاد كلود مسرعا قلت، «اللعنة على ذلك الكراوت. سنستخدم قذيفة أخرى. يمكننا أن نحصل على المزيد، وطلائع القوات قادمة في كل الأحوال».

«هذه هي مؤخرة جنودهم»، قال أوني. «هذه العربة».

«هيـــا اقذفها»، قلت لكلود. قذفها بقذيفة حطمت مقصورتها الأمامية، فاندفعوا إلى داخلها بحثا عما تبقى من المال وسجلات الرواتب. تناولت جرعة من المشـــروب وأومأت للخمسينيين. كان الخمسينيون يهزون أيديهم فوق رؤوسهم كالمقاتلين. عندئذ قعدت وأسندت ظهري على جذع شجرة لأفكر وأراقب الطريق.

جلبوا ما وجدوه من ســـجلات الرواتب، فوضعتها مع غيرها في كيس قنب. لم يكن أي من السجلات جافا. وجدنا مالا كثيرا، وكان مبلـــلا أيضا، وقام أوني وكلـــود والآخرون بقطع الكثير من شعارات الإس إس، وجاءوا بمسدســـات صالحة وغير صالحة، ووضعناها جميعا في كيس القنب ذي الشرائط الحمراء.

لـــم ألمس النقود قط. كان هذا شـــأنهم، وعلـــى كل حال فقد كنت أعتقد أن لمســـه نذير شـــؤم. لكن كان هناك الكثير من مال الغُنم(١١٦). أعطانـــي بيرتراند صليبا حديديا من الدرجة الأولى، فوضعته في جيب قميصي. احتفظنا ببعض منها لبعض الوقت، لكننا أهديناها جميعا. لم أكن أرغب قط في الاحتفاظ بشـــيء، لأن فـــي ذلك مجلبة للشـــؤم في النهاية. ظللـــت أحتفظ ببعض الأشياء مدة من الزمن، وكنت أتمنى أن أرسلها لاحقا إلى وطني أو أعيدها إلى عائلاتهم.

بدت المجموعة كأن وابلا من الأشـــلاء نزل عليها إثر انفجار في مســـلخ، ولم يكن الآخرون أحســـن حـــالا عندما خرجوا من جوف نصف المجنزرة. لم أدرك ســـوء منظـــري إلا عندما رأيت أسراب الذباب تحوم حول ظهري ورقبتي وكتفي.

---

(١١٦) مال الغنم: مال يجنى من بيع الغنائم ويوزع على الضباط الذين استولوا على هذه الغنائم [المترجم].

كانت نصف المجنزرة تجثم في وســط الطريق، مما جعل كل عربة تمر تخفف سرعتها. أصبح الجميع أغنياء الآن، ولم نفقد أيــا منا، وأصبــح المكان خربا. صار لزامــا علينا أن نحارب في يوم آخــر، وكنت متأكدا أن هذه كانت مؤخــرة جنودهم وأن من سنصادفهم الآن إما ممن ضلوا طريقهم أو تعثر بهم الحظ.

«فكك الألغام واحمل كل شيء، وسنعود إلى بيت المزرعة حيث سنغتســل. وبإمكاننا أن نقطع الطريق علــى أعدائنا من هناك، تماما كما ينص الكتاب».

جاءوا وقد كسبوا غنائم كثيرة وكان الكل شديد الفرح. تركنا العربات حيث هي، واغتســلنا على المضخــة في باحة المزرعة، ووضع رد اليود على الجروح والخدوش التي أحدثتها الشــظايا، ثم ذر مســحوق الســلفا على أونــي وكلود وعلي، ثــم قام كلود بمعالجة رد.

«أليس لديهم مشروب في ذلك البيت؟». سألت رينيه.

«لا أعرف. لقد كنا مشغولين».

«اذهب واستطلع».

وجد بعض الزجاجات من المشــروب الأحمر الصالح للشرب، فجلســت وتفقدت الأســلحة وأطلقت النــكات. كان لدينا نظام صارم لكن من دون رسميات، ما لم نكن في مقر الفرقة أو رغبنا في التباهي.

«فرصــة أخرى تضيع»، قلت لهم. وكانــت هذه مزحة قديمة جدا، وهي عبــارة كان يرددها نصاب كان معنا مدة عندما كنت أترك شيئا لا قيمة له يمر طمعا في شيء أثمن منه.

«هذا فظيع»، قال كلود.

«إنه لا يطاق»، قال ميشيل.

«أما أنا فلا أستطيع أن أذهب أبعد من هذا»، قال أونيزيم.

«أما أنا، فأنا فرنسا عينها»، قال رد.

«هل أنت محارب؟». سأله كلود.

«لا، بل أنا القائد»، أجابه رد.

«هل تحارب؟». سألني كلود.

«لا».

«ولماذا قميصك ملطخ بالدم؟».

«كنت أحضر ولادة عجل».

«وهل أنت قابلة أو طبيب بيطري؟».

«لا أستطيع أن أعطيك سوى اسمي، ورتبتي، ورقمي المتسلسل».

شربنا مزيدا من الخمر وراقبنا الطريق وانتظرنا مقدم طلائع القوات.

«أين طلائع القوات اللعينة؟». سأل رد.

«لست مطلعا على أسرارهم».

«أنا سعيد لأنهم لم يأتوا بينما كنا نرتب أمورنا»، قال أوني. «قل، يا سيدي النقيب، كيف كان شعورك وأنت تطلق القذيفة؟».

«شعرت بخواء شديد».

«بماذا كنت تفكر؟».

«كنت أدعو الله ألا تسيح».

«لقد كنا بلا شك محظوظين لأنهم كانوا محملين بالمتاع».

«أو لأنهم لم يتراجعوا ويعيدوا انتشارهم».

«لا تفسد علي عصري هذا»، قال مارسيل.

«اثنـــان من الكراوتس على دراجتين، قادمان من الغرب»، قال رد.

«شابان جريئان».

«فرصة أخرى تضيع»، قال أوني.

«هل يريدهما أي منكم؟».

لـــم يبد أحد رغبة فيهما. كانا يثابران في ســـيرهما، ويكبان على دراجتيهما، وكانت جزمتاهما أكبر بكثير من الدواسات.

«ســـأجرب واحدا منهما بالإم ون»، قلت لهم. ناولني أوغست البندقيـــة وانتظرت حتى تجـــاوز راكب الدراجـــة الألماني الأول نصف المجنزرة وابتعد عن الأشـــجار، فســـددت عليه، وأطلقت، لكنني أخطأته.

«ليـــس جيدا»، قال رد، فحاولت مـــن جديد وقد أطلقت على مســـافة أمامه أبعد من قبل. سقط الألماني بذات الطريقة التي تنفطـــر لها القلوب وتذهـــل لها العقول ورقد فـــي الطريق وقد انقلبت الدراجة رأسا على عقب، وظلت إحدى عجلتيها تدور في الهواء. واصل الدراج الآخر مسيره، وفجأة راح صاحبانا يطلقان عليه النار. سمعنا دوي رصاصهم الذي كان بلا تأثير على الدراج الذي ثابر في مسيره حتى توارى عن الأنظار.

«لا خير في صاحبينا هذين»، قال رد.

ثم رأينا صاحبينا ينسحبان لينضما إلى بقية المجموعة. خجل الفرنسيون في المجموعة واستاءوا منهما.

«ألا يمكننا أن نقتلهما؟». سألني كلود.

«لا».

«فرصة أخرى تضيع»، قال أوني، فطاب خاطر الجميع، لكن ليس كثيرا.

جاء صاحبنا الأول يحمل زجاجة تحت قميصه برزت عندما توقف وقدم سلاحه، وقال، «سيدي النقيب، لقد أحدثنا مجزرة حقيقية».

«اخرس، وناولني سلاحك»، قال له أوني.

«ولكننا كنا ميمنة الهجوم»، قال صاحبنا بصوته الثمل.

«بل أنت زبالة، أيها المدمن الحقيقي»، قال له كلود. «اخرس واغرب عن وجهي».

«ولكننا قاتلنا».

«هيا، اغرب عن وجهي». قال له مارسيل.

«ألا يمكننا أن نقتلهما؟». سألني رد. وقد حفظه كالببغاء(١١٧).

«اخرس أنت أيضا»، قلت له. «كلود، لقد وعدتهما دراجتين».

«هذا صحيح»، قال كلود.

«أنا وأنت سنذهب ونعطيهما أسوأ دراجتين، ونخلي الكراوت والدراجة. وأنتم تقطعون الطريق على العدو».

«لم تكن الأمور تجري على هذا النحو في الماضي»، قال أحد صاحبينا.

---

(١١٧) كان رد قد سأل النقيب بالفرنسية إن كان بإمكانهم أن يقتلوا المتطوعين الثملين، ونظرا إلى أنه غير متمكن من هذه اللغة، فقد نسخ سؤاله من سؤال كلود المذكور قبل بضعة أسطر، وهذا معنى قول النقيب «وقد حفظه كالببغاء» [المترجم].

«لــن تجري الأمور بعد اليوم كما في الماضي. وعلى أي حال، أظنك كنت ثملا في الماضي».

توجهنــا أولا إلــى الألماني الملقى على الطريــق. لم يكن ميتا لكن الرصاصة اخترقت كلتا رئتيه. حملناه بأقصى ما اســتطعنا مــن رفق وأضجعناه بأقصى ما اســتطعنا مــن راحة، ثم خلعت رداءه وقميصه، وذررنا مســحوق السلفا على جراحه، وقام كلود بتضميده. كان له وجه جميل ولم يكن يتجاوز الســابعة عشــرة. حاول أن يتحدث لكنه عجز عن الكلام. كان يكابر كما يجب عليه أن يفعل في مثل هذه الأحوال حسبما سمع.

جاء كلود برداءين من الأموات ووسد رأسه عليهما. ثم مسح على رأســه، وأمسك يده ليجس نبضه. لم يكن الغلام يزيح ناظريه عنه لكنه كان عاجزا عن الكلام، فانحنى عليه كلود وقبله على جبينه.

«أبعدا الدراجة عن الطريق»، قلت لصاحبينا.

«ســت پوتان كير»، قال كلود [بالفرنسية]. «تبا لهذه الحرب السافلة».

لم يكن الغلام يعلم أنني أنا مَن أصابه، ولذلك لم يكن يخشاني دون ســواي، فجسســت نبضه أيضا، وأدركت لماذا فعل كلود ما فعــل. كان علي أن أقبله لو كان في أي خير. كان ذلك واحدا من تلك الأشياء التي تغفلها، فيلازمك هذا الطبع طوال حياتك.

«أريد أن أبقى معه لفترة قصيرة»، قال كلود.

«شــكرا جزيلا لــك»، قلت لــه. ذهبت إلى حيــث كنا نخبئ الدراجات الأربع خلف الأشجار، فوجدت صاحبينا واقفين هناك مثل غرابين.

«خــذا هــذا وذاك واغربــا عن وجهــي». ثــم جردتهما من شرائطهما ووضعتها في جيبي.

«ولكننا قاتلنا، وهذا ثمنه اثنتان».

«اغربا عن وجهي»، قلت لهما. «هل ســمعتما ما قلت؟ اغربا عن وجهي».

انفضا عني وقد خابت آمالهما.

خرج صبي يناهز الرابعة عشــرة مــن الحانة وطلب مني أن أعطيه الدراجة الجديدة.

«لقد أخذوا دراجتي صباح هذا اليوم».

«لا بأس. خذها».

«وماذا عن الدراجتين الأخريين؟».

«هيــا، ابتعد من هنا وتجنب الطريق إلى أن يأتي الطابور إلى هنا».

«ولكنكم أنتم الطابور».

«لا»، قلت له. «للأسف لسنا نحن الطابور».

ركب الصبي الدراجة التي لم تتعرض لأي أضرار واتجه نحو الحانة. مشيت عائدا إلى البيت الريفي تحت لهيب هذه السماء الصيفية لأنتظر مقدم طلائــع الجنود. لم أكن أتصور أن حالي يمكن أن تكون أســوأ مما هي عليه. لكنها يمكن أن تكون كذلك بلا شك. هذا وعد مني لكم.

«هل سنذهب إلى البلدة الكبيرة هذه الليلة؟». سألني رد.

«طبعا. إنهم يســتولون عليها في هذه اللحظة، آتين إليها من الغرب. ألا تسمع ذلك؟».

«طبعا. بإمكان المرء أن يسمع ذلك منذ الظهيرة. هل هي بلدة جيدة؟».

«ستراها حالما يصل الطابور وننضم إليه ونسير على هذا الطريق ونتجاوز المقهى». أريته على الخريطة. «يمكنك أن تراها بعد ميل تقريبا. هل ترى المنحنى قبل أن تهبط؟».

«هل لا يزال أمامنا قتال؟».

«ليس اليوم».

«هل لديك قميص آخر؟».

«إنه أسوأ حالا من هذا».

«لا يمكن أن يكون أسوأ حالا من هذا. سأغسل هذا القميص. إن اضطررت لارتدائه وهو مبلل، فلن تتعرض للأذى في مثل هذا اليوم اللاهب. هل تشعر بالضيق؟».

«أجل، جدا».

«ما الذي يؤخر كلود؟».

«إنه يواسي الغلام الذي أصبته، حتى يموت».

«هل هو غلام؟».

«نعم».

«اللعنة».

بعد مدة جاء كلود ومعه الدراجتان، ثم ناولني بطاقة هوية الغلام.

«دعني أغسل لك قميصك أيضا، يا كلود. لقد غسلت قميصي وقميص أوني، وقد كادا يجفان».

«شكرا جزيلا لك، يا رد»، قال كلود. «هل تبقى من المشروب شيء؟».

«لقد وجدنا المزيد منه وبعض النقانق».

«جيد»، قال كلود. لقد أصاب هو أيضا الحمار الأسود إصابة مميتة.

«سنذهب إلى البلدة الكبيرة بعد أن يلحق بنا الطابور. يمكنك أن تراها على مسافة أكثر من ميل من هنا»، قال له رد.

«لقد رأيتها من قبل»، قال له كلود. «إنها مدينة جيدة».

«انتهينا من القتال لهذا اليوم».

«سنقاتل غدا».

«ربما لن نضطر إلى ذلك».

«ربما».

«ابتهج».

«اخرس. أنا مبتهج».

«حسن»، قال رد. «خذ هذه الزجاجة والنقانق وسأغسل القميص في لمح البصر».

«شكرا جزيلا لك»، قال له كلود. تقاسمنا ما عندنا سواء بسواء فلم يرض أحد منا بقسمته.

مشهد مأهول[118]
[1987]

كان أمر ذلك البيت في غاية الغرابة. طبعا، لم يعد المصعد يعمل. التوى العمود الفولاذي الذي كان ينزلق عليه في الصعود والهبوط، وتهشم عدد من الدرجات الرخامية في أضلاع الدرج الستة، ما يضطرك إلى المشي بحذر على الأطراف وأنت تصعد حتى لا تسلت من بينها. كانت هناك أبواب تنفتح على غرف لم تعد موجودة، وكان في إمكانك أن تفتح بابا سليم المظهر تماما وتعبر عتبته، فإذا بك تمشي في الفضاء، لأن هذا الطابق والطوابق الثلاثة الأخرى تحته قد نسفت من واجهة العمارة الشقية بقذائف شديدة الانفجار أصابتها إصابات مباشرة. لكن في الطابقين العلويين كانت هناك أربع غرف سليمة في واجهة البناية، وظلت المياه جارية في الغرف الخلفية في كل الطوابق. أطلقنا على هذا البيت اسم «بيت العائلة القديم».

كان خط الجبهة، في أسوأ اللحظات، يقع تحت هذه العمارة الشقية مباشرة، محاذيا الحافة العليا للسهل الصغير الذي يلتف حوله الشارع العريض، وكان الخندق وأكياس الرمل التي اهترأت بفعل العوامل الجوية لا تزال هناك. كانت قريبة جدا بحيث يمكنك، وأنت واقف على إحدى الشرفات، أن ترمي فيها

---

(118) «مشهد مأهول»: اسم قصة عن الحرب الأهلية الإسبانية، وقد كتبت نحو سنة 1938، وكانت إحدى القصص القصيرة التي اقترح همنغواي أن يدرجها ضمن مجموعة جديدة ينوي تأليفها، وقد ورد هذا الاقتراح في رسالة وجهها همنغواي إلى المحرر ماكسويل بيركنز في 7 فبراير 1939 [المترجم].

بلاطة مكسورة أو قطعة ملاط من العمارة الشقية المهشمة. لكن خط الجبهة تراجع الآن عن حافة السهل وأصبح على الجهة الأخرى للنهر على سفح تل الصنوبر الذي ينهض خلف عزبة الصيد الملكية القديمة التي كانت تدعى «كاسو دل كامپو»(١١٩)، صار القتال يدور هناك الآن، فاستخدمنا «بيت العائلة القديم» بمنزلة مركز رصد ونقطة ممتازة نصور منها.

في تلك الأيام كان الخطر يحيط بنا، والبرد يلاحقنا، والجوع يقرضنا على الدوام، وكنا نتمازح كثيرا.

وكلما انفجرت قذيفة في عمارة أثارت سحابة هائلة من غبار القرميد والجبس، وعندما ينجلي هذا الغبار تكتسي أسطح المرايا بطبقة من المسحوق، فتبدو كالنوافذ المطلية بطلاء أبيض في عمارة جديدة. كانت هناك مرآة طويلة لم تتكسر في إحدى غرف تلك العمارة تطل على الدرج وأنت تصعد، فكتبت على سطحها بإصبعي «الموت لجوني» بأحرف كبيرة، ثم أرسلنا جوني، المصور، إلى تلك الغرفة، متذرعين بحجة ما. وعندما فتح الباب، وكان ذلك في أثناء القصف، رأى ذلك الإعلان المخيف يطل عليه من المرآة، انتابه غضب هولندي لا يلجم، فلاقينا معه الأمرّين إلى أن تصالحنا.

في اليوم التالي وبينما كنا نحمل عدتنا في سيارة أمام الفندق، دخلت السيارة ورفعت زجاج النافذة الجانبية حيث كان الطقس قارسا. وبينما الزجاج يرتفع رأيت مطبوعا بأحرف حمراء كبيرة وبقلم حمرة مستعار عبارة ED IS A LICE (إد

(١١٩) «كاسو دل كامپو»: عبارة إسبانية تعني «العزبة الريفية» [المترجم].

قمل) (١٢٠)، استخدمنا السيارة عدة أيام بهذا الشعار الذي حير الإسبانيين. لابد أنهم ظنوا أن هذه العبارة هي الأحرف الأولى لإحدى المنظمات الثورية الهولندية الأمريكية أو لشعار تتخذه، ربما يشبه الأحرف الأولى لـ F. A. I أو C. N. T (١٢١).

بعد ذلك جاء اليوم الذي تولى فيه القيادة السلطان البريطاني الأعظم فأنسانا ما حل بالمدينة. كانت لديه خوذة فولاذية كبيرة من الطراز الألماني وكان يعتمرها في كل الحملات باتجاه الجبهة. كانت الخوذة الجزء الوحيد من الملابس الذي لم يألفه البقية الباقية منا. كان الاعتقاد السائد هو أنه ما دامت لا توجد خوذات فولاذية كثيرة، فيجب أن يقتصر استخدامها على قوات الصاعقة. لذلك، ولد فينا ارتداء السلطان الأعظم هذه الخوذة تحاملا فوريا عليه.

كنا قد التقينا في غرفة صحفية أمريكية عندها مدفأة كهربائية رائعة. تملك هوى هذه الغرفة الرائعة فكر صاحب العظمة من أول زيارة، فسماها النادي. كانت فكرته أن يأتي كل واحد منا بمشروبه ويستمتع به في هذا الدفء والجو الرائع. وبما أن الفتاة الأمريكية كانت جدية في عملها فقد حاولت

---

(١٢٠) قد نستشف من هذه العبارة أمرين: أولا، أن جوني لا يتقن الإنجليزية، حيث نراه يستخدم أداة الإفراد قبل اسم جمع، كما يرتكب أخطاء مماثلة لاحقا. ثانيا، أنه قد يكون هولنديا بالفعل، وهذا ما يفسر قول الراوي قبل بضعة أسطر: إن غضبا هولنديا لا يلجم قد انتاب جوني [المترجم].

(١٢١) لا أعرف بالضبط من أي لغة يستعير همنغواي هذه المسكوكات اللفظية، ولم أجد منظمة ثورية هولندية أمريكية تنطبق عليها هذه المسكوكات، لذلك يتعذر عليّ ترجمتها ولو ترجمة يركن إليها الظن. فعلى سبيل المثال، تعني مسكوكة F. A. I بالإنجليزية «اتحاد كرة القدم الإيرلندي» وبالفرنسية «الاتحاد الدولي للرياضات الهوائية». فأيهما أختار والسياق لا يحتمل لا هذا ولا ذاك؟ [المترجم].

جاهـــدة، ربما من غير كبير جدوى، أن تحول دون تحول غرفتها إلـــى ناد بأي معنى مـــن المعاني، لذلك وقع عليهـــا هذا التعميد والتصنيف المحدد وقوع الصاعقة.

بعد ذلـــك بيوم كنا نعمل في بيت العائلة القديم، وكنا نحجب عدســـات الكاميرا بأقصى ما يمكن من حذر ضد وهج الظهيرة بوساطة حصيرة متكســـرة، عندما وصل صاحب العظمة برفقة الفتاة الأمريكية. كان قد ســـمعنا فـــي النادي نتناقش حول هذا المكان فقرر أن يزورنا. كنت أســـتخدم منظـــارا ميدانيا صغيرا ثمانـــي التكبير من طراز زايس يمكنك أن تغطيه بكلتا يديك كي لا يعكس أشـــعة الشمس، وكنت أقوم بالرصد من الظل في زاوية الشـــرفة المحطمة. كان الهجوم على وشـــك أن يبدأ وكنا ننتظر مرور الطائرات من فوقنا وبدء القصف الذي يســـتعاض به عن التمهيـــد المدفعي الكافي نظرا إلى النقص الحاصل في المدفعية الثقيلة عند الحكومة في ذلك الوقت.

كنا نعمل في تلـــك العمارة، ونتخفى كالجرذان بأقصى درجة ممكنة مـــن الحذر، لأن نجـــاح عملنا وإمـــكان مواصلة الرصد يعتمـــدان كليا على عدم جذب النيران إلى هذه العمارة المهجورة ظاهريـــا. دخل الآن صاحب العظمة إلى الغرفة، فســـحب أحد الكراســـي الفارغة، وقعد في وســـط الشـــرفة تمامـــا، بخوذته الفولاذية، ومنظـــاره الهائل الحجم، وكامل عدته. كانت الكاميرا منصوبة في زاوية على أحد جانبي نافذة الشرفة ومموهة بعناية فائقـــة كما يموه مدفع رشـــاش. وكنت أنا فـــي زاوية الظل على الجانب الآخر لا يراني أحد على سفح التل، وكنت دائما أحرص

على عدم التحرك في الأمكنة المشمسة المفتوحة. كان صاحب العظمة يجلس على مرأى الجميع في وسط البقعة المشمسة وكأنه، في خوذته الفولاذية، رئيس كل هيئات الأركان العامة في العالم، ونظاراته تلمع في الشمس مثل مشماس(١٢٢).

«اسمع»، قلت له. «علينا أن نعمل هنا. ومن حيث تجلس تصدر نظاراتك لمعانا يراه كل من على ذلك التل».

«لا خطر في منزل برأيي»، قال صاحب العظمة بوقار رزين متعال.

«لو أنك اصطدت نعاج الجبال في يوم من الأيام، لعرفت أن في إمكانهم أن يروك كما تراهم»، قلت له. «ألا ترى كيف ترى الرجال بجلاء بوساطة نظاراتك؟ هم أيضا لديهم نظارات».

«لا خطر في منزل برأيي»، كرر صاحب العظمة قوله. «أين هي الدبابات؟».

«هناك، تحت الأشجار»، قلت له.

كان كلا المصورين يكشر امتعاضا ويهز قبضته المضمومة فوق رأسه من الغيظ.

«سأذهب وآخذ الكاميرا إلى الخلف»، قال جوني.

«ابقي في أقصى الخلف، يا بنيتي»، قلت للفتاة الأمريكية. ثم قلت لصاحب العظمة، «قد يظنون أنك من سلك الضباط، كما تعلم. عندما يرون خوذة التنك هذه وتلك النظارات سيظنون أننا نحن من يدير المعركة. أنت تبحث عن المتاعب، كما تعلم».

---

(١٢٢) المشماس: أداة لإرسال الإشارات البرقية بوساطة أشعة الشمس المنعكسة على مرآة [المترجم].

كرر علي لازمته.

في تلك الدقيقة بالذات هبطت علينا أول قذيفة. جاءت مدوية كأنها أنبوب بخار ينفجر يرافقه تمزق قماش القنب، وتحت الانفجار والدوي وفرقعة الجبس المتكسر وسحابة الغبار فوقنا أخرجت الفتاة من الغرفة إلى الجزء الخلفي من الشقة. وبينما أنا أهرع من الباب رأيت شيئا على رأسه خوذة فولاذية يمر بي قاصدا الدرج. قد يتهيأ لك أن الأرنب يتحرك بسرعة عندما يقفز في البداية ثم يباشر قفزه المتعرج، بيد أن صاحب العظمة قفز من الغرفة المملوءة بالدخان إلى الدرج الخطر، وخرج من الباب إلى الشارع بأسرع من أي أرنب. قال أحد المصورين إنه لم يجد سرعة على عدسات كاميرا اللايكا تلتقط تحركه. هذا ليس صحيحا، بالطبع، لكنه يعطيك تصورا عما جرى.

على أي حال، واصلوا قصف المنزل لمدة دقيقة تقريبا. كانت تسديداتهم تتواصل على نحو لا يترك لك وقتا لتحبس أنفاسك بين اندفاع خطواتك الهاربة ودوي الانفجار. وبعد آخر انفجار، انتظرنا دقيقتين لنرى إن كان القصف قد توقف، وأخذنا جرعة ماء من صنبور المطبخ، ووجدنا غرفة جديدة ننصب فيها الكاميرا. كان الهجوم قد بدأ على الفور.

كانت الفتاة الأمريكية حانقة جدا من صاحب العظمة. «هو الذي أتى بي إلى هنا. وهو الذي قال إن هذا المكان آمن. وهو الذي هرب ولم يقل حتى كلمة وداع».

«إنه ليس سيدا لطيفا»، قلت لها. «انظري، يا بنيتي. راقبي. الآن. ها قد بدأ».

نهض بعض الرجال تحتنا مقدار نصف قامة، ثم اندفعوا إلى الأمام نحو بيت حجري تحيط به بعض الأشجار. كان البيت يختفي وراء سحب الغبار الذي تثيره القذائف المنهمرة عليه. كان الهواء يجلو الغبار بعد كل قذيفة، فظل البيت يتراءى جليا من بين الغبار كما تتراءى سفينة من بين الضباب، وأمام الرجال كانت دبابة تنقض مسرعة كأنها خنفساء مستديرة الظهر، مدببة الخطم، ثم توارت عن الأنظار بين الأشجار. وبينما نحن نراقبهم، انبطح الرجال الذين كانوا يركضون. ثم تقدمت دبابة أخرى نحو الأشجار من اليسار، وكنا نرى لمعان قذائفها، وتحت الدخان الذي هب من البيت نهض أحد الرجال المنبطحين على الأرض، وراح يعدو كالمسعور عائدا إلى الخندق الذي غادروه عندما بدأوا هجومهم. نهض آخر وعاد راكضا، يمسك بندقيته بيد، ويده الأخرى على رأسه. ثم راح الجميع على طول خط الجبهة يعودون راكضين. سقط بعضهم وهم يركضون. وآخرون ظلوا راقدين على الأرض من دون أن ينهضوا. كانوا مبعثرين على سفح التل كله.

«ماذا حدث؟». سألتني الفتاة.

«لقد فشل الهجوم»، قلت لها.

«لماذا؟».

«لأنهم لم يتقدموا إلى هدفهم».

«لماذا؟ ألم يكن التراجع خطرا عليهم كالتقدم؟».

«ليس كذلك تماما».

رفعت الفتاة منظار الميدان إلى عينيها. ثم أنزلته.

«لم أعــد أرى»، قالت لي. كانت الدموع تســيل على خديها، وكان وجههــا يختلج. لم أرهــا تبكي من قبل، برغم أننا رأينا من الأشــياء التي تُبْكي، إن شــئت البكاء، الكثير الكثير. في الحرب تبكي كل الرتب، حتى الجنرالات، بين الحين والآخر. ومهما قيل لــك، فهذه هي الحقيقة، لكن البكاء أمر يتفاداه الناس، بل يجب تفاديه، وأنا لم أر هذه الفتاة تبكي من قبل.

«وهذا هو الهجوم؟».

«هذا هو الهجوم، وقد رأيته بنفسك»، قلت لها.

«وما الذي سيحدث؟».

«قد يرســلونهم ثانية إن بقي من الناس مــا يكفي لقيادتهم. وأشك في أنهم سيفعلون. يمكنك أن تعدي الخسائر التي أمامك إن شئت».

«هل كل هؤلاء الرجال ميتون؟».

«لا. فهناك من تقعده جراحه عن الحركة. سيقومون بإخلائهم في الظلام».

«وماذا ستفعل الدبابات الآن؟».

«ستعود إلى مرابضها إن حالفها الحظ».

لكن واحدة منها قد تَعثَّر حظها ســلفا. من بين غابة الصنوبر راح يرتفع عمود دخان أســود قذر، ثــم راحت الريح تقذفه ذات اليمين وذات الشــمال. وســرعان ما صار العمود سحابة سوداء متموجة تتخلل دخانها الأســود اللزج ألســنة حمراء من اللهب. حدث انفجــار تلته موجة من الدخان الأبيض، ثم اندفع الدخان الأسود نحو الأعلى، لكن من قاعدة أوسع.

«تلك دبابة»، قلت لها. «تحترق».

وقفنا نتفرج. بوساطة المنظار رأينا رجلين يخرجان من إحدى زوايا الخندق ثم يصعدان سفح التل وهما يحملان نقالة. كانا يتحركان ببطء وتثاقل. وبينما نحن نتفرج، جثا الرجل في المقدمة على ركبتيه ثم قعد. أما الرجل الثاني فقد سقط على الأرض. راح يزحف إلى الأمام. وضع يده تحت كتف الرجل الأول، ثم راح يزحف، ساحبا رفيقه نحو الخندق. بعدئذ توقف عن الحركة، ورأينا وجهه مكبا على الأرض. رقد كلاهما الآن بلا حراك.

توقف القصف على المنزل الآن وهدأ الجو. برز البيت الريفي الكبير والأرض المسورة جلية صفراء على خلفية سفح التل الأخضر الذي كانت تخدده خطوط بيضاء حيث أقيمت التحصينات وحفرت خنادق الاتصالات. راح الدخان الآن يتصاعد من نيران صغيرة على سفح التل حيث كان الرجال يطبخون. وفي أعلى السفح الأخضر باتجاه البيت الريفي الكبير رقد ضحايا الهجوم كأنهم حزم كثيرة متناثرة.

«هذه فظاعة»، قالت الفتاة. «هذه أول مرة أرى فيها مثل هذه الفظاعة. إنها فظاعة حقيقية».

«هكذا هي دائما».

«ألا تمقتها؟».

«إني أمقتها كما مقتها دائما. لكن عندما يتعين على المرء أن يقوم بها فعليه أن يعرف كيف يفعل ذلك. ما رأيته كان هجوما جبهيا. إنها قتل مشروع».

«هل هناك أساليب أخرى للهجوم؟».

«أوه، طبعا. هناك أساليب كثيرة. لكن يجب أن تكون لديك دراية ونظام صارم وقادة زمر وجماعات مدربة، وعنصر المفاجأة فوق كل شيء».

«إن الظلام شديد يستحيل معه العمل»، قال جوني وهو يغلق عدسته المقربة. «مرحبا أيها القمل العجوز. الآن نذهب إلى الفندق. اليوم نحن نعمل بشكل جيد جدا».

«أجل»، قال الآخر. «لقد قمنا بعمل رائع اليوم. من المؤسف أن الهجوم فشل. من الأفضل ألا نفكر فيه. أحيانا نصور هجوما ناجحا. لكن عندما يكون الهجوم ناجحا، إما تمطر أو تثلج»[١٢٣].

«لم أعد أرغب في رؤية المزيد»، قالت الفتاة. «لقد اكتفيت الآن. لن يدفعني شيء إلى رؤيته لا من باب الفضول ولا من باب التكسب بالكتابة عنه. أولئك بشر مثلنا. انظروا إليهم على سفح ذلك التل».

«أنت لست من الرجال»، قال جوني[١٢٤]، «أنت من النساء. لا تخلطي بين الاثنين».

«يأتي الآن صاحب الخوذة الفولاذية»، قال الآخر وهو ينظر من النافذة. «يأتي الآن بكثير من الوقار. أتمنى لو كانت عندي قنبلة أقذفها عليه لأفاجئه».

---

(١٢٣) يبدو أن هذا المصور الآخر أيضا غير ناطق بالإنجليزية، وهذا واضح من خلال كلامه المفكك في الأصل الإنجليزي، وإن كان كلامه أقل تفككا من كلام جوني الذي لا يعرف إلا زمنا واحدا للفعل الإنجليزي، هو الزمن الحاضر [المترجم].

(١٢٤) لقد التبس على جوني معنى كلمة men (بشر) التي استخدمتها الصحافية في السطر السابق، إذ تعني الكلمة عادة «رجال»، وسوء الفهم هذا هو ما دفعه إلى هذا التعليق المضحك [المترجم].

كنا نحزم الكاميرات وعدتنا عندما دخل صاحب العظمة والخوذة الفولاذية.

«مرحبا، هل التقطتم بعض الصور الجيدة؟». سألنا. «لديَّ سيارة في أحد الشوارع الخلفية لتأخذك إلى منزلك، يا إليزابيث».

«أنا ذاهبة مع إدون هنري»، قالت له الفتاة.

«هل خبت الريح؟». سألته عرضا.

تجاهل سؤالي وقال للفتاة: «ألن تأتي؟».

«لا»، قالت له. «سنذهب جميعا إلى المنزل».

«سأراك في النادي هذه الليلة»، قال لي بنبرة لطيفة جدا.

«لم تعد عضوا في النادي»، قلت له، متصنعا لكنة إنجليزية قدر المستطاع.

نزلنا الدرج جميعا، نحاذر التعثر في الحفر في الرخام، أو نمر من فوق الأضرار الجديدة أو من حولها. بدا الدرج طويلا جدا. التقطت واقيا للأنف مصنوعا من نحاس أصفر وقد أصبح مفلطحا وموشوما بالجبس في نهايته، فناولته للفتاة المدعوة إليزابيث.

«لا أريده»، قالت لي، وتوقفنا جميعا عند المدخل لنترك صاحب الخوذة الفولاذية يواصل مسيره وحيدا. كان يسير بوقار مهيب عبر ذلك الجزء من الشارع الذي تطلق عليه النيران في بعض الأحيان، وظل يواصل مسيره بوقار تحت ستر الجدار المقابل. ثم رحنا، واحدا تلو الآخر، نعدو بأقصى سرعة لنحتمي بالجدار. إن من يجتذب النيران هو الشخص الثالث أو الرابع الذي يعبر

فضـــاء مفتوحا . هذا ما تتعلمه بعـــد أن تقضي فترة هناك، وكنا دائما نبتهج عندما نعبر هذا المكان بالذات.

هكذا رحنا نسير في الشارع، نحن الأربعة، جنبا إلى جنب في حمى الجدار، نحمل الكاميرات وندوس على الشـــظايا الحديد الجديدة، والقرميد المتكســـر حديثا، وكتل الأحجار، نتفرج على صاحب الخـــوذة الفولاذية الســـائر أمامنا بوقـــار، بعد أن فقد عضويته في نادينا.

«لا أحب أن أكتب برقية»، قلت لهم. «لن يكون ســـهلا علي أن أكتبها. لقد فشل هذا الهجوم»[١٢٥].

«ماذا دهاك، أيها الفتى؟». سألني جوني.

«عليـــك أن تكتب ما يـمكن قـوله»، قـــال الآخر برفـق. «لا شـــك في أنك تســـتطيع أن تقول شـــيئا عـــن يوم حافل بالأحداث كهذا».

«متى سيخلون الجرحى؟». سألتني الفتاة. لم تكن تلبس خوذة، وكانت تمشي بخطوات واسعة لا ضابط لها، وبدا شعرها أصفر بلون الغبار في ضوء النهار الخابي، وكان يتدلى على ياقة سترتها القصيرة ذات القبة الفرائيـــة، ويتمايل عندما تدير وجهها. كان وجهها أبيض شاحبا كأنها مريضة.

«لقد قلت لك حالما يحل الظلام».

«عجل الله في حلوله»، قالـــت الفتاة. «هذه هي الحرب إذن. هذا ما أتيت إلى هنا لرؤيته والكتابة عنه. هل قتل ذانك الرجلان اللذان كانا يحملان النقالة؟».

---

(١٢٥) كانت الرقابة العسكرية للقوات الموالية للجمهورية الإسبانية تمنع المراسلين من الكتابة عن فشل هجوم شنته ضد القوات الفاشية، وهذا ما يلمح إليه إدون هنري هنا [المترجم].

«أجل»، قلت لها. «بكل تأكيد».

«كانا يتحركان ببطء شديد»، قالت الفتاة بنبرة كلها شفقة.

«أحيانا يصعب على المرء أن يقسر رجليه على المسير»، قلت لها. «إن الأمر يشبه المشي في رمال عميقة أو في حلم».

كان صاحب الخوذة الفولاذية لا يزال يسير أمامنا في الشارع. كان على يساره صف من البيوت المحطمة وجدار الثكنة القرميدي على يمينه. كانت سيارته مركونة في نهاية الشارع حيث كانت سيارتنا تقف في حمى أحد البيوت.

«دعونا نعده إلى النادي»، قالت الفتاة. «لا أريد لأحد أن يجرح الليلة. لا مشاعره ولا أي شيء». ثم نادت عليه، «انتظرنا. نحن قادمون».

توقف والتفت وراءه، وكم كانت مضحكة تلك الخوذة الهائلة الثقيلة عندما أدار رأسه، كأنها قرنان هائلان على رأس وحش لا يؤذي. انتظر حتى لحقنا به.

«هل لي أن أساعدكم بأي من هذا؟». سألنا.

«لا، فالسيارة هناك أمامنا».

«نحن ذاهبون جميعا إلى النادي»، قالت الفتاة وابتسمت له. «هلا أتيت وأحضرت زجاجة من المشروب؟».

«سيكون هذا من دواعي سروري»، قال لها. «ماذا أجلب؟».

«أي شيء»، قالت له الفتاة. «أي شيء تحبه. عليَّ أن أنجز بعض الأعمال أولا. تعال نحو السابعة والنصف».

«ألا أوصلك إلى منزلك بسيارتي؟». سألها. «أخشى أن تكون تلك السيارة مزدحمة بكل تلك العدة».

«أجل، أود ذلك»، قالت له. «شكرا لك».

ركبا في سيارة وحملنا كامل العدة في السيارة الأخرى.

«ماذا دهاك، أيها الفتى؟». قال لي جوني. «فتاتك تذهب إلى المنزل مع شخص آخر؟».

«لقد نكدها الهجوم. إنها تشعر باستياء شديد».

«إن المرأة التي لا ينكدها هجوم ليست امرأة»، قال جوني.

«لقد كان هجوما فاشلا جدا»، قال الآخر. «لحسن الحظ لم تشاهده من كثب. علينا ألا ندعها ترى هجوما من كثب بغض النظر عن خطورته. إنه شيء لا يطاق. من حيث رأته لم يكن سوى صورة. مثل مشهد معركة تقليدي».

«إن لها قلبا رقيقا»، قال جوني. «على خلافك أنت، أيها القمل العجوز».

«وأنا لي قلب رقيق»، قلت له. «والكلمة هي قملة - لا - قمل - قمل - هو جمع قملة».

«أنا أحب كلمة «قمل» أكثر، قال جوني. «إن لها وقعا أكثر تحديدا ودقة».

لكنه رفع يده ومحا الكلمات المكتوبة بقلم الحمرة على النافذة.

«نصنع نكتة جديدة غدا»، قال لي. «والآن أغفر لك ما كتبت على المرآة».

«جيد، يسرني هذا»، قلت له.

«أيها القمل العجوز»، قال جوني، وخبطني بيده على ظهري.

«قلت لك قملة».

«لا . قمل. تعجبني أكثر. وهي أكثر تحديدا ودقة بأضعاف».

«اذهب إلى الجحيم».

«لا بأس»، قال جوني وهو يبتسم ابتسامة رضا. «ها قد عدنا جميعـا أصدقاء من جديد. في الحرب، يجب أن يحرص كل منا على ألا يجرح مشاعر الآخرين».

تداعي الذكريات(١٢٦)
[١٩٨٧]

«إنها قصة جيدة جدا»، قال والد الفتى. «هل تدرك مدى جودتها؟».

«لم تكن عندي رغبة في أن ترسلها إليك، يا بابا».

«وماذا كتبت أيضا؟».

«تلك هي القصة الوحيدة. أقول لك الصدق، إنه لم تكن عندي رغبة في أن ترسلها إليك. لكن عندما فازت بالجائزة......».

«إنها تريدني أن أساعدك. لكن إن كانت كتابتك بهذه الجودة، فلست في حاجة إلى مساعدة أحد. كل ما تحتاج إليه هو أن تكتب. كم استغرقت منك كتابة تلك القصة؟».

«لم تستغرق طويلا».

«من أين جئت بمعلوماتك عن ذلك النوع من طيور النورس؟».

«من جزر البهاما على ما أظن».

«أنت لم تذهب قط إلى صخور الكلب ولا إلى جزيرة المرفق. لم تكن هناك نوارس ولا خرشنة تعشش في جزيرة القط ولا في بيميني. أما في الجزيرة الغربية فلا يمكن لك إلا أن ترى أقل عدد من طيور الخرشنة المعششة هناك».

«كلم پيترز. بلا شك. إنها تعشش على الصخور المرجانية».

---

(١٢٦) «تداعي الذكريات»: قصة قصيرة مكتملة، تدور أحداثها في كوبا التي اتخذ منها همنغواي موطنا له في منزل يدعى فنكا بيجيا (مزرعة الإطلالة) بين العامين ١٩٣٩و١٩٥٩ [الناشر].

«على المنبسطات الأرضية»، قال أبوه. «من أين لك أن تعرف نوارس مثل الذي في القصة؟».

«قد تكون أنت من أخبرني عنها، يا بابا».

«إنها قصة رائعة جدا. إنها تذكرني بقصة قرأتها منذ زمن بعيد».

«أظن أن كل شيء يذكرك بشيء ما»، قال الفتى.

في ذلك الصيف كان الفتى يقرأ كتبا وجدها له أبوه في المكتبة، وعندما يأتي للبيت الرئيسي للغداء (*)، إن لم يكن يلعب البيسبول أو لم يكن في نادي الرماية، كان يقول في أغلب الأحيان إنه كان يكتب.

«أرني ما تكتب متى شئت أو اسألني عن أي مشكلة»، قال له أبوه. «اكتب عن شيء تعرفه».

«هذا ما أفعله»، قال الفتى.

«لا أريد أن أبدو كأنني أقف لك بالمرصاد»، قال أبوه. «لكن، إن شئت، يمكنني أن أعد لك بعض المسائل البسيطة عن أشياء نعرفها كلانا. وسيكون هذا تدريبا جيدا لك».

«أظن أن أموري تسير على ما يرام».

«إذن، لا ترني ما تكتب إلا إذا أردت أنت ذلك. ما رأيك في كتاب «بعيدا من هنا في الزمان والمكان؟»(١٢٧).

«لقد أعجبني كثيرا».

---

(١٢٧) هذا عنوان كتاب لوليم هنري هدسن (١٨٤١ - ١٩٢٢) وهو عالم طبيعيات بريطاني من مواليد بيونس آيرس، والكتاب من أدب الرحلات، وهو بمنزلة سيرة ذاتية أيضا [المترجم].

(*) لقد تحول هذا المنزل الذي بني العام ١٨٨٦ والكائن في مدينة سان فرانسيسكو دو پاولا إلى متحف [المترجم].

«ما قصدته بالمسـائل هو أنه يمكننا أن نذهب إلى السوق معا أو نشاهد صراعا بين الديوك ثم يكتب كل منا ما رآه. إن ما تراه حقا هو ما يبقى معك. أشـياء مثل فتح السـائس لمنقار الديك والنفخ في حلقه عندما يسـمح لهم الحكم بالتقاطها وتحريضها قبل زجها في المعركة من جديد. الأشـياء الصغيرة. لنرى ما رآه الآخر».

أومأ الفتى برأسه ثم نظر مطرقا في طبقه.

«أو يمكننـا أن نذهب إلى المقهى ونلعب جولات عدة من لعبة البوكر، فتكتب ما سـمعته من المحادثـة. لا تحاول أن تكتب كل شيء. فقط ما له قيمة مما سمعت».

«أخشى، يا بابا، أنني لسـت مستعدا لهذا الأمر بعد. أعتقد أنه من الأفضل لي أن أتابع النهج الذي اتبعته في القصة».

«افعـل ذلك إذن. لا أريد أن أتدخـل أو أؤثر فيك. كانت تلك مجرد تمارين. وكنت سأسـعد بالقيام بها معك. إنها مثل تمارين الأصابع الخمسـة(١٢٨)، لم تكن تلك التمارين متميزة. يمكننا أن نقوم بأفضل منها».

«ربما يجدر بي أن أتابع النهج الذي اتبعته في القصة».

«بالتأكيد»، قال أبوه.

لم أسـتطع أن أكتب بهذه الجودة عندما كنت في سـنه، قال أبوه في سره. ولا أعرف أحدا آخر يستطيع ذلك. لكنني أيضا لم أعرف شـخصا يجيد الرماية في العاشرة خيرا من هذا الفتى، لا أقصد رماية التباهي فقط، بل رماية التنافس مع رجال بالغين

---

(١٢٨) أي التمارين التي تدرب المتعلم على اسـتخدام أصابعه الخمسة، لا سيما في العزف على البيانو [المترجم].

ومحترفين. كان يرمي بذات الطريقة في الميدان عندما كان في الثانية عشرة. كان يرمي كما لو أن رادارا داخليا يوجهه. لم يكن يرمي إلا على هدف ضمن المدى المجدي ولا يسمح لطائر مقذوف أن يقترب كثيرا، وكان يرمي بأسلوب جميل وتوقيت تام ودقة متناهية على طيور التدرج في الأعالي كما في الرمايات الأفقية على طيور البط.

عندما كان يخرج في مباريات الرماية على الحمائم الحية، ويسير على الرصيف الإسمنتي، ليدور العجلة، ويواصل سيره نحو اللوحة المعدنية التي تحدد له المسافة، كان المحترفون يلوذون بالصمت ويتفرجون. كان الرامي الوحيد الذي يصمت له الجمهور صمتا مطبقا. كان بعض المحترفين يبتسمون كما لو كانوا يبتسمون لسر عندما يرونه يرفع بندقيته إلى كتفه ثم يلتفت إلى الخلف ليرى أين يستقر عقب البندقية على كتفه. ثم يمرر المشط على خده، ويده اليسرى ممدودة للأمام إلى أقصاها، ويميل بثقله على قدمه اليسرى. كانت فوهة بندقيته ترتفع وتنخفض، ثم تخطف يسارا، فيمينا، لتعود إلى الوسط. كان عقب قدمه اليمنى يرتفع برفق وهو يميل بكامل ثقله وراء الطلقتين في حجيرتي النار.

«جاهز»، يقول بذلك الصوت الأجش الخفيض الذي لا يليق بفتى صغير.

«جاهز»، يرد عامل آلة الإطلاق.

«اسحب»، يقول الصوت الأجش، وأيا كانت الآلة، من الآلات الخمس، التي تنطلق منها الحمامة الرمادية المنقضة، ومهما بلغ

انخفاض الزاوية التي تطير بها من فوق العشب الأخضر باتجاه السياج الأبيض الخفيض، كانت الطلقة الأولى لها بالمرصاد، تتبعها الطلقة الثانية في الإثر. وبينما الحمامة تتهاوى وهي طائرة، ورأسها ينكفئ إلى الأمام، لا أحد، غير كبار الرماة، يرى أثر الإصابة الثانية التي تخترق جسد الحمامة الميتة سلفا وهي في الجو.

بعدئذ يطوي الفتى بندقيته ثم يبتعد عن الرصيف الإسمنتي ويسير قاصدا المقصورة، ووجهه خال من التعبير، وعيناه نحو الأسفل، لا يأبه إطلاقا بالتصفيق، ويقول «شكرا» بصوته الأجش الغريب لو قال له أحد المحترفين، «أحسنت الرماية، يا ستيفي».

يضع بندقيته على المحمل وينتظر ليراقب أباه وهو يرمي، وبعد ذلك يتجه الاثنان معا نحو المقهى الخارجي.

«هل يمكنني أن أشرب الكوكا كولا، يا بابا؟».

«يفضل ألا تشرب أكثر من نصف علبة».

«لا بأس. آسف لأنني كنت بطيئا إلى ذلك الحد. ما كان علي أن أترك الحمامة تقترب كثيرا».

«ولكنها كانت تنطلق بسرعة وعلى علو منخفض، يا ستيفي».

«ما كان لأحد أن يعرف ذلك لو لم أكن بطيئا».

«ولكنك تبلي بلاء حسنا».

«سأستعيد سرعتي. لا تقلق، يا بابا. وهذه الكمية الصغيرة من الكولا لن تعيقني».

مات طائره الثاني في الجو عندما قذفه ذراع الآلة الغائرة المرتد من الفتحة في الخندق المستور كالقذيفة الطائرة.

رأى الجميع كيـف أصابته الطلقة الثانية في الجو قبل أن يصل الأرض. لم يكن قد ابتعد عن آلة الإطلاق ياردة واحدة.

عندمـا عاد الفتى، قال له أحد الرماة المحليين: «لقد أحرزت هدفا سهلا، يا ستيفي».

هز الفتى رأسـه وعلق بندقيته علـى المحمل. نظر إلى لوحة النتائج. كان هناك أربعة رماة قبل أبيه. ذهب ليبحث عنه.

«لقد استعدت سرعتك»، قال له أبوه.

«لقد سـمعت صرير الآلة»، قال الفتى. «لا أريد أن أصعقك، يا بابا. لكن، كما تعلم، تسـتطيع أن تسمع صريرها جميعا. لكن آلة الإطـلاق الثانية يعلو صريرها علـى صرير الآلات الأخرى بمقـدار ضعفين تقريبا. يجب عليهم أن يشـحموها. لا أظن أن أحدا انتبه».

«أنا دائما أطلق لدى سماعي صرير الآلة».

«بالتأكيـد. لكن إن كان صريرها عاليا أكثر مما يجب، فالآلة على يسارك. اليسار أعلى صريرا».

لم يسـحب أبـوه طيرا من آلة الإطـلاق الثانية في الجولات الثلاث التالية. وعندما فعل، لم يسـمع صرير الآلة فقتل الطائر بالطلقة الثانية بعد أن ابتعد كثيرا، فوقع على السـياج وسـقط داخله.

«أنا آسـف، يا بابا»، قال الفتى. «لقد شحموها. كان يجب ألا أفتح فمي اللعين».

لقـد تحدثا في تلك الليلة بعد سـباق الرماية الدولي الكبير الذي شاركا فيه معا لأول مرة في حياتهما، فقال الفتى: «لا أفهم

كيف يمكن لأحد أن يخطئ في إصابة حمامة».

«لا تقل هذا قط لأي شخص آخر»، قال أبوه.

«لا. فأنـا أعنيه حقا. لا يوجد سـبب في الدنيـا يدعو إلى الخطـأ في الإصابة. لقـد أصبت الحمامة التي خسـرت فيها مرتين لكنها سقطت خارج السياج».

«هكذا تخسر».

«هذا أفهمه. هكذا خسرت. لكن ما لا أفهمه هو كيف يخطئ أحد في إصابة حمامة».

«قد تفهم ذلك بعد عشرين سنة»، قال أبوه.

«لم أقصد أن أسيء الأدب، يا بابا».

«لا عليك»، قال أبوه. «فقط لا تقل هذا لأحد غيري».

كان يفكر في هذا عندما تسـاءل عـن القصة وكتابة الفتى. فمع كل موهبته الخارقة لم يصبح الفتى صائدا ممتازا للحمائم الحيـة وحده أو من غير تدريب وتشـذيب. لقد نسـي الآن أمر التدريـب. لقد نسـي أنه عندما بدأ يخطئ فـي إصابة الطيور الحية كان أبوه يخلع قميصـه ليريه الكدمة على ذراعه الناتجة من وضعه البندقية في غير مكانها المناسـب. لقد شفاه من ذلك بأن جعله دائما ينظر إلى كتفه ليتأكد من وضع البندقية قبل أن ينادي على طائره.

لقد نسـي أمر التدرب على وضع الثقل على القدم الأمامية، وأمر خفض الرأس والاستدارة. كيف تعرف أن ثقلك على قدمك الأماميـة؟ ترفع كعب قدمك اليمنى. أخفض رأسـك، اسـتدر، وأسـرع. النتيجة لا تهم الآن. أريدك أن تصيبها حال انطلاقها.

لا تنظر قط إلى جزء من جسـد الطائر غير منقاره. استدر مع المنقـار. إن تعذر عليك رؤيته، فاسـتدر حيث يجب أن يكون. ما أريده منك الآن هو السرعة.

كان الصبي راميا رائعا بالفطـرة، لكنه عمل معه ليجعل منه راميا لا شـائبة عليه، وكان كل سـنة يأخذه ويبـدأ تدريبه على السـرعة، فيبدأ بإصابة سـتة أو ثمانية طيور من أصل عشرة. ثم ينتقل إلى تسـعة من أصل عشرة؛ حافظ على هذا المستوى، وانتقل إلى عشرين من عشرين ولن يهزمك إلا الحظ الذي يفرز الرماة الممتازين في النهاية.

لم ير أباه القصـة الثانية. لم تكتمل على نحو يرضيه. قال إنه يريد أن يكملها بشكل تام قبل أن يريه إياها. وحالما انتهى من ذلك، سيرسـلها إليه. قال إنه استمتع بعطلته أيما استمتاع، كما استمتع أيضا بما قرأه وشـكر أبـاه لأنه لم يدفعه إلـى الكتابة دفعا، لأن العطلـة في نهاية المطاف عطلة، وهـذه كانت عطلة رائعة، بل من أروع العطلات، ومما لا شك فيه أنهما أمضيا أوقاتا رائعة معا.

مضت سـبع سـنوات قبل أن يقرأ أبوه القصـة التي حازت الجائـزة من جديد. كانـت في كتاب وجده وهـو يتصفح بعض الكتب في غرفة الفتى القديمة. لم يكد يراها حتى عرف مصدر القصة. لقد تذكر ذلك الشعور بألفة قديمة. لقد كان يقلب بعض الصفحـات، فإذا بها هناك، مـن دون تغيير وبذات العنوان، في مجموعـة من القصص القصيرة الجيدة جـدا لكاتب إيرلندي. كان الفتى قد نسـخها من الكتاب تماما كما هي واستخدم ذات العنوان.

في السنوات الخمس الأخيرة من السنوات السبع الفاصلة بين الصيف الذي فازت فيه القصة بالجائزة واليوم الذي اكتشف فيه أبوه ذلك الكتاب، فعل الفتى كل ما يستطيع من أفعال شنيعة غبية، قال أبوه في سره. لكن أباه وجد له عذرا في مرضه[١٢٩]، كان المرض هو مصدر وضاعته. لقد كان على ما يرام حتى ذلك الحين. ولكن المرض بدأ بعد ذلك الصيف بسنة أو أكثر.

لقد أدرك الآن أن الفتى لم يكن فيه خير إطلاقا. لقد توصل إلى هذا بعدما استدبر كثيرا من الأمور. وما حز في نفسه هو أن يدرك أن الرماية لم تعن شيئا لذلك الفتى.

---

(١٢٩) انظر قصة «أنباء عظيمة من البر الرئيسي» التالية للتعرف على مرض الفتى [المترجم].

أنباء عظيمة من البر الرئيسي [130]
[1987]

ظلت الريح تهب من الجنوب لمدة ثلاثة أيام، فحنت جريد النخل الملكي حتى افترقت على شكل نسق يتطاول أمام الجذوع الرمادية التي لوتها الريح الشديدة. ولما اشتدت الريح، تطايرت سويقات الجريد الداكنة الخضرة، وقد قتلتها الريح. تمايلت أغصان المانغو وتكسرت بفعل الريح التي سفع لهيبها أزهار المانغو فاستحالت بنية مغبرة وجفت سويقاتها. يبست الحشائش، وجفت الرطوبة من التربة، وكان الهواء محملا بالغبار.

ظلت الريح تهب ليلا ونهارا لمدة خمسة أيام، وعندما توقفت كان نصف جريد النخل يتدلى ميتا على جذوعها، وكانت ثمار المانغو الخضراء تتناثر على الأرض والأشجار، وقد ماتت الورود المتفتحة، وجفت السويقات.

أتته المكالمة الهاتفية التي كان قد طلبها من البر الرئيسي، فقال الرجل: «أجل، يا دكتور سمپسن» ثم سمع الصوت المفرقع[131] يقول: «السيد ويلر؟ حسن، يا سيدي، إن ولدك هذا قد فاجأنا جميعا اليوم. نعم، فاجأنا. كنا نعطيه جرعته المعتادة من بنتوثال الصوديوم[132] قبل جلسة العلاج عن طريق الصعق،

---

(١٣٠) تدور أحداث هذه القصة في إحدى الجزر الواقعة على الساحل الكوبي، وهي استكمال لقصة «تداعي الذكريات» السابقة [المترجم].

(١٣١) كلمة «المفرقع» هي أيضا لقب ازدراء للشخص الأبيض الفقير في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة، لا سيما في ولايتي جورجيا وفلوريدا. فربما يكون هذا معنى آخر يقصده همنغواي [المترجم].

(١٣٢) بنتوثال الصوديوم: مادة مخدرة تحقن في الوريد [المترجم].

ولطالما لاحظت أن هذا الفتى يبدي مقاومة غير عادية لبنتوثال الصوديوم. فهل كان يتعاطى الممنوعات؟».

«ليس على حد علمي».

«لا تعرف؟ من الطبيعي ألا يطلع المرء على كل شيء. لكنه بلا شك تصرف اليوم تصرفا مثيرا للعجب. لقد قذف خمسة منا كما لو كنا أطفالا. خمسة رجال، أقول لك. اضطررنا إلى تأجيل العلاج. إنه يعاني طبعا خوفا مرضيا لا مبرر له إطلاقا من الصعقة الكهربائية، ولهذا أستخدم بنتوثال الصوديوم، لكن استحال ذلك هذا اليوم. هذه بشارة خير في نظري. لم يسبق له أن ثار على شيء من قبل. هذه أفضل إشارة رأيتها. إن حال هذا الفتى تتحسن يا سيد ويلر. أنا فخور به. لقد قلت له، لم أكن أعلم أنك تمتلك مثل هذه الطاقة، يا ستيفن. يحق لك أن تفخر به وتطمئن على حاله. لقد كتب لي واحدة من أكثر الرسائل إثارة ودلالة بعيد الحادثة مباشرة. سأرسلها إليك. لم تصلك الرسائل الأخرى؟ هذا صحيح. هذا صحيح، لقد حصل تأخير بسيط في إرسالها. لقد كانت سكرتيرتي مشغولة جدا، أنت تعرف كيف هي الأمور يا سيد ويلر وأنا رجل كثير المشاغل. بطبيعة الحال، لقد استخدم أشنع الألفاظ عندما كان يقاوم العلاج لكنه اعتذر لي بطريقة مهذبة جدا. عليك أن ترى هذا الفتى الآن يا سيد ويلر. إنه يعتني بمظهره الآن. إنه مثال الشاب الجامعي المهذب المتوق».

«أخبرني عن العلاج».

«أوه، سيعطى له. لكن علي أن أضاعف له كمية بنتوثال الصوديوم أولا. إن مقاومته لذلك تحير الألباب بكل بساطة.

أرجو أن تعلم أن هذه علاجات إضافية طلبها هو شخصيا. ربما يكون في ذلك شـــيء من المازوكية[١٣٣]، حتى هو لمح إلى ذلك في رســالته. لكننــي لا أظن ذلك. أعتقد أن ذلــك الفتى بدأ يدرك الواقع. سأرســل إليك الرســالة. يمكنــك أن تطمئن عن أحوال الفتى، يا سيد ويلر».

«ما أخبار الطقس عندكم؟».

«ماذا؟ أوه، أخبار الطقس. حســن، إنه شاذ قليلا في نظري عــن المعتاد في هذا الوقت من الســنة. بصراحة، لقد شــهدنا طقســا غير معقول هذه الأيام. يمكنــك أن تتصل في أي وقت، يا ســيد ويلر. لا داعي للانزعاج أو القلق بشأن وضع الفتى في الوقت الحاضر. سأرســل إليك الرســالة التي كتبها. يمكنك أن تقول إنها رســالة بارعة. أجل، يا ســيد ويلر. لا، يا ســيد ويلر، أنا أرى أن كل شــيء يســير على ما يرام، يا سيد ويلر. لا داعي للقلــق على الإطلاق. تود أن تتحدث إليه؟ ســأعمل على إيصال مكالمتك في المستشــفى. يفضل في الغد. من الطبيعي أن يشعر بوهن بســيط بعــد العلاج. يجدر بك أن تتصــل في الغد. تقول إنه لم يتلق العلاج؟ هذا صحيح تماما، يا ســيد ويلر. لم يخطر فــي بالي قط أن هذا الفتى يتمتع بمثل هذه القوة. هذا صحيح. سيعطى العلاج غدا. سأزيد كمية بنتوثال الصوديوم فقط. أرجو أن تتذكــر أنه هو الذي طلب هذه العلاجات الإضافية. اتصل به بعد غد نهارا. إذ إن بعد غد يوم فراغ عنده وســيكون قد ارتاح

---

(١٣٣) المازوكية (أو المازوشــية): مرض نفسي يجعل المريض يتلذذ بتعذيب الآخرين له، ونقيضه يدعى السادية [المترجم].

حينها. هذا صحيح يا سيد ويلر هذا صحيح. لا داعي لأن تقلق. يمكنني أن أقول إن تحسن وضعه لا يمكن أن يكون بأفضل حال. اليوم هو الثلاثاء. اتصل به يوم الخميس. في أي وقت يوم الخميس».

عادت الريح إلى الهبوب من الجنوب يوم الخميس. ليس في إمكانها الآن أن تفعل الكثير للأشجار سوى أن تقذف أغصان النخيل البنية الميتة أو تسفع ما تبقى من ورود المانغو المتفتحة التي لم تمت سويقاتها. لكنها جعلت أوراق الحور صفراء وحملت الغبار والأوراق المجرودة إلى بركة السباحة. ذرَّت الغبار عبر النوافذ المنخلية إلى داخل البيت وفوق الكتب وعلى اللوحات. كانت الأبقار الحلوبة تدير مؤخراتها للريح وكان الطعام الذي تجتره يصر تحت أسنانها. تذكر السيد ويلر أن الرياح تأتي دائما في أيام الصوم الكبير(١٣٤)، كان ذلك الاسم المحلي لتلك الرياح. جميع الرياح المدمرة لها أسماء محلية والكتاب الرديئون دائما تتفتح قرائحهم فيها. لقد قاوم هذا الشيء كما قاوم أن يقول كتابة إن أغصان النخيل انحنت إلى الأمام على شكل نسق يفترق عند الجذوع كما يتطاير شعر الفتيات ويفترق عندما يقفن ويدرن ظهورهن للعاصفة. لقد قاوم أن يكتب عن رائحة أزهار المانغو عندما كانوا يمشون معا في الليلة السابقة لهبوب الريح، وعن طنين النحل فيها خارج نافذته. أما الآن فقد اختفى النحل ورفض أن يستخدم الكلمة الأجنبية لهذه الريح. لقد كتب الكثير من الأدب الرديء عن الأسماء الأجنبية للريح وكان يحفظ

(١٣٤) تمتد أيام الصوم الكبير عند المسيحيين مدة أربعين يوما ابتداء من أربعاء الرماد حتى أحد الفصح، وليس لهذا الصوم تاريخ ثابت في كل السنين [المترجم].

كثيرا من هذه الأسماء. كان السيد ويلر يكتب بخط يده لأنه لم يكن راغبا في إخراج الآلة الكاتبة من غطائها في ريح الصوم الكبير.

دخل خادم البيت الذي كان من لدات ابنه وأصدقائه عندما كانا يشبان معا وقال: «المكالمة إلى ستيڤي بانتظارك».

«مرحبا، يا بابا»، قال ستيڤي بصوت أجش. «أنا بخير يا بابا بخير حقا. لقد حان الوقت. لقد هزمت هذا الشيء الآن حقا. لا يمكنك أن تتصور. لقد بدأت أدرك الواقع الآن حقا. د. سمپسن؟ إنه بخير. أنا أثق به حقا. إنه رجل طيب يا بابا. إني أثق به يا بابا. إنه أكثر واقعية وتواضعا من الآخرين. إنه يعطيني بعض العلاجات الإضافية. كيف حال الجميع؟ رائع. ما أخبار الطقس؟ رائع، هذا جميل. لا صعوبة في العلاجات. لا. لا على الإطلاق. كل شيء على ما يرام حقا. يسرني أن كل شيء عندك على ما يرام. لقد وجدت الحل هذه المرة حقا. حسن، علينا ألا نضيع فلوسنا على الهاتف. بلغ حبي للجميع. وداعا يا بابا. إلى اللقاء قريبا».

«يبلغك ستيڤي تمنياته»، قلت لخادم البيت.

ابتسم ابتسامة رضا، وهو يستذكر الأيام الخوالي.

«هذا لطف منه. كيف حاله؟».

«بخير»، قلت له. «يقول إن كل شيء على ما يرام».

بلاد غريبة(١٣٥)
[١٩٨٧]

كانت البلدة التالية عبارة عن منشرة أخشاب كبيرة لها شارع واحد طويل تنتشـر على جانبيه مبان قرميدية وخشبية بمحاذاة الطريق السـريع. كانت مناشـر الأخشـاب قريبة من السـكة الحديدية، وكان الخشب يكوم أكواما عالية بجانب السكة، وكانت حرارة الجو تعبق محملة برائحة نشـارة السرو والصنوبر. بينما كان روجـر يملأ السـيارة بالبنزين، ويتفقد المـاء والزيت وهواء العجلات، كانت هلينا تشتري شطائر الهامبورغر واللحم المشوي مع الصلصة الحارة في أحد مطاعم الغداء الصغيرة، ثم وضعتها فـي كيس ورقي بني وجاءت بها إلى السـيارة. وفي كيس ورقي آخر، كانت تحمل الشراب.

بعـد أن صارا على الطريق السـريع ثانية، وخرجا من هجير البلدة، راحا يأكلان الشـطائر ويشـربان الشراب من زجاجات فتحتها الفتاة.

«لـم أجد أيا من شـراب زواجنا»، قالت لـه. «هذا هو النوع الوحيد الذي وجدته».

«إنها جيدة وباردة. ورائعة بعد الشواء».

---

(١٣٥) «بلاد غريبة» تشكل أربعة فصول من رواية لم تكتمل، وقد كتبها همنغواي على فترتين بين العامين ١٩٤٦ و١٩٤٧، ثم بين العامين ١٩٥٠ و١٩٥١، وتشـكل هذه المشاهد المادة الأولية لنسخة مبكـرة من رواية «جزر بحرية» التي نشـرت بعد موت المؤلف العـام ١٩٧٠، ويبدو أن همنغواي رمى هذه الفصول جانبا عندما راح منحى الرواية يتغير أثناء الكتابة. ونحن بدورنا نقدم للقارئ العربي مقتطفات من هذه القصة الطويلة [المترجم].

«قال الرجل إنها تشـبه ريغل تقريبا . وقال إنني لن أتمكن من تمييز الفرق بينها وبين ريغل».

«إنها أفضل من ريغل».

«إن لها اسـما غريبا . وهو ليس اسما ألمانيا . لكن اللصاقات اهترأت من البلل».

«ستجدينه على الأغطية».

«لقد رميت الأغطية».

«انتظري حتى نوغل غربا . لديهم شـراب أفضل كلما أوغلت غربا».

«لا أظـن أن لديهم خبز شـطائر أو شـواء أفضل من هذه. أليست هذه رائعة؟».

«إنهـا في غاية الروعة. والغريـب أن هذه الناحية من البلاد ليست مشهورة بجودة طعامها».

«روجـر، هل تمانع كثيرا لو نمتُ قليلا بعد الغداء؟ لن أنام إن كنت تشعر بالنعاس».

«سيسـرني كثيـرا إن نمت. أنا لا أشـعر بالنعاس حقا . كنت سأقول لك لو كنت كذلك».

«لا تزال لديك زجاجة شـراب أخرى. اللعنة، لقد نسـيت أن أنظر إلى الغطاء».

«لا بأس. فأنا أحب أن أشربها مجهولة».

«لكن كان بإمكاننا أن نتذكر اسمها للمستقبل».

«سنشتري غيرها».

«روجر، ألا تمانع حقا إن نمت؟».

«لا، يا جميلتي».
«يمكنني أن أظل مستيقظة إن شئت».
«أرجوك أن تنامي، وعندما تستيقظين ستشعرين بالوحدة، فنستطيع أن نتحدث».
«تصبح على خير يا عزيزي روجر. شكرا جزيلا لك على الرحلة والمشروبين والشطائر والشراب المجهول وعلى المرور بنهر سواني وعلى الوجهة التي نقصدها».
«نامي يا صغيرتي».
«سأنام. أيقظني إن شئت».
نامت منكمشة على نفسها في المقعد العميق، بينما كان روجر يقود السيارة، ويراقب الطريق العريض أمامه لئلا يرتطم بقطع الأخشاب، يشق طريقه سريعا بين غابات الصنوبر، وحاول أن يحافظ على سرعة سبعين ليرى كم ميلا سيقطع فوق الستين على عداد السرعة في الساعة الواحدة. لم يسبق له أن سار على هذا الجزء من الطريق السريع، لكنه كان يعرف هذا الجزء من الولاية، وهو لا يسير عليه الآن إلا ليخلفه وراءه. عليك ألا تفوت متعة الريف، لكنك لا تملك خيارا في الرحلات الطويلة.
إن الرتابة ترهقك، قال في نفسه. الرتابة وخلو المكان من المناظر. هذا ريف يصلح لنزهة على الأقدام في الطقس البارد، لكنه رتيب عندما تعبره بالسيارة.
لم يمض على عبوري به وقت طويل كي آلفه. لكن يجب أن تكون لدي مرونة أكبر مما عندي الآن. لا أشعر بالنعاس. لقد سئمت عيناي على ما أظن وتعبتا. لكنني ما سئمت، قال في

نفسه. إنها عيناي فقط وطول العهد بعدم الجلوس طويلا. إنها لعبة أخرى وعليَّ أن أتعلمها من جديد. بعد غد تقريبا سنكون قد قطعنا مسافة كبيرة فلا تعود ترهقنا. لم أجلس بلا حراك منذ زمن.

مال إلى الأمام وأدار مفتاح المذياع حتى وجد محطة. لم تستيقظ هلينا فتركه مفتوحا ليمتزج مع خواطره وقيادته.

ما أروع أن تكون نائمة بجانبي في السيارة، قال في نفسه. إن رفقتها جميلة حتى وهي نائمة. أنت محظوظ، قال لنفسه. إن نصيبك من الحظ أكبر مما تستحق. لقد ظننت أنك تعلمت شيئا عن الوحدة وقد عملت على ذلك حقا وتعلمت شيئا. لقد كدت تمسك بطرف شيء، لكنك انزلقت إلى الوراء ورحت تجاري أولئك التافهين، مع أن تفاهتهم لم تبلغ تفاهة الشلة الأخرى، لكن تفاهتهم تكفي لأن تفارقهم. وقد يكونون أكثر تفاهة مما نظن. لكن المؤكد هو أنك كنت تافها برفقتهم. بعد ذلك عبرت تلك المرحلة وانسجمت مع توم والأولاد فأدركت أنك بلغت ذروة السعادة وأنه لم يعد ينتظرك سوى الشعور بالوحدة من جديد، بعد ذلك تأتي هذه الفتاة فتلج أبواب السعادة كأنها بلاد أنت أكبر المالكين فيها. السعادة هي هنغاريا ما قبل الحرب وأنت الكونت كاروليي(١٣٦). قد لا تكون أكبر المالكين لكنك كنت تربي أكبر عدد من طيور التدرج، على أي حال. لا أعرف إن كانت تحب أن ترمي على هذه الطيور. قد تروق لها الفكرة. سيظل بإمكاني أن أرمي عليها. هذه الطيور لا تزعجني. لم أسألها

(١٣٦) الكونت ميخائيل كاروليي (١٨٧٥ - ١٩٥٥): رجل دولة هنغاري [المترجم].

قـــط إن كانت تجيد الرماية. أمها رامية ماهرة عندما ينتشـــي رأســـها. لم تكن امرأة شريرة في البداية. بل كانت امرأة رائعة جدا، ولطيفة تدخل البهجـــة إلى القلوب وتجلب المتعة وأعتقد أنها كانت تعني ما تقول لكل أولئك الناس. أنا فعلا أعتقد أنها تعنـــي ما تقول. وقد يكون هنا منبع الخطر. على أي حال، كان لكلامهـــا وقع يجعلك دائما تصدق ما تقوله. لكنني أفترض أنه فـــي نهاية المطاف يصبح من المعيب اجتماعيا ألا تصدق أن أي زواج لا يكتمـــل حقا إلا بانتحار الزوج. فكل الأشـــياء التي تبدأ بداية ســـعيدة تنتهـــي نهاية عنيفة. لكننـــي أعتقد أن هذه هي دائما حكاية المخدرات. وأنا أعتقد أيضا أن بعض العناكب التي تلتهم شـــركاءها جذابة بشـــكل لافت. وهـي، يا عزيزي، لم تكن أفضـــل إطلاقا، إطلاقا، إطلاقا. وهنري العزيز لم يكن ســـوى بون بوش[١٣٧]. كان هنري شـــخصا رائعـــا أيضا. أنت تدرك كم كنا نحبه جميعا.

لكـــن خطر له أنـــه لم يكن أحد مـــن تلك العناكـــب يتعاطى الممنوعـــات. بالطبـــع هذا ما يجب أن أتذكره عـــن هذه الطفلة، تماما كما يجب عليك أن تتذكر الســـرعة المتعثرة لطيارة، أي أن أمها هـي أمها.

هذا كله في غاية البساطة، قال في نفسه. لكنك تعلم أن أمك كانت فاجرة. ولكنك تعلـــم أيضا أنك فاجر بطرق تختلف تماما عن طرقها. لذلك لماذا تكون ســـرعتها المتعثرة مثل سرعة أمها؟ سرعتك أنت ليست مثلها.

---

(١٣٧) «بون بوش»: عبارة فرنسية تعني «شخص ذواقة في الأكل» [المترجم].

لم يقل أحد إنها كذلك. سرعتها أقصد. ما قلته هو أنه عليك أن تتذكر أمها كما يجب أن تتذكر وهلم جرا.

هذه قذارة أيضا، قال في نفسه. فعندما تلح عليك الحاجة إليه لأي سبب من الأسباب، لديك هذه الفتاة الرائعة العاشقة، مجانا وطوع بنانك، هذه الفتاة التي تعشش في رأسها الأوهام عنك، هذه الفتاة التي بينما هي تنام في المقعد إلى جانبك، تشرع أنت في تدميرها وتتبرأ منها من دون أدنى التزام بأصول صياح الديوك، لا مرتين ولا ثلاثا ولا حتى في المذياع(١٣٨).

أنت فاجر، قال في نفسه ونظر إلى الفتاة النائمة على المقعد إلى جانبه.

أظن أنك تشرع في تدميره خوفا من أن تضيعه، أو من أن يأخذ بمجامع قلبك، أو خوفا من كونه غير حقيقي، لكنه لا يحسن بك كثيرا أن تقدم على هذه الفعلة. أتمنى أن يكون عندك في يوم من الأيام شيء، غير أولادك، لم تدمره. والدة هذه الفتاة كانت ولا تزال فاجرة، وأمك كانت فاجرة. ومن المفروض أن يقربك هذا منها ويجعلك تفهمها. هذا لا يعني أن ذلك سيجعل منها امرأة فاجرة ولا منك شخصا حقيرا. هي تعتقد أنك شخص أفضل مما أنت وهذا قد يجعلك أفضل مما أنت. لقد صار لك الآن مدة وأنت شخص طيب وقد تستطيع أن تكون طيبا. فعلى حد علمي لم ترتكب عملا شريرا منذ تلك الليلة على رصيف الميناء مع ذلك المواطن وزوجته والكلب. لم تشرب. لم تؤذ أحدا.

---

(١٣٨) أي أن روجر يفكر في التبرؤ من هلينا من دون سابق إنذار [المترجم].

من المؤســف أنك لم تعد تتسب إلى الكنيسة إذ كان بإمكانك أن تدلي باعتراف جيد(١٣٩).

إنها تراك الآن بوضعك الحالي وأنت شخص طيب منذ بضعة أســابيع، ومن الأرجح أنها تظن أنك كنت دائما هكذا وأن الناس كانوا يفترون عليك.

وأنــت قادر بالفعل على البداية من جديــد. نعم، تقدر حقا. أرجوك لا تكن ســخيفا، قال جزء آخــر منه(١٤٠). أنت قادر حقا، قال لنفسه. يمكنك أن تكون طيبا كما تظنك هي وكما أنت حاليا. هناك شيء اسمه البداية من جديد وقد أعطيت فرصة ويمكنك أن تبدأ من جديد وســتبدأ. هل لك أن تقطع كل تلك الوعود من جديد؟ نعم. إن دعت الحاجة إلى ذلك، فسأقطع كل تلك الوعود وســألتزم بها. كلها؟ وقد حنثت بها؟ أفحمه هذا السؤال. عليك ألا تراوغ قبل أن تبدأ. أجل، عليَّ ألا أفعل. قل ما تســتطيع فعله حقــا كل يوم ثم افعله. كل يوم. افعل كل ما تســتطيع يوميا، كل فعل على حدة والتزم لها ولنفســك بوعود كل يوم. هكذا يمكنني أن أبدأ من جديد، قال في نفسه، وأستقيم.

لقــد أصبحت تتحدث عن الأخلاق على نحو مرعب، قال في نفسه. إن لم تتخذ الحذر، فستجعلها تمل منك. ومنذ متى وأنت لا تتحدث عن الأخلاق؟ في عدة أحيان. لا تخدع نفسك. حسن، في عدة أماكن إذن. لا تخدع نفسك.

---

(١٣٩) الاعتــراف بالذنوب، حســب المعتقــد الكاثوليكي، هو الخطوة الأولى فــي التكفير عنها [المترجم].

(١٤٠) المقصــود بالجزء الآخر هو ضميره، وتأنيبات ضميره في الفقرات الثلاث التالية يشــار إليها بخط تحتها [المترجم].

كما تشاء، أيها الضمير، قال له. كل ما أريده هو أن تعفيني من هذه النبرة الوعظية الكئيبة. اسمع ما أقوله لك، أيها الضمير يا صديقي القديم، أنا أعلم مدى فائدتك وأهميتك وأعلم أنه كان بإمكانك أن تجنبني كل تلك المتاعب التي وقعت فيها، لكن ألا يمكنك أن تترفق بي قليلا؟ أنا أعلم أن الضمير يضع خطا تحت كلامه، وأحيانا يتكلم بالبنط العريض جدا. أيها الضمير، كان بإمكاني أن أصغي إليك لو لم تحاول إخافتي، تماما كما كان بإمكاني أن أبدي اهتماما أكبر بالوصايا العشر لو لم يزعم أنها منقوشة على ألواح من حجر. أنت تعلم، أيها الضمير، أنه مضى زمن طويل لم نعد نخشى فيه من الرعد. أما البرق، فهو على عيني ورأسي. لكن الرعد لم يعد يثير إعجابنا كثيرا(١٤١). أنا أحاول مساعدتك، يا أبن الفاجرة، قال ضميره.

كانت الفتاة لا تزال تغط في نومها عندما صعدا الهضبة المؤدية إلى تالاهاسي(١٤٢). ربما ستستيقظ عندما نتوقف عند أول إشارة ضوئية، قال في نفسه. لكنها لم تفعل، فتابع مسيره عبر المدينة القديمة ثم انعطف نحو اليسار على الطريق ٣١٩ العابر للولايات واتجه جنوبا عبر الريف الحراجي الجميل الممتد باتجاه ساحل الخليج.

إن لديك ما يميزك، يا بنيتي، قال في نفسه. لا تستطيعين أن تنامي أكثر من أي شخص عرفته في حياتي وتتمتعين بأفضل

---

(١٤١) جاء في التراث اليهودي - المسيحي أنه عندما أنزل الله وصاياه العشر على النبي موسى في جبل الطور على ألواح حجرية، ترافق ذلك مع البرق والرعد [المترجم].

(١٤٢) تقع مدينة تالاهاسي في الشمال الغربي من ولاية فلوريدا [المترجم].

شــهية تتصل بقوام رأيته كقوامك فقط، بل لديك موهبة ربانية على الاستغناء عن قضاء الحاجة.

كانت غرفتهما في الطابق الرابع عشــر ولم تكن باردة جدا. لكن مع تشــغيل المراوح وفتح النوافذ أصبحت أفضل وعندما خرج خادم الفندق قالت له هلينا: «لا تبتئس، يا عزيزي. أرجوك. إنها رائعة».

«كنت أظن أن بإمكاني أن أجد لك غرفة مكيفة».

«لكن النوم في تلك الغرف أمر فظيع حقا. كالنوم في ســرداب. لا بأس بهذه».

«كان بإمكاننــا أن نجــرب الفندقين الآخريــن. لكنهم يعرفونني هناك».

«وسيعرفوننا هنا الآن. ما اسمك؟».

«السيد والسيدة روبرت هارس».

«هذا اســم رائع. علينا أن نحاول ألا ننساه. هل تريد أن تستحم أولا؟».

«لا. اذهبي أنت».

«حسن، لكنني سأستحم حماما حقيقيا».

«هيا استحمي. نامي في الحوض إن شئت».

«قد أفعل. هل نمت طوال اليوم؟».

«لقد كنت رائعة. وكانت الرحلة مملة في جزء منها أيضا».

«بل لا بأس بها. معظمها كان رائعا. لكن نيو أورلينز ليســت كما كنت أظن. هل كنت تعلم أنها منبســطة ورتيبة؟ لا أعرف ماذا كنت أتوقع. مارسيليا على ما أظن. ورؤية النهر»(١٤٣).

---

(١٤٣) نيو أورلينز: مدينة كبيرة في الجنوب الشــرقي من ولاية لويزيانا، والنهر المقصود هو نهر المسيسبي [المترجم].

«إنها مكان نأكل فيه ونشـــرب فقط. وهذه الناحية من حولنا لا بأس بها ليلا. بل إنها رائعة إلى حد ما».

«إذن لا نخـــرج حتـــى يحل الظلام. لا بأس فـــي هذا المكان. بعضه رائع».

«سنفعل ذلك، وبعد ذلك نتابع طريقنا في صباح الغد».

«هذا معناه أنه ليس لدينا وقت إلا لوجبة واحدة»[١٤٤].

«لا بأس بذلك. ســـنعود عندما يكون الطقـــس باردا، عندها نســـتطيع أن نأكل بشـــهية. عزيزي، هذه أول خيبة أمل نلقاها. لذلك لا تدعها تكدر خاطرنا. ســـنتناول الشراب طويلا ونتناول المشروبات ونأكل وجبة أغلى مرتين من طاقتنا.

«لتذهب نيو أورلينز الأفلام إلى الجحيم»، قال لها.

«نأكل أولا. ألم تطلب وايت روك مع الثلج؟».

«أجل، هل تريدين كأسا؟».

«لا. كنت أسأل من أجلك».

«ســـيأتي قريبا»، قال روجر. سمع طرقا على الباب. «ها قد وصل. هيا باشري استحمامك».

«سأســـتمتع به أيما اســـتمتاع»، قالت له. «لن يظهر مني فوق الماء سوى أنفي وأصابع قدمي وسأستحم بأبرد ماء لديهم».

أحضـــر خادم الفندق إبريق المكعبـــات الثلجية، وزجاجة الماء والصحف، ثم أخذ بقشيشه وخرج.

أعد روجر لنفســـه مشـــروبا وجلس ليقرأ. كان متعبا وطاب له أن يستلقي على الســـرير ويضع الوسادتين تحت رقبته ويقرأ

---

(١٤٤) المتحدث في هذا السطر، كما في السطر الذي قبله، هو روجر، وهذه من عادات همنغواي [المترجم].

صحف الصباح والمساء. الأمور لا تجري على ما يرام في إسبانيا لكن معالمها لم تتضح بعد. قرأ كل الأخبار المتعلقة بإسبانيا في الصحف الثلاث، بعد ذلك قرأ برقيات الأخبار ثم الأخبار المحلية.

«هل أنت بخير، يا عزيزي؟». نادت عليه هلينا من الحمام.

«على أحسن ما يرام».

«هل أصبح لونك شديد السمرة؟».

«ليس بعد».

«هل تعلم أن الشاطئ الذي سبحنا فيه صباح هذا اليوم هو أروع شاطئ رأيته في حياتي؟».

«لا أعرف كيف يمكنه أن يبلغ هذه الدرجة من البياض والنعومة».

«عزيزي، هل أنت أسمر جدا، جدا؟».

«لماذا؟».

«لأنني أفكر فيك».

«لكن من المفروض أن يشفيك الماء البارد من هذا».

«واصل قراءتك»، قالت له. «أنت تقرأ، أليس كذلك؟».

«أجل».

«هل إسبانيا بخير؟».

«لا».

«يؤسفني هذا جدا. هل ساءت أمورها كثيرا؟».

«لا. ليس بعد. حقا».

«روجر؟».

«نعم».

«هل تحبني؟».

«أجل، يا بنيتي».

«عد إلى قراءتك الآن. سأفكر في ذلك هنا تحت الماء».

ظل روجر مستلقيا وراح ينصت إلى الضوضاء القادمة من الشارع وهو يقرأ الصحف ويشرب مشروبه. تكاد تكون هذه أفضل ساعات يومه. ففي مثل هذه الساعة كان دائما يذهب إلى المقهى وحده عندما كان يعيش في باريس، ليقرأ صحف المساء ويتناول مشروبه الفاتح للشهية. أما هذه البلدة فلا تشبه باريس ولا حتى أورلينز في شيء. حتى أورلينز لم تكن بلدة تهفو إليها القلوب. لكنها كانت بهيجة بما يكفي. وقد تكون صالحة للعيش أكثر من هذه البلدة. لكنه لم يكن على اطلاع على ضواحي هذه البلدة وكان يعلم أنه يجهل أمرها.

لقد كان دائما مغرما بنيو أورلينز، رغم معرفته القليلة بها، لكنها خيبت ظن كل من كان يؤمل منها كثيرا. ومما لا شك فيه أن الذهاب إليها لا يصلح في هذا الشهر.

كان أفضل وقت ذهب إليها فيه يوم ذهب ذات مرة في الشتاء مع آندي ومرة مع ديفد. لم يمر بنيو أورلينز عندما كان ذاهبا إلى الشمال مع آندي. مرا من جانبها بالسيارة في طريقهما إلى الشمال حتى بلغا بحيرة بونتشارتران وعبرا هاموند على الطرف الآخر للبحيرة إلى باتن روج على طريق جديد قيد الإنشاء لذلك اضطرا إلى سلوك كثير من الطرق الالتفافية ثم تابعا طريقهما شمالا عبر ولاية مسيسبي حتى بلغا الطرف الجنوبي للإعصار

القادم من الشـمال. وفي طريق العـودة جنوبا مرا بنيو أورلينز. لكن كان الطقس لا يزال باردا فاستمتعا بالطعام والشراب وبدت لهمـا المدينة زاهية تضج بالحركة في البـرد لا دبقة ولا رطبة، وكان آندي يدور على كل المحلات القديمة فاشترى سيفا بفلوس عيد الميلاد. كان يضع السيف في حجرة الأمتعة خلف المقعد في السيارة وفي الليل كان يأخذه معه في السرير.

وعندما مر بها برفقة ديڤد كان ذلك في الشـتاء حيث اتخذا مقرا لهما في ذلك المطعم الذي عليه الآن أن يحاول إيجاده، ذلك المطعم غير السـياحي. تذكر أنه كان في قبو وموائده وكراسـيه من خشب السـاج أو ربما جلسا على مقاعد بلا مساند للظهر. قـد لا يكـون كذلك بل كان مثل حلم ولم يعد يتذكر اسـمه ولا موقعـه بيد أنه يعتقد أنه كان في الاتجاه المعاكس لمطعم أنطوان على شـارع يمتد شرقا وغربا، لا شـمالا وجنوبا، وأنه بقي فيه هـو وديڤد مدة يومين. وربما اختلطت عليه الأمور فلم يعد يميز بينـه وبين مكان آخر. لقد كان هناك مكان في ليون وآخر قريب من البارك مونسـو وكانا دائما يختلطان في أحلامه. كانت هذه إحدى نتائج السـكر عندما كنت شـابا. كنت تتخيل أماكن يتبين لـك لاحقا أنه لا وجـود لها إطلاقا لكنها أفضل من أي مكان له وجود حقيقي. لقد أدرك أنه لم يأت إلى هذا المكان مع آندي.

«أنا خارجة»، قالت له.

«روجر، هل لا زلت تحبني؟».

«أجل، يا بنيتي».

«هل ستتغير مشاعرك بعد ذلك؟».

«لا»، قال لها كاذبا.

«أنا لا أتغير أبدا. إنما أشعر بالتحسن بعد ذلك. عليَّ ألا أقول لك ذلك».

«بل قولي».

«لا. لن أبوح لك بالكثير. لكننا نقضي أوقاتا رائعة، أليس كذلك؟».

«أجل»، قال لها وهو صادق.

«نستطيع أن نخرج بعد أن نستحم».

«سأدخل الآن».

«ربما يجدر بنا أنا نبقى هنا غدا. أود أن ألون أظافري وأغسل شعري. يمكنني أن أقوم بذلك بنفسي لكنك قد تفضل أن يتم ذلك بالطريقة المثلى. وهكذا يمكننا أن ننام حتى وقت متأخر ثم نقضي ما يتبقى من اليوم في المدينة ثم نغادر في صباح اليوم التالي».

«هذه فكرة سديدة».

«بدأت أحب نيو أورلينز الآن. وأنت؟».

«نيو أورلينز رائعة. لقد تغيرت كثيرا منذ وصولنا».

«سأدخل الآن. لن أتأخر أكثر من دقيقة. بعد ذلك يمكنك أن تستحم».

«لا أريد سوى حمام سريع».

بعد ذلك نزلا في المصعد. كان المصعد تشغله فتيات زنجيات وكن جميلات. كان المصعد يكتظ بأناس من الطابق الأعلى لذلك نزلوا في المصعد سريعا. جعله النزول في المصعد يشعر بخواء

داخلي على نحو لم يسبق له مثيل. كان يشعر بهلينا تلتصق به بسبب الزحام.

«إن جاء يوم لا تشعرين فيه بشيء عندما ترين سمكا طائرا يخرج من الماء أو عندما يهبط مصعد، فحري بك أن تسلمي أمرك لله».

«لا زلت أشعر به»، قالت له. «أهذا كل ما تسلم أمرك لله من أجله؟».

انفتح الباب فعبرا الردهة الرخامية التقليدية الطراز المزدحمة في هذه الساعة بأناس ينتظرون أناسا آخرين، وأناس ينتظرون للذهاب إلى العشاء، وأناس ينتظرون فقط، فقال لها روجر: «سيري أمامي ودعيني أراك».

«إلى أين أسير؟».

«سيري بخط مستقيم باتجاه باب المقهى المكيف».

لحق بها عند الباب.

«أنت جميلة. لك مشية رائعة ولو كنت هنا ورأيتك الآن لأول مرة لوقعت في غرامك».

«ولو رأيتك في آخر الغرفة لوقعت في غرامك».

«لو رأيتك لأول مرة لانقلب كل شيء داخلي واخترقني الألم حتى صدري».

«هكذا هو شعوري دائما».

«لا يمكن أن يكون هذا هو شعورك دائما».

«ربما لا يكون. لكنني هكذا أشعر معظم الأحيان».

«أليست نيو أورلينز مكانا رائعا، يا بنيتي؟».

«ألسنا محظوظين في مجيئنا إلى هنا؟».

كان الجو باردا في صالة المقهى الكبيرة البهيجة ذات السقف العالي والجدران المكسـوة بألواح الخشب الداكن. جلست هلينا بجانـب روجر على الطاولة وقالت لـه، «انظر»، ثم أرته حبيبات القشعريرة الصغيرة على ذارعها المسمر، قالت له. «لكن السبب هذه المرة هو مكيف الهواء».

«إن الجو بارد حقا. لكنه رائع».

«ماذا سنشرب؟».

«هل يجب أن نقتصد؟».

«لنقتصد قليلا».

«إذن سأشرب الأفسنتين»(١٤٥).

«هل ترى أن أشرب؟».

«لماذا لا تجربينه؟ ألم تشربيه من قبل؟».

«لا. بل كنت أنتظر لأشربه معك».

«لا تختلقي الأشياء».

«لا أختلقها. هذه هي الحقيقة».

«لا تبالغي في اختلاق الأشياء، يا بنيتي».

«لم أختلقها.. لكنني احتفظت بالأفسنتين حتى هذه اللحظة. حقا».

«هل لديك أي أفسنتين حقيقي؟». سأل روجر النادل.

«لا يفترض بنا ذلك، لكن لدي بعض منه»، قال النادل.

«لديك كوفيه بونتالييه الحقيقي ذو الدرجة الثامنة والستين؟

---

(١٤٥) الأفسنتين: شراب يصنع من عشبة بهذا الاسم [المترجم].

وليس تراغوفا؟».

«أجل، يا سيدي»، قال النادل. «لا أستطيع أن أحضر لك الزجاجة. لكني سأضعه في زجاجة پيرنو عادية».

«أستطيع أن أميزه»، قال روجر.

«أصدقك، يا سيدي»، قال النادل. «هل تريده قطرا أم ممزوجا بالثلج؟».

«بل قطرا صافيا. هل لديك صحيفات التقطير؟».

«طبعا، يا سيدي».

«بلا سكر».

«ألا تريد السيدة بعض السكر، يا سيدي؟».

«لا. سندعها تجربه من دونه».

«حسن، يا سيدي».

قبل أن يغادر النادل تناول روجر يد هلينا من تحت الطاولة.

«مرحبا، يا جميلتي».

«هذا رائع. ها نحن هنا ننتظر قدوم هذا السم الرائع القديم وسنتناول طعامنا في مكان فاخر»[١٤٦].

«وبعد ذلك نذهب إلى الغرفة».

«هل تحبين الغرفة إلى هذه الدرجة؟».

«لم أحببها من قبل. لكنني أحبها الآن».

«لماذا لم تحبيها من قبل؟».

«لا تدعنا نتحدث عن هذا الأمر».

«لن نفعل».

---

(١٤٦) المتحدث في هذا السطر، كما في السطر الذي قبله، هو روجر وليس هلينا كما قد يتبادر إلى الذهن [المترجم].

«أنا لا أسـألك عن كل واحدة وقعت في غرامها. ولا نريد أن نتحدث عن لندن، أليس كذلك؟».

«أجل، بل سنتحدث عنك وعن جمالك. هل تعلمين أنك لا تزالين تسيرين كالمهرة؟».

«قل لي، يا روجر، هل تسرك مشيتي فعلا؟».

«بل إن مشيتك تفطر القلب».

«كل ما أفعله هو أنني أمشي وكتفاي إلى الوراء ورأسي إلى الأمام. أنا أعلم أن علي تعلم بعض الخدع».

«عندما تبدين بذلك المنظر، يا بنيتي، فلا توجد أي خدع. أنت جميلة إلى درجة أن مجرد النظر إليك يدخل السعادة إلى نفسي».

«آمل ألا يكون ذلك بشكل دائم».

«في النهار فقط»، قال لها. «اسمعي، يا بنيتي. ما أريدك أن تعرفيه عن الأفسنتين هو أنه يجب أن تتناوليه ببطء شديد. لن يكون طعمه قويا عندما يمزج بالماء، لكن عليك أن تصدقي أنه كذلك».

«أصدق. كريدو روجر»(١٤٧).

«آمل ألا تغيري رأيك كما فعلت الليدي كارولاين»(١٤٨).

«لن أغيره إلا لسبب. ولكنك لا تشبهه إطلاقا».

---

(١٤٧) هنا تخاطبه هلينا باللاتينية، ومعنى قولها: «أصدقك يا روجر» [المترجم].

(١٤٨) الإشارة هنا إلى كارولاين أف برونزويك (١٧٦٨ - ١٨٢١) التي انفصلت عن زوجها جورج الرابع وهجرت إنجلترا العام ١٨١٤، لكنها عادت إليها بعد أن توج زوجها ملكا على إنجلترا العام ١٨٢٠ لتطالب بحقها في أن تكون الملكة. من الجدير ذكره في هذا المقام أن جورج الرابع كان متهتكا، وكارولاين فاسقة زانية. وهذا ما تدركه هلينا، لذلك ترفض في السطر التالي المقارنة معهما [المترجم].

«ولا أريد أن أكون».

«لســت مثله. حاول أحدهم في الجامعة أن يقنعني أنك مثله. وقد كان قصده المديح على ما أظن لكنني انتابني غضب شــديد وتشاجرت مع أستاذ الأدب الإنجليزي. لقد جعلونا نقرأ أعمالك، كما تعلــم. أقصد جعلوا الآخرين يقرأونها. أنــا قرأتها جميعا. ليــس عندك منها الكثير، يا روجر. ألا تعتقد أنه عليك أن تعمل أكثر؟».

«لقد قررت الآن أن أعمل حالما نستقر غربا».

«إذن ربما يجدر بنا ألا نبقى هنا غدا. ســأكون ســعيدة جدا عندما تعمل».

«أسعد مما أنت فيه الآن؟».

«أجل، أسعد مما أنا فيه الآن»، قالت له.

«سأعمل بجد. سترين».

«روجر، هل تعتقد أنني لا أصلح لك؟ هل أجعلك تشرب أكثر مما يجب؟».

«لا، يا بنيتي».

«يسرني هذا جدا إن كان صحيحا لأنني أريد أن أصلح لك. أنا أعلم أنها نقطة ضعف وسخافة لكنني أختلق لنفسي قصصا في اليقظــة، وفي واحدة منها أنقذ حياتك أحيانا من الغرق وأحيانا من أمام قطار وأحيانا في طائرة وأحيانا في الجبال. اضحك إن شئت. وهناك قصة أخرى أدخل فيها إلى حياتك بعد أن سئمت جميع النســاء وخاب ظنك فيهــن جميعا فتقع في هواي وأعتني بــك جيدا فتمر بعهد من الكتابة الرائعة. هذه قصة رائعة. اليوم

ونحن في السيارة رحت أختلقها من جديد».

«أنا على يقين بأنني رأيت هذه القصة في السـينما أو قرأتها في مكان ما».

«أوه، أعــرف ذلــك. لقد رأيتها هناك أيضـا. وأنا على يقين بأنــي قرأتها أيضا. لكن ألا تعتقــد أنها تحدث؟ ألا تعتقد أنني أصلــح لك؟ ليس بطريقة مائعة أو بإنجاب طفل صغير لك ولكن أصلــح لك بحيث تتمكن مــن الكتابة على نحو أفضل مما فعلت في حياتك وأدخل السعادة إلى قلبك؟».

«هذا يحدث في الأفلام. فلم لا نفعله نحن؟».

كان الأفسنتين قد جاء وكان الماء، الذي سكبه روجر من إبريق صغير، يقطر من صحيفات الثلج المكسر الموضوعة على الكؤوس ويمتزج مع المشروب الصافي المائل إلى الصفرة فيحيله إلى لون حليبي متلألئ.

«جربي ذلك»، قال لها روجر عندما بلغ المشروب اللون الغائم المناسب.

«إنــه غريب»، قالت الفتاة. «ويدفئ المعدة. إن له طعما كطعم الدواء».

«إنه فعلا دواء. دواء فعال جدا»(١٤٩).

«لســت في حاجة إلى دواء الآن»، قالت الفتاة. «لكنه مشروب جيد جدا. متى سنبدأ بالاقتصاد؟».

«في أي وقت. ســأتناول ثلاث كؤوس. أنت خذي ما تشائين. لكن خذيها ببطء».

---

(١٤٩) في الحقيقة تستخدم عشبة الأفسنتين في مركبات أدوية الهضم والإدرار [المترجم].

«ســـأرى كيف هي حالي. لا أعرف عن هذا المشروب سوى أن له طعما كطعم الدواء. روجر؟».

«نعم يا بنيتي».

بدأ يشعر كأن أتونا يشتعل في قعر معدته.

«روجر، ألا تعتقد أنه يمكنني حقا أن أصلح لك كما في القصة التي اختلقتها؟».

«أعتقــد أن كلا منا يصلح للآخر ومن أجلــه. لكنني لا أريد أن يكون ذلك قائما على أســـاس من القصص. أعتقد أن قضية القصص لا تصلح».

«لكــن ألا ترى أن هذا هو طبعي؟ فأنا مختلقة قصص وأعلم أنني رومانســية. لكن هذا هو طبعي. لو كنت عملية لما أتيت إلى بيميني قط».

لا أدري، قال روجر في نفســه. إن كان هذا ما تريدين فعله، فهذا في غاية العمليــة. وأنت لم تختلقي قصة حوله. أما جزؤه الآخــر فقال: لا بــد أنك تنزلق، أيها القذر، إن كان الأفســنتين يســتطيع أن يظهر دناءتك بهذه السرعة. لكنه قال: «لا أعرف يا بنيتي. أعتقد أن قضية القصص خطرة. في البداية تســتطيعين أن تختلقي قصصا عن شيء لا ضرر منه، مثلي، وبعد ذلك يمكن أن يعقبهــا كل ما هب ودب من القصــص. قد تختلقين قصصا رديئة».

«أنت لست شيئا لا ضرر منه».

«بــل أنا كذلك. أو القصص لا ضـــرر منها على الأقل. يمكن القــول إنه لا ضرر مــن إنقاذي. لكن قد تبدئــين بإنقاذي وبعد

ذلك قـد تتحولين لإنقاذ العالم. وبعد ذلك قد تشـرعين بإنقاذ نفسك».

«بودي أن أنقذ العالم. طالما تمنيت أن لو كان ذلك باستطاعتي. لكن هـذا أمر جلل لا يحتمل اختلاق قصـة عنه. لكنني أود أن أنقذك أولا».

«بدأت أرتعب»، قال روجر.

كرع جرعة أخرى من الأفسـنتين فشـعر بالتحسن لكنه بات قلقا.

«هل كنت دائما تختلقين القصص؟».

«منذ أن بدأ وعيي يتفتح. لقد اختلقت قصصا عنك مدة اثني عشر عاما. لم أخبرك عنها جميعا. عندي منها مئات».

«لماذا لا تكتبين بدلا من اختلاق القصص؟».

«إنـي أكتب. لكن ليس في الكتابة متعة تضاهي متعة اختلاق القصـص، إضافة إلى كونها أصعـب بكثير. ثم إنها لا تضاهيها جودة. أما التي أختلقها فهي رائعة».

«لكنك أنت دائما البطلة في القصص التي تختلقينها؟».

«لا. ليس الأمر بهذه البساطة».

«على أي حال، لا تدعينا نقلق بهذا الشـأن الآن». أخذ رشفة أخرى من الأفسنتين ولاكها تحت لسانه.

«لم أقلق قط بشـأنها»، قالت الفتاة. «ما كنت أبغيه دائما هو أنت وأنا الآن معك. وما أريده الآن هو أن تصبح كاتبا عظيما».

«ربمـا يجدر بنا ألا نتوقف للعشـاء»، قال لهـا. كـان القلق لا يـزال يأكله وقد صعد دفء الأفسـنتين إلى رأسـه الآن فلم

يأمنه هناك. قال لنفسه: ما الذي كنت تظنه سيحدث من دون أن تكون له عواقب؟ أي امرأة في الدنيا كنت تظن أنه يمكن أن يعول عليها كما يعول على سيارة بيويك جيدة مستعملة؟ أنت لم تعرف في حياتك سوى امرأتين يمكن التعويل عليهما وقد خسرتهما الاثنتين. ما الذي ستريده تلك الفتاة بعد ذلك؟ أما الجزء الآخر من عقله، فقال: مرحبا أيها الحقير. مما لا شك فيه أن الأفسنتين أظهر حقيقتك باكرا هذه الليلة.

لذلك قال لها: «أما الآن، يا بنيتي، فدعينا نحاول أن يحسن كل منا إلى الآخر ويحبه» (أخرج الكلمة برغم أن الأفسنتين جعلها تستعصي على النطق) «وما إن نبلغ المكان الذي نقصده سأعمل بأقصى ما لدي من طاقة».

«هذا رائع»، قالت له. «ولا تمانع إن أخبرتك أنني كنت أختلق القصص؟».

«لا»، قال لها كاذبا. «إنها قصص جميلة جدا». وهذا صحيح.

«هل لي بجرعة أخرى؟».

«طبعا». تمنى الآن لو أنهما لم يشرباه برغم أنه يكاد يكون أحب مشروب عنده في الدنيا. لكن كل ما وقع له تقريبا من أحداث سيئة حدثت وهو يشرب الأفسنتين، أحداث هو مسؤول عنها. اتضح له أنها تدرك أن هناك خطأ ما لذلك جاهد نفسه لكيلا يحدث هذا الخطأ.

«هل قلت شيئا يجب ألا أقوله؟».

«لا، يا بنيتي».

الجرعة الثانية دائما لها مذاق أفضل من الأولى لأن بعضا من الحليمات الذوقية تتخدر فلا تعود تشعر بمرارة الأفسنتين، وهكذا بدلا من أن تصبح الجرعة حلوة، أو حتى أكثر حلاوة، تصبح أقل مرارة فتستسيغها أجزاء من اللسان أكثر.

«إنه مشروب غريب ورائع. لكن كل ما فعله حتى الآن هو أنه يقودنا إلى حافة الخصام»، قالت الفتاة.

«أعلم هذا»، قال لها. «لذلك دعينا ننتهي منه».

«هل حدث هذا لأنك ظننتني طموحة؟».

«لست منزعجا من القصص».

«غير صحيح. لا يمكنني أن أكن لك كل هذا الحب ولا أعرف عندما تكون منزعجا».

«لست منزعجا»، قال لها كاذبا. «ولن أنزعج»، قال لها وهو عازم على ذلك. «لنتحدث عن شيء آخر».

«ما أروع أن نبلغ المكان الذي نقصده وتستطيع أن تعمل».

إنها معتوهة إلى حد ما، قال في نفسه. أم تراه المشروب يفعل بها هكذا؟ لكنه قال: «نعم، ما أروع ذلك اليوم. لكن، ألن تصابي بالملل؟».

«طبعا لا».

«أنا لا أدخر جهدا عندما أعمل».

«وأنا سأعمل أيضا».

«سيكون هذا ممتعا»، قال لها. «مثل السيد والسيدة براوننغ. لم أر تلك المسرحية قط»(١٥٠).

(١٥٠) الإشارة هنا إلى أشهر زواج أدبي في بريطانيا في القرن التاسع عشر بين الشاعر روبرت براوننغ (١٨١٢ - ١٨٨٩) والشاعرة إليزابث بارت - براوننغ (١٨٠٦ - ١٨٦١)، أما المسرحية المقصودة فهي مسرحية The Barretts of Wimpole Street (١٩٣٠) للكاتب والمترجم الهولندي - البريطاني رودولف بيزيير (١٨٧٨ - ١٩٤٢) [المترجم].

«روجر، هل من ضرورة للسخرية؟».

«لا أعرف». والآن تمالك نفسك، قال لنفسه. آن لك الآن أن تتمالك نفسك. كن طيبا الآن. «أنا أسخر من كل شيء»، قال لها. «أعتقد أن ذلك سيكون رائعا. ومن الأفضل لك أن تعملي عندما أكون منشغلا بالكتابة».

«هل تمانع أن تقرأ قصصي من وقت إلى آخر؟».

«لا. بل سأحب ذلك».

«حقا؟».

«لا. بالطبع. سيكون ذلك من دواعي سعادتي. حقا».

«عندما تتناول هذا المشروب يجعلك تشعر أن باستطاعتك القيام بأي شيء»، قالت الفتاة. «أنا سعيدة لأنني لم أتناوله من قبل. هل تمانع لو تحدثنا عن الكتابة، يا روجر؟».

«لا وحق الجحيم».

«لماذا قلت - لا وحق الجحيم؟».

«لا أعرف»، قال لها. «دعينا نتحدث عن الكتابة. أنا أعني ذلك. ماذا عنها؟».

«لقد جعلتني أشعر كالبلهاء. ليس واجبا عليك أن تعاملني معاملة الند أو الشريك. كل ما قصدته هو أنني أود أن نتحدث عن الموضوع إن طاب لك ذلك».

«لنتحدث عنه. ماذا عنه؟».

راحت الفتاة تبكي، منتصبة الظهر وتنظر إليه. لم تنتحب أو ترفع ناظريها عنه. ظلت تنظر إليه والدموع تنهمر على خديها وانتفخ فمها لكن من غير التواء أو انكسار.

«أرجوك، يـا بنيتي»، قال لها. «أرجـوك. دعينا نتحدث عن الكتابة أو أي شيء آخر ولن أكون عدوانيا».

عضت شـفتها وقالت، «أعتقد أنني أردت أن نكون شـريكين برغم أنني أنكرت ذلك».

أظـن أن ذلك جزء مما تحلم به ولـم لا يكون بحق الجحيم؟ تسـاءل روجر في نفسـه. ما الداعي إلى جرح مشاعرها، أيها السافل؟ هيا سارع إلى الإحسان إليها قبل أن تجرحها.

«أريدك أن تعلم أنني لا أريد أن أكون شـريكتك فقط، بل في الفكر أيضا، وأن نتحدث عن الأشياء التي تهمنا».

«سنفعل»، قال لها. «سـنفعل الآن. حدثيني، يا ابنة براشتن، حدثيني عن الكتابة يا حسنائي الغالية».

«ما أردت قوله هو أن هذا المشـروب جعلني أشعر كما أشعر عندما أهم بالكتابة. وأنني قادرة على فعل أي شيء، وأن بإمكاني أن أخرج بكتابـات رائعة. وعندما أكتب ليس فيما أكتب سـوى الرتابة. وكلما حاولت الالتزام بالصدق فيما أكتب، زادت رتابته. وعندما لا تكون الكتابة صادقة، فهي سخيفة».

«أنا آسفة جدا لأنني بكيت»، قالت له. «هل فعلا أنت لا تمانع لو تحدثنا عن الكتابة؟».

«بالطبع لا».

«أريـدك أن تعلم أن هذا واحد من الأشـياء التي كنت أتطلع شوقا إليها».

أجـل، وليس عندي شـك في ذلك، قال في نفسـه. ولم لا؟ وسنفعل ذلك. ربما سأستسيغه بمرور الوقت.

«ماذا عن الكتابة؟». سألها. «ماذا لديك غير ما قلته عن روعة البداية ورتابة النهاية؟».

«ألم تكن حالك هكذا في بداياتك؟».

«لا. كنت أشعر عندما بدأت أن بإمكاني أن أقوم بأي شيء وبينما أنا بصدد القيام به كنت أشعر كأنني أصنع العالم، وعندما كنت أقرأ ما كتبت أظنه من الجودة إلى حد أنني لا أصدق أنني أنا الذي كتبته. إذ لا بد أنني قرأته في مكان ما. في جريدة «ساترداي إيفننغ پوست» على الأرجح».

«ألم تفتر همتك قط؟».

«ليس في بداياتي. كنت أظن أنني أكتب أعظم قصص في الوجود بيد أن الناس ليس لديهم ما يكفي من الوعي لإدراك ذلك».

«هل كنت فعلا مغرورا إلى هذا الحد؟».

«بل أسوأ ربما. لكنني لم أكن أعتقد أنني مغرور، بل واثق فقط».

«إن كانت القصص التي قرأتها لك هي بواكيرك القصصية، فيحق لك أن تكون واثقا».

«لم تكن كذلك»، قال لها. «لقد ضاعت كل تلك البواكير القصصية الواثقة. أما التي قرأتها فقد كتبتها عندما فقدت ثقتي نهائيا».

«كيف ضاعت، يا روجر؟».

«إنها قصة فظيعة. سأرويها لك يوما ما».

«ألا ترويها لي الآن؟».

«أكره أن أفعل لأن مثل هذا الأمر حدث لأناس آخرين ولكتاب أفضل مني مما يجعل الأمر يبدو برمته ملفقا. ما كان من سبب لحدوث هذا الأمـــر ومع ذلك فقد وقع عدة مرات وقد ترك في نفســـي جرحا لا يندمل. ليس هـــذا صحيحا. لقد اندمل الجرح ولم يبق منه سوى الأثر. أثر سميك جيد».

«أرجـــوك حدثني عنـــه. إن كان ما تبقى منـــه هو أثر الجرح وليس قشرته، فهو لا يؤلم، أليس كذلك؟».

«لا، يا بنيتي. على أي حال، كنت أتبع منهجية صارمة في تلك الأيام وكنت أحفـــظ المخطوطات الأصلية في ملف من الكرتون، والنسخ الأصلية المطبوعة في ملف، والنسخ الكربونية في ملف. لكـــن يبـدو أن منهـجيتي تلـك لم تكـن باهرة إلى ذلـك الحـد. لا أعرف إن كان يمكن لي أن أنتهج نهجا سواها. أوه، اللعنة على هذه القصة».

«بل أخبرني».

«حســـن، كنت أعمل فـــي مؤتمر لـــوزان[١٥١] وكانت العطلات مقبلة فقامت أم أندرو التي كانت فتاة رائعة وجميلة جدا ولطيفة ______».

«لم أشعر بالغيرة منها في يوم من الأيام»، قالت الفتاة. «كنت أغار من أم ديڤد وتوم».

«يجب ألا تغاري من أي منهما. كانت الاثنتان رائعتين».

«كنت أغار من أم ديڤد وتوم»، قالت هلينا. «أما الآن فلا».

---

(١٥١) عقـــد مؤتمر لوزان العام ١٩٢٣ لتســـوية النزاعات بين تركيا واليونـــان بعد انهيار الدولة العثمانية [المترجم].

«هــذا من شــدة بياضك»، قال روجر[١٥٢]. «قــد يجدر بنا أن نرسل إليها برقية».

«أكمل القصة، أرجوك، ولا تتاكفني».

«حســن، أرادت أم آندي الآنفة الذكــر أن تجلب لي أعمالي لعلي أنجز شــيئا من العمل بينما نقضي العطلة معا. كانت تريد أن تجعــل من ذلك مفاجأة لي. لم تذكر لي شــيئا عن ذلك قط في مراســلاتها وعندما التقيتها في لوزان لم أكن أعلم شيئا عن الأمر. تأخرت يوما واحدا عن الموعد وقد أبرقت لي بهذا الشأن. كل مــا علمته هو أنها كانت تبكي عندما قابلتها وكانت تبكي مرة بعد أخرى وعندما ســألتها عـن السـبـب قالـت إن الأمــر فظـيـع لا تستطيع أن تخبرني عنه ثم تعاود البكاء من جديد. كانت تبكي كأن قلبها قد انفطر. هل من ضرورة لرواية القصة؟».

«أرجوك أخبرني».

«ظلت طــوال ذلك الصباح ترفــض أن تخبرني، ففكرت في أســوأ الاحتمالات التــي يمكن أن تحدث وســألتها إن كانت قد حدثت. لكنها كانت تهز رأسها فقط. أسوأ شيء خطر ببالي هو أنها خانتني أو وقعت في غرام أحد غيري، وعندما ســألتها هذا الســؤال قالت: كيف تسأل مثل هذا الســؤال؟ وراحت تبكي من جديد. شعرت بالارتياح لحظتها ثم أخبرتني أخيرا.

«كانت قد حزمت كل ملفات المخطوطات في حقيبة ملابس ثم تركتها مع بقيــة حقائبها الأخرى في مقطورة من الدرجة الأولى

---

(١٥٢) عادة يقال للمخاطب، من باب المديح والثناء: «هذا من لطفك»، أو «هذا من كرمك»، لكن روجــر هنا يصوغ عبارته على هذا المنوال من باب التندر والمناكفة، ومغزى قوله: «هذا يدل على نقاء سريرتك» [المترجم].

في قطار باريس-لوزان-ميلانو السـريع في محطة ليون ونزلت إلى الرصيف لتشـتري إحدى الصحف اللندنية وزجاجة من ماء إيفيـان. ألا تذكرين محطة ليون وما فيها من طاولات تدفع باليد عليها صحف ومجلات ومياه معدنية وقوارير صغيرة من الشراب وشـرائح لحم تتوسد شـطائر من الخبز المشـروح ذي النهايات الطويلة المدببة والملفوف بالورق وعربات دفع أخرى عليها وسائد وبطانيـات للإيجـار؟ على أي حال، عندما عـادت إلى المقطورة حاملة جريدتها وزجاجة إيفيان كانت الحقيبة قد اختفت.

«فعلـت كل ما في وسـعها أن تفعله. أنت تعرفين الشـرطة الفرنسـية. كان أول شـيء عليها أن تفعله هـو أن تبرز بطاقة هويتها وأن تبرهن أنها ليسـت محتالة من الطراز العـالمي وأنها لا تعاني هلوسـات وأن عندها بالفعل مثل هـذه الحقيبة أو إن كانت الأوراق ذات أهمية سياسـية، ولا بد يا سـيدتي من وجود نسـخ منها. ظلت على هذه الحال طوال الليل واليوم التالي إلى أن جـاء رجل من المباحث وفتش عن الحقيبة في الشـقة ووجد مسدسـا لي وأصـر على معرفة ما إن كان لـدي رخصة صيد. أظن أن الظنون راحت تسـاور الشرطة حول وجوب السماح لها بالتوجـه إلى لوزان وقالت إن رجل المباحـث لحقها إلى القطار وظهر لها في المقطورة قبيل تحرك القطار وقال لها: هل تأكدت تماما يا سـيدتي من أن جميع حقائبك لم يمسسـها أحد الآن؟ وأنك لم تفقدي شيئا آخر أو أي أوراق أخرى ذات أهمية؟

«وهكذا قلت لها: ولكن هوني عليك. إذ لا يمكن أن تكوني قد جلبت الأصل مع النسخ المطبوعة والنسخ الكربونية».

«ولكننـــي جلبتها»، قالت لي. «أنا أعلم أنني جلبتها يا روجر». وكانت صادقة. اكتشــفت صـــدق ما قالت عندمـــا توجهت إلى باريـــس لأرى. مازلت أذكر كيف صعدت الدرج وكيف فتحت باب الشقة بالمفتاح ثم سحبت المقبض النحاسي لزلاقة القفل، وكيف اســـتقبلتني رائحة الأو دو تافيل(١٥٣) من المطبخ والغبار المتســـلل عبـــر النوافـــذ إلى الطاولة فـــي صالة الطعام، ثـــم توجهت إلى الخزانـــة في صالة الطعام التي أحتفـــظ فيها بأعمالي فوجدت أنها قد اختفت جميعا. كنت واثقا بأنني ســـأجدها وأنني سأجد بعض الملفـــات لأنني كنت أراهـــا بجلاء في مخيلتـــي. لكني لم أجد شـــيئا على الإطلاق: لا مشابك الورق التي كنت أضعها في علبة من الـــورق المقوى ولا أقلامي الرصـــاص ولا المحايات ولا المبراة التي على شـــكل ســـمكة، ولا مغلفاتـــي التي طبعت عليها عنوان المرســـل في الزاوية العليا إلى اليســـار، ولا قسائم البريد الدوليـــة التي ترســـلها مع المخطوطات كـــي يعيدوها إليك، وقد كنـــت أحتفظ بهذه في علبة فارســـية صغيرة صقيلة في داخلها رسمة خلاعية. كل هذه اختفت. كلها حزمت في حقيبة الملابس. حتى إصبع الشمع الأحمر الذي كنت أستخدمه لتصميغ الرسائل والطـــرود البريديـــة اختفى. وقفت ونظرت إلى الرســـمة داخل العلبة الفارســـية ولاحظت التضخيم الغريب للأجزاء المرسومة، الذي هو ســـمة دائمة للرسوم الخلاعية، ومازلت أذكر كم كرهت الخلاعة وما فيها من صور ورسوم وكتابات، وأنه بعد أن أعطاني

(١٥٣) يبدو أن همنغواي ارتكب خطأ مطبعيا، أو لعله الناشـــر الذي فعل، فالتســـمية الصحيحة هي «أو دو جافيل» (ماء جافيل) وهو محلول كلوري يستخدم مادة منظفة ومعقمة [المترجم].

أحــد أصدقائي هذه العلبة بعــد عودته من بلاد فارس لم أنظر إلى داخلها المرسوم سوى مرة واحدة من باب المجاملة لصديقي، وأنني بعــد ذلك لم أســتخدمها إلا لحفظ القســائم والطوابع البريدية وأنني لم أنظر إلى الصور قط. شــعرت كأن أنفاســي حبســت عندما لم أجد ملفات المخطوطات الأصلية، ولا ملفات المخطوطــات المطبوعة، ولا ملفــات النســخ الكربونية. عندئذ أغلقــت باب الخزانــة بالمفتاح ودخلت الغرفة المجــاورة، وكانت غرفة النوم، واستلقيت على السرير ثم وضعت وسادة بين رجلي وطوقت أخرى بذراعي وظللت هكذا بلا حراك. لم أضع وســادة بــين رجلي من قبل ولا طوقت أخــرى بذراعي لكنني كنت حينها فــي أمس الحاجة إليهما. أدركت أن كل ما كتبته في حياتي ولي به ثقة كبيرة قد اختفى. كنت قد أعدت كتابة هذه الأشــياء مرة بعد مرة حتى صارت على نحو يرضيني، وأدركت أنه لم يعد في استطاعتي كتابتها من جديد لأنني متى كتبتها على النحو الأمثل نسيتها نهائيا، وكلما قرأتها تعجبت منها وتساءلت كيف استطعت أن أنجزها.

«وهكذا بقيت مستلقيا بلا حراك، أتعزى بالوسادتين وقد بلغ اليــأس مني مبلغا. لم أيأس يأســا حقيقيا من قبل ولا من بعد. كان جبيني يلتصق بالشــال الفارســي الذي يغطي السرير الذي لم يكن سوى فرشــة ونوابض موضوعة على الأرض وكان غطاء الســرير مغبرا أيضا وكنت أشــتم رائحة الغبــار، ولا جليس لي سوى يأسي ولا عزاء لي إلا من وسادتي».

«ما الذي ضاع منك؟». سألته الفتاة.

«إحدى عشرة قصة، ورواية، وبعض القصائد».

«يا لك من مسكين بائس، يا روجر».

«لا. لم أكن مسكينا إلى ذلك الحد لأنه كان في داخلي المزيد. لا أقصد تلك. بل ما سيأتي. لكنني كنت في وضع يرثى لي. إذ إنني، كما ترين، لم أصدق أنها يمكن أن تضيع. ليس كلها».

«وماذا فعلت؟».

«ليس ما هو عملي جدا. بقيت مستلقيا في مكاني مدة من الوقت».

«هل بكيت؟».

«لا. فقد جفت منابع الدمع في داخلي كالغبار في المنزل. هل عرفت اليأس يوما؟».

«طبعا. في لندن. لكن كان في إمكاني أن أبكي».

«أنا آسف، يا بنيتي. لقد جرفني التفكير في هذا الأمر ونسيت. أنا آسف جدا».

«وماذا فعلت؟».

«حسن، نهضت ونزلت الدرج وتحدثت مع البوابة فسألتني عن المدام. كانت قلقة لأن الشرطة جاءت إلى الشقة وسألتها بعض الأسئلة لكنها ظلت لبقة. سألتنا إن كنا قد وجدنا الحقيبة التي سرقت، فقلت لها لا، فقالت هذا حظ سيئ ومصيبة عظيمة، وسألتني إن كانت حقا جميع أعمالي فيها[١٥٤]. قلت لها نعم، فقالت: كيف لا توجد منها نسخ؟ قلت لها إن النسخ كانت فيها

---

(١٥٤) يروي روجر في هذه الفقرة والفقرتين التاليتين جزءا بسيطا مما دار بينه وبين السيدة الفرنسية من هذا الحوار الطريف بالفرنسية والبقية بالإنجليزية [المترجم].

أيضا. ثم قالت: يا سلام، ولماذا تعمل النسخ إن كانت ستضيع مع الأصل؟ قلت لها إن المدام قد وضعتها في الحقيبة بالخطأ. إنها غلطة كبيرة، قالت لي. غلطة قاتلة. لكن بالتأكيد يستطيع السيد أن يتذكرهـا (الأعمال). لا، قلت لها. قالت: ولكن سيتعين على السيد أن يتذكرها. عليك أن تستعيدها من الذاكرة. صحيح، قلت لها، ولكن هذا مستحيل. لم أعد أتذكر منها شيئا. فقالت: ولكن عليك أن تبذل ما في وسعك. سأحاول، قلت لها. ولكن بلا طائل. ولكن ما الذي سيفعله السيد؟ سألتني. لقد عمل السيد هنا منذ ثلاث سنوات. لقد رأيت السيد يعمل في المقهى الذي عند الزاوية. ورأيت المسيو يعمل على الطاولة في صالة الطعام عندما كنت أحضر له بعض الحوائج. أنا أعلم أن السيد يعمل مثل الأطرش. ولكن ما العمل الآن؟ علي أن أبدأ من جديد، قلت لهـا. عندئذ راحت البوابة تبكي. طوقتها بذراعي وفاحت منها صنة العرق ورائحة الغبار وثيابها السوداء العتيقة وكانت رائحة شعرها زنخة، وراحت تبكي ورأسها على صدري. وهل ضاعت قصائد أيضا مع ما ضاع؟ سألتني. نعم، قلت لها. يا للتعاسة، قالت لي. ولكنك تستطيع بالتأكيد أن تستعيد هذه من ذاكرتك. سأجتهد في ذلك، قلت لها. اجتهد، قالت لي. اجتهد الليلة.

سأفعل، قلت لها. أو سيد، قالت لي، المدام جميلة ولبقة وكلها لطف ورقة لكن خطأها خطأ فظيع. هل تشرب شيئا معي؟ طبعا، قلت لها، فغادرت صدري وهي تنشج لكي تأتي بالزجاجة وكأسين صغيرتين. في صحة الأعمال الجديدة، قالت لي. في صحتها، قلت لها. هل سيصبح السيد عضوا في مجمع اللغة الفرنسية؟

لا، قلت لها. قالـــت: إذن، في مجمع اللغة الأمريكية. هل تفضل الرم؟ عنـــدي رم. لا، قلت لها. المارك جيد جدا. لا بأس، قالت. كأس أخـــرى. ثم قالت، والآن اخرج من هنا واشـــرب، وما دامت مارسيل لن تأتي لتنظيف الشقة، فحالما يأتي زوجي ليحل محلي في هذا المسكن الوسخ سأصعد وأنظف لك الشقة لكي تنام فيها الليلة. هل تريدني أن أشـــتري لك أي شيء؟ هل تريدني أن أعد لك الإفطار؟ طلبت منها ذلك. بكل تأكيد، قالت. أعطني عشـــرة فرنكات وسآتيك بالفكة. بودي أن أعد لك العشاء لكن يجدر بك أن تتعشى في الخارج. حتى إن كان ذلك أكثر تكلفة. اذهب لرؤية الأصدقاء وكلوا في أحد المطاعم. لولا زوجي، لأتيت معك.

«تعالي معي وتناولي كأسا من المشروب في مقهى الهواة الآن، قلت لها. سنتناول مشروبا ســـاخنا. قالت، لا أستطيع أن أغادر هذا القفص حتى يأتي زوجي. هيا، اذهب الآن. اترك لي المفتاح. وستجد كل شيء مرتبا عندما تعود.

«كانت امـــرأة رائعة، وقد خففت عني لأنـــي أدركت أنه ليس أمامـــي إلا خيار واحد: أن أبدأ من جديد. لكني لم أكن أعلم أن ذلك في استطاعتي. بعض القصص تدور حول الملاكمة، وبعضها حول البيســـبول، والبقية حول سباق الخيول. كانت هذه الأشياء أفضل ما عرفت وألصقها بي، وعدد منها كان عن الحرب الأولى. عندما كتبت هذه القصص ســـكبت فيها كل مشاعري ومعارفي عن هذه الأشـــياء وكل ما اســـتطعت أن أعبر عنـــه وبقيت أعيد كتابتها مرة بعد مرة حتى أفرغت كل ما في ذهني ووضعته فيها. ولأنني عملت في الصحف منذ بداية شبابي فأنا غير قادر على

تذكر أي شيء حالما انتهيت من كتابته؛ ففي كل يوم تجلو الكتابة ذاكرتي مما علق فيها تماما كما تمسحين السبورة بقطعة من الإسفنج أو خرقة مبللة. ولا تزال تلك العادة اللعينة تطاردني وقد لحقت بي الآن.

«لكن البوابة ورائحة البوابة ورؤيتها العملية وعزيمتها وضعت يدها على الجرح وعزمت على شيء أنجزه، شيء عملي، شيء ينفعني وإن كان لا يساعد فيما جرى للقصص. في هذه الأثناء، شابني شيء من السعادة لأن الرواية ضاعت، إذ بدأت أرى - كما ترين بجلاء فوق الماء عندما تنقشع عاصفة مطرية عن المحيط بفعل الريح التي تدفعها بعيدا - أن في وسعي أن أكتب رواية أفضل منها. لكنني افتقدت القصص كما لو كانت مزيجا من بيتي ووظيفتي وبندقيتي الوحيدة ومدخراتي القليلة وزوجتي، وكذلك افتقدت قصائدي. لكن اليأس بدأ ينزاح ولم يبق لي سوى لوعة الفقد الذي ينتاب المرء بعد خسارة كبيرة. والالتياع ضار جدا أيضا».

«لقد خبرت الالتياع أيضا»، قالت الفتاة.

«يا لك من صغيرة مسكينة»، قال لها. «الالتياع ضار، لكنه لا يقتلك. بينما اليأس يقتلك خلال مدة وجيزة».

«حقا يقتلك؟».

«أظن ذلك»، قال لها.

«هل لنا بكأس أخرى؟». سألته. «هل ستروي لي البقية؟ فهذا الشيء هو ما كنت دائما أتساءل عنه».

«في إمكاننا أن نتناول كأسا أخرى»، قال روجر. «وسأروي لك

البقية إن كان ذلك لا يضجرك».

«يجب ألا تتحدث عن إضجاري، يا روجر».

«في بعض الأحيان، أســأم من نفســي»، قال لها. «ولهذا فإن إمكانية إضجاري لك بدت أمرا طبيعيا».

«أرجوك، جهز المشروب ثم أخبرني ما حدث».

المؤلف في سطور

إرنست همنغواي

- ولد سنة ١٨٩٩ في أوك بارك، في ولاية إلينوي الأمريكية.
- بعد تخرجه في المدرسة الثانوية، عمل صحافيا لمدة ستة أشهر قبل أن يلتحق بالجبهة الإيطالية بصفة سائق سيارة إسعاف متطوع خلال الحرب العالمية الأولى. ثم حصل على وسامين من الحكومة الإيطالية تقديرا لشجاعته.
- انتقل للعيش في باريس سنة ١٩٢١، حيث انضم إلى مجموعة كتاب المهجر الأمريكان من أمثال غيرترود شتاين وإزرا باوند. لكنه عاش أيضا في ما بعد في كي وست، في ولاية فلوريدا، وإسبانيا، وكوبا.
- بالإضافة إلى الحرب العالمية الأولى، شهد همنغواي أيضا الحرب اليونانية - التركية، والحرب الأهلية الإسبانية، ثم الحرب العالمية الثانية، وقد استقى موضوعات عدد من قصصه ورواياته من هذه التجارب التي عاينها بصفة مراسل حربي.
- نشر عددا كبيرا من الروايات والمجموعات القصصية، وله مسرحية واحدة.
- نال جائزة بولتسر، وهي أرفع جائزة أمريكية أدبية سنة ١٩٥٣، كما منحته الأكاديمية الأمريكية للآداب ميدالية الاستحقاق للرواية. وفي سنة ١٩٥٤ نال جائزة نوبل للآداب.
- كان أسلوبه في السرد الأدبي من نوع السهل الممتنع، حيث يترك شخوصه يعيشون حياتهم ولا يقول عنهم شيئا، بل يجعل أفعالهم هي التي تشي عن دواخلهم. وقد تأثر عدد كبير من الكتاب بهذا الأسلوب.
- تزوج أربع مرات، وكان يعشق الصيد بأنواعه والحياة البرية، ويهوى الملاكمة ومصارعة الثيران. لكنه في السنوات الأخيرة من حياته تكالبت عليه الأمراض، فمات منتحرا سنة ١٩٦١.

المترجم في سطور

د. موسى الحالول

● من مواليد ١٩٦٥، الرقة، الجمهورية العربية السورية.

● درس الأدب الإنجليزي في جامعة حلب، وتخرج فيها سنة ١٩٨٧.

● حصل على الماجستير والدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة بنسلفانيا الحكومية، الولايات المتحدة الأمريكية، وتخرج سنة ١٩٩٥.

● درس الأدب الإنجليزي في جامعة تشرين بسورية، ثم في جامعتي جرش والعلوم التطبيقية بالأردن. وهو الآن أستاذ مشارك في جامعة الطائف بالمملكة العربية السعودية.

● نشر عددا من الكتب المترجمة عن الإنجليزية هي: «النبوءة والرونيات: من الأدب الإسكندنافي»، «خفايا ما بعد الحداثة»، «هكذا تكلم الشايكنغ»، «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم»، «حكايات إيسوب» (وهذا الأخير بالاشتراك مع سمر رزق).

● كما ترجم إلى الإنجليزية رواية فخري قعوار، «عنبر الطرشان»، وجزءا من رواية رشيد بوجدرة، «ليليات امرأة آرق».

● له مجموعة قصائد وقصص قصيرة منشورة بالإنجليزية بعنوان: «قواعد جديدة للنظام العالمي الجديد»، وآخر إصداراته كتاب نقدي عن الأدب العربي بعنوان «العربية المعذبة».

المراجع في سطور

د. إسماعيل صافية

● من مواليد سورية ١٩٦١.

● حاصل على الإجازة الجامعية في اللغة الإنجليزية وآدابها، من جامعة دمشق العام ١٩٨٣.

● ماجستير في علم اللغة، وعلم اللغة التطبيقي من جامعة إلينوي - شامبي - بالولايات المتحدة الأمريكية العام ١٩٨٩، ودكتوراه في علم اللغة من الجامعة نفسها العام ١٩٩٢.

● يعمل أستاذا مساعدا في اللغة الإنجليزية، بالجامعة العربية المفتوحة.

● ناشط ومهتم جدا بالبحث العلمي في اللغويات وطرق تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية وكلغة ثانية.

● له عدد من الترجمات والمراجعات مع سلسلة «إبداعات عالمية»، ومجلة «الثقافة العالمية».

إصدارات قادمة

النمر الأبيض

(رواية)

تأليف: آرفينر آديجا

ترجمة: د. طيبة صادق

مراجعة: د. زبيدة أشكناني

ما صدر من هذه السلسلة

318	نون والقلم	تأليف: جلال آل أحمد
319	سيري ساميهجي	تأليف: تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف: جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف: إيتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف: ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف: مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف: رولان بارت
325	لون الماء	تأليف: جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف: أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف: اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف: مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف: بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف: بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف: جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف: هاينريش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف: اندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم	تأليف: فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف: مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف: ليوبولد سيدار سنغور
337	البيروح	تأليف: نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف: جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف: تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات افريقية (1) الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات افريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

	الأطفال والسيول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: 1- محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: او. هنري
352	مسرحية «انتيجون»	تأليف: ب. بروفت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو	
	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: 1- صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: 1- تلاميذ الخوف -2 القزاة	تأليف: ايجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولندا)	تأليف: ايرينيوش ايريديسكي اندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروجيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايفيد خونسالِيس غاليغو
367	مسرحيتا: 1- سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	-	١٢	-	١٢	-	٢٥	-
الأفراد داخل الكويت	١٠	-	٦	-	٦	-	١٥	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	-	١٦	-	١٦	-	٣٠	-
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	-	٨	-	٨	-	١٧	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	٥٠	-	٣٠	-	٢٠	-	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	٢٥	-	١٥	-	١٠	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	١٠٠	-	٥٠	-	٤٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	-	٥٠	-	٢٥	-	٢٠	-	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	**مدة الاشتراك:**
المبلغ المرسل:	**نقداً/ شيك رقم:**
التوقيع:	**التاريخ: / / ٢٠٠م**

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

اسماء وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشويخ - ص.ب 64185 - الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	00971 242629273	00971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585	00966 (01) 2128000	00966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية - دمشق - البرامكة	00963 112127797	00963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص.ب 372	00202 25782700-25782632	00202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب - الرباط - ص.ب 13683 - زنقه سجلماسه - بلفدير - ص.ب 13008	00212 522249200	00212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس - ص.ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000	00216 71322499	00216 71323004
لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان - بيروت - خندق الغميق - شارع سعد - بناية فواز	00961 1666314/5 01 653259	00961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية - صنعاء	00967 2/3201901	00967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان - تلال العلي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	00962 65300170 - 65358855	00962 65337733
البحرين	مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف	البحرين - المنامة - ص.ب 10324	00973 17 480801	00973 17 480819
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص.ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العذيبة - سلطنة عُمان	00968 24492936	24493200 00968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر - الدوحة - ص.ب 3488	00974 4557809/10/11	00974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله - عين مصباح - ص.ب 1314	00970 22980800	00970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان - الخرطوم - الرياض - ش المشتل - العقار رقم 52 - مربع 11	002491 83242702	002491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	00213 (0) 31909590	00213 (0) 31909328
العراق	شركة الازدهار للتوزيع	Al Izdihar (alizdihar__co@yahoo.com)	-	-
نيويورك	Media Marketing	Long Island City. NY 11101 - 3258	00718 4725488	00718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	(0) 0044 2087499828 0044208 7423344	44208 7493904

سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المسرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني العام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط.

وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مسماها إلى سلسلة «إبداعات عالمية» العام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشر الترجمات الإبداعية الراقية من لغات مختلفة، وتنطلق أهداف السلسلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشر وتقديم ترجمات رصينة من الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرها، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلسلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

١ - أن تكون المادة المقترح ترجمتها مميزة في المستوى الفكري والأدبي الرفيع، ولم يسبق نشرها في أي مكان آخر.

٢ - يجـــب ألا يزيد حجم المــادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوســط، وأن تكــون مصحوبة بنبـــذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣ - يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مــع الكتاب في لغته الأصلية، ويرســـل مطبوعا على الآلة الكاتبة مع وضع نســـخة من النص المترجم في ديســـك أو CD، مــع تدوين أرقام صفحات الكتـــاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤ - السلســـلة غير مســؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥ - المواد المقدمة للنشـــر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمـــي على نحو ســـري من قبل هيئة تحرير السلســـلة، ويجـــري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافـــات اللازمـــة عليها قبل نشـــرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصـــرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلســـا عـــن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرســـال ســـيرة ذاتية وافية (C.V) للمترجم، تتضمن البيانات الرئيســـية عن نشاطه الأدبي الســـابق، وعنوان المراســـلة التقليدي والإلكتروني، واســـمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حســـب جواز ســـفره، بالإضافة إلى كتابة اســـم البنك الـــذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

إبداعات عالمية

المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي
(الجزء الثالث)

في هذا العدد من سلسلة «إبداعات عالمية» نقدم للقارئ الكريم الجزء الثالث والأخير من المجموعة القصصية الكاملة للكاتب والروائي الإنجليزي الشهير إرنست همنغواي.

فهذا العدد الذي بين أيدينا يحتوي تقريبا على ١٨ قصة قصيرة مختلفة في زمن ومكان وقوعها.

ولقد استمد الكاتب همنغواي أغلب موضوعات قصصه من تجاربه الشخصية وأسفاره وقراءاته، مما أدى إلى تنوع الأزمنة والأمكنة في القصص إضافة إلى اختلاف اللغات أحيانا.

كما غلب الطابع الدرامي على قصصه وطغى الحوار على السرد فيها.

كما نلاحظ اختلاف وتنوع الشخصيات والأبطال، فهم ليسوا أبطالاً تقليديين، بل هم أناس عاديون فيهم من المحاسن والمميزات، وفيهم من العيوب الشخصية والفكرية ما فيهم.

وفي النهاية نتمنى أن نكون قد وفقنا في نقل قصص وأدب الكاتب الشهير إرنست همنغواي للقارئ العربي بالصورة التي تليق به وبنجاحه وشهرته.

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٣٨٧
ردمك: ٠-٣٢٠-٠-٦-٩٩٩٠٦